تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها

في شرق الجزيرة العربية وعُمان

تأليف

عبد الرحمن بن عثمان بن محمد الملا

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

اهداءات ٢٠٠٣

أ/ عبد الرحمن عثمان الملا

المملكة العربية السعودية

297

الى منهل الفكر الانساني الرائد

ومنارة الحضارة البشريه الخالده ..

الى مكتبه الاسكندريه .. اهدي هذه النسخة .

المؤلف

عبد الرحمن عثمان الملا

١٥ يوليو ٢٠٠٣م

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

رقم التسجيل ١٠٤٨٤٨

تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها

في شرق الجزيرة العربية وعُمان

تأليف

عبد الرحمن بن عثمان بن محمد الملا

الناشر
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
تليفون : ٨٦٤٠٠٤٠ / ٨٦٤٤٤٧٠ ـ فاكس : ٨٩٨١٣٠٤
الخبر ٣١٩٥٢ ـ ص. ب : ٣٤٩ ـ المملكة العربية السعودية

ⓒ الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الملا ، عبد الرحمن عثمان

تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعُمان .

.... ص ؛ .... سم

ردمك : ٤ – ٠٠ – ٦٩١ – ٩٩٦٠

١ ـ الأدب العربي ـ تاريخ   ٢ ـ الثقافة العربية

أ ـ العنوان

ديوي ٨١٠٠٩٩٥٣١   ١٥/١١٦٢

رقم الإيداع : ١٥/١١٦٢

ردمك : ٤ – ٠٠ – ٦٩١ – ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

اهداء

لجميع الذين ساهموا

ويساهمون

في ري شجرة الحياة

أو تخضيب الشوك...

من اغصانها

أهدي هذا الكتاب

المقـــــدمة

عزيزي القارىء : إن هذا الكتاب الذي أضعه بين يديك عن تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية يعود الفضل في وضعه للسادة القراء المهتمين بما نشرته عن تاريخ هذا الجزء من الوطن الغالي .

فقد وردت عليّ منهم أسئلة كثيرة دار معظمها حول الاستفسار عن المسار الفكري لسكان هذه الأراضي قبل إشراق الإسلام على ربوعها . وكيف نفذت أشعة الإسلام إليها دون أي عناء؟ ولماذا صارت بعد فترة وجيزة مسرحاً للعديد من الحركات ذات الإتجاهات المتطرفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار؟ ولمن يعود الفضل في القضاء على تلك الحركات وإزالة آثارها؟ ولأن هذه الأسئلة ومثلها كانت ولا تزال تشغل أذهان كثير من القراء دون أن تتوفر لهم الإجابة الدقيقة الكافية عنها فقد رأيت أن تتسم إجابتي على ما ورد عليّ من الأسئلة فى هذا الشأن بالإستقصاء والشمول، وأن تُصبح في متناول أيدي القراء في أي زمان ومكان .

فجاء هذا الجهد المتواضع الذي أقدمه لهم راجيًا أن يجدوا فيه ما يبُل الصدى ويُطفئ الغُلة .

وقد تناولت هذه القضايا عرضًا ودراسة من خلال النصوص الواردة بكتب التراث في هذا المضمار، متوخيًا في ذلك إلتزام جانب الأمانة المطلقة والموضوعية التامة .

وقد قسمت الكتاب إلى ستة أقسام اشتمل القسم الأول على عدة مباحث تناولت البحث في نوع العبادات التي رافقت إنسان شرق الجزيرة في المحطة الأولى من رحلته مع التاريخ، وكيف ارتبطت تلك العبادة بتقديس عنصري الماء والأرض بإعتبارهما أهم عناصر الإخصاب والحياة في نظره، ولعل وجوده في تلك الواحات الغناء بين أشد المفازات وحشة ووعورة من أهم أسباب إنحرافه إلى ذلك النوع من الوثنية التي ظلت شائعة حتى أخذت الأديان السماوية وغيرها من أنواع العبادات السائدة في العالم آنذاك طريقها إلى المنطقة بتدفق الأجناس البشرية

عليها من مختلف الأمم والشعوب حين أصبحت من أهم مناطق الجذب السكاني لتوسط موقعها بين دوائر حضارات الشرق الأدنى القديم والدور الرائد الذي اضطلعت به في مجال المواصلات والتبادل التجاري والفكري بين تلك الحضارات .

الأمر الذي جعل هذه البلاد ملتقاً لديانات وعبادات شتى كان أبرزها النصرانية النسطورية لإنتشارها في عبد القيس وعرب شرق الجزيرة حيث ظلت سائدة فيهم إلى أن ظهر الإسلام. وقد قادني الإستطراد في هذا البحث لاستعراض جانب من نشاط حركة التنصير التي شهدتها منطقة الخليج في النصف الأول من القرن العشرين على يد جماعة من كبار المبشرين بالدين المسيحي وما مُنيت به جهودهم من فشل وإحباط في هذا الشأن .

وفي القسم الثاني : تركز البحث على انتظام هذه المنطقة في عقد الإسلام وعلاقتها بالمدينة المنورة في أيام النبوة وأثرها في نشر الرسالة ودعم مسيرة الجهاد، ثم موقف أهلها من زوبعة الردة التي إجتاحت الجزيرة في إثر إنتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

أما الأقسام التالية فقد ألقت الضوء على نشأة حركة الخوارج وأهم نشاطاتها واتجاهاتها في شرق الجزيرة، وكذلك التشيع وأسباب بروزه وفرقه في هذا الجزء، ثم نشأة الحركة القرمطية ونجاحها في الإستيلاء على هذه البلاد، وتطبيق تجربتها الاقتصادية فيها، والنشاط الإرهابي والعسكري للقرامطة في الداخل والخارج ودور عبد القيس ومن سار في ركابهم من أهل البلاد في الإطاحة بالنظام القرمطي ومحو آثاره، وإعادة بناء المجتمع .

وهذه الحركات وإن كانت قد إتخذت من بلدان المسلمين جمعاء مسرحًا لنشاطاتها، فإن لها في كل بلد طابع متميز وأسباب خاصة أملتها الخصائص والظروف المحلية لذلك البلد .

الأمر الذي يحفز الباحثين لدراستها بعناية أكثر في كل إقليم على حدة، واضعين نصب أعينهم الملابسات والأوضاع الخاصة التى أدت إلى قيامها فيه .

لأن فهم هذه الأمور ومعالجتها بالأساليب العلمية والأخلاقية المناسبة يمنع تمامًا فرص تجدد ظهور تلك الحركات أو أشباهها مهما اشتد بريق الزيّ الذي ترتديه .

وإنطلاقًا من قناعتي بجدوى مثل هذه الدراسات تناولت في هذا الإطار دراسة الحركات الآنفة الذكر بشرق الجزيرة العربية في ضوء الأحوال والدوافع المحلية التي أفضت إلى إندلاعها في هذا الجزء، والتي يمكن إجمالها في تدهور الأوضاع الاقتصادية وانتشار المظالم، وسوء معالجة المشاكل الناجمة عنها، فبعد أن نعمت هذه البلاد في عهد النبوة بحياة الأمن والاستقرار والازدهار الاقتصادي كما يشهد بذلك ضخامة خراجها في أيام النبي ﷺ ، بعد هذا كله أخذ الضعف والخمول يتسلل إلى المؤسسات الاقتصادية في البلاد ومصادر الدخل فيها، وذلك في أعقاب إنشاء مدينة البصرة التي أصبحت فور إنشائها مركز الثقل التجاري والاقتصادي والثقافي والسياسي فانتزعت زمام الحركة التجارية من أقاليم شرق الجزيرة وبخاصة البحرين، حيث صارت أساطيل التجارة التي إعتادت التعامل مع أسواق شرق الجزيرة والرسو في موانئها وإنعاشها بالعوائد والرسوم تتجه إلى البصرة، فإنقطع عن أسواق هذه النواحي مصدر من أهم مصادر الدخل فيها وأخذت تبعًا لذلك تفقد الدور المتميز الذي كانت تلعبه في الوساطة التجارية بين مراكز الحضارات، فبدأ الضعف والخلل يدب في أوصال الحياة الاقتصادية والأمنية في البلاد، وزاد من سوء الحال أن أشرافها وأصحاب الرأى والثروات فيها أخذوا في النزوح عنها بخبراتهم وثرواتهم إما بالإستقرار في البصرة أو المشاركة في الفتوحات الإسلامية والصراع الذي تأجج أواره بين المسلمين منذ أواخر أيام الخلافة الراشدة. هذا بالإضافة إلى أن أقاليم شبه الجزيرة بإستثناء الحجاز قد مُنيت من معظم الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي بالإهمال الشديد، فقد أداروا لها ظهورهم مستغنين عنها بما أفاء الله عليهم من خيرات الأقاليم الثرية الواسعة التي تمكنوا من فتحها، فأوكلوا أمرالجزيرة لولاة من الأقارب والأصفياء وكان هؤلاء يفضلون الإقامة بقرب دار الخلافة على الإدارة المباشرة لولاياتهم مكتفين بتأمير عمال من قبلهم عليها، وكان كل همّ هؤلاء العمال

في الأغلب إرضاء ساداتهم، بما يحملون إلى خزائنهم من أموال بغض النظر عن الوسائل والسُبل التي كانت تتبع في جبايتها من الأهالي كما كان تدمير الموارد الاقتصادية كحرق الزروع وردم عيون المياه الجارية إحدى الوسائل المعتادة في قمع الانتفاضات وحركات التمرد التي كانت تحدث كرد فعل لتلك الحياة البائسة ولعل ردم أم السجور وهي من أهم العيون الجارية في جزيرة أوال على يد عساكر الأمويين من أدل الاشارات في هذا السياق. بل ربما صغرت أقاليم واسعة من الجزيرة في أعين بعض الخلفاء لحد بذل خراجها أو تقليد أمرها لشاعر من الشعراء نظير قصيدة حظيت بإعجابهم من ذلك الشاعر، وإن كان من المشهود له بسوء السلوك والسيرة في الناس .

فقد ذكر ابن جرير [١] أن المتوكل العباسي قلّد ولاية إقليمي اليمامة والبحرين للشاعر مروان بن أبي الجنوب من آل أبي حفصة أهل اليمامة، وقد يكون باعث هذا السخاء على حد قول الشيخ حمد الجاسر الاستهانة بقدر هذين الإقليمين وضعف منزلتهما في نفس هذا الخليفة [٢] .

وعلاوة على ما سبق فقد إتخذ الخلفاء أراضي الجزيرة منفاً لمعارضيهم والمتمردين عليهم .

فقد ذكرت المصادر أن المغيرة بن شُعبة قام بنفي صعصعة بن صوحان العبدي من الكوفة إلى جزيرة أوال بأمر معاوية كما قام الحجاج بن يوسف بإرغام الربيع بن حبيب الفراهيدي على الإقامة الجبرية في عُمان .

وجاء عن ابن جرير في حوادث سنة ٢٤٤هـ أن المتوكل العباسي غضب على بخت يشوع فقبض ماله ونفاه إلى البحرين .

وفي العقد الثمين في ترجمة قاسم بن محمد بن جعفر بن هاشم العلوي المتوفى سنة ٥١٨هـ أن ابن الأثير ذكر في الكامل أنه في سنة ٥١٥هـ ظهر بمكة

---

(١) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية ، القسم الأول ، ص٨١ ، الشيخ حمد الجاسر.
(٢) المرجع السابق.

إنسان علوي من فقهاء النظامية فأمر بالمعروف وكثر جمعه فقاوم ابن أبي هاشم وحين ظفر به الأخير نفاه من الحجاز إلى البحرين .

ومن المعلوم أن هؤلاء المنفيين وصلوا إلى البلاد وفي رؤسهم أفكار ومبادئ ناضلوا في سبيل تطبيقها وفي قلوبهم ضغائن وأحقاد على أولئك الذين كبحوا جماحهم وقاموا بنفيهم إلى هذه النواحي، وقد وجدوا في المجتمع البائس الذي حلّوا بين ظهرانيه فرصة مواتية لترويج أفكارهم ومبادئهم بين أفراده وتأليبهم ضد السلطة القائمة فكانوا كمن يصب الزيت على اللهب .

إن هذه الأمور السالف ذكرها وضعت السكان في مواجهة ظروف قاسية تفوق إحتمالهم فصاروا جاهزين للسير وراء كل من يمنيهم بالخلاص من حياة الشقاء والمعاناة التي اصطلوا نارها ردحًا من الزمن، فساندوا حركة الخوارج في اليمامة والبحرين وعُمان، وقاموا بانتفاضات متعددة حتى نجحوا في سلخ أقاليمهم من جسد الخلافة العباسية ولكن العصبية القبلية التي استيقظت واستعر لظاها بين قبائل الجزيرة العربية دفعت كل قبيلة للاستقلال بما تحت يدها من الأراضي فكونت إمارة خاصة بها فحال ذلك دون ظهور سلطة موحدّة قادرة على توفير حياة الأمن والاستقرار في البلاد والذود عن حياضها فكانت ثمرة ذلك تداعي هذه الإمارات وسقوطها واحدة بعد أخرى أمام جحافل الزحف القرمطي حين اجتاح معظم بلاد الإسلام وأصبحت الجزيرة العربية إحدى فرائسه زهاء مائة وثمانين عامًا إلى أن تم في نهاية المطاف الإطاحة به وإقتلاع جذوره وإزالة آثاره وإعادة صياغة المجتمع من جديد في إطار تعاليم الإسلام وقيمه .

إن دراسة تاريخ هذه الحركات سيكون مفيدًا متى استطعنا استخلاص الدروس النافعة منها لتفادي الأسباب والعوامل التي تهئ المناخ الملائم لإندلاع الفتن والخصومات من أي نوع عن طريق الإلتزام بتحقيق العدالة الاجتماعية وإزالة المظالم وتوفير الحياة الآمنة الكريمة للناس كافة وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

عبد الرحمن بن عثمان آل ملا

القسم الاول

العبادات السائدة في المنطقة قبل الإسلام

كانت الأساطير والحكايات الموغلة في القدم النافذة الوحيدة التي يشرف من خلالها المؤرخ على ملامح الحياة السائدة في المعمورة منذ آلاف السنين وقبل التاريخ المدون، ومن بينها نمط العبادة المتبعة آنذاك .

هذا إذا استثنينا ما نصت عليه أو أشارت إليه الكتب السماوية المقدسة .

فقد مرّ الإنسان بمراحل عدة خلال تكيفه مع البيئة الطبيعية المحيطة به، وإرتقائه سلم الحضارة الطويل، وسعيه في البحث عن ألوان المعارف الإنسانية وفي مقدمتها معرفة الوجود ومكانه فيه ومعرفة مُوجد الوجود علاقته به، وواجبه تجاهه .

فمن المعلوم أن الإنسان حتى بعد ما إنحرف عن منهج الله ونسى ما جاءت به التعاليم السماوية عندما بهرته مظاهر الكون المختلفة كالشمس والقمر والماء والشجر، ووجد نفسه ضعيفًا عاجزًا أمام ما تزخر به بيئته من قوى عاتية ووحوش ضارية حتى بعد ذلك كله أدرك الإنسان أن ثمة قوة خفية قامت بخلق هذا الكون وهي وحدها القادرة على الحماية وتوفير أسباب الحياة ومقومات الوجود، وبإختلاف الأماكن والبيئات إختلفت السُبل في تفسير تلك القوة وكيفية العلاقة بها والتقرب إليها وتفادي سخطها، وفي هذا الإطار رأى إنسان شرق الجزيرة العربية في الماء والأرض كُنها تلك القوة التي يبحث عنها، فتأله لهما واتخذ من العلاقة بينهما محور منهجه الفكري البدائي، وفي مرحلة زمنية تالية انتقل إنسان هذه البلاد إلى رؤية دينية أخرى كان لها من الرموز والطقوس والهياكل والنواميس ما يميزها عن المرحلة السابقة، كما تدل على ذلك الكشوف الأثرية في هذه البلاد كالمعابد والمقابر وما وجد فيهما من معثورات لها دلالتها رغم خلوها من الكتابات التي تزودنا بالمعرفة الواضحة الكاملة الدقيقة عن نمط تلك العبادات، ظل ذلك الحال قائماً حتى ظهرت في هذه البلاد العبادات التاريخية التي سادت أرجاء المعمورة كالوثنية بألوانها المختلفة ثم الأديان السماوية وهي اليهودية والنصرانية، والإسلام، وما انبثق عنه من تيارات واتجاهات فكرية متنوعة، شهدتها هذه البلاد وسنحاول في هذا الفصل إلقاء بعض الأضواء على جميع هذه المراحل من زاوية التاريخ لها فحسب وبالقدر الذي يوضح مكان هذه البلاد في حركة الفكر الإنساني منذ أقدم العصور .

أولاً : عصور ما قبل التاريخ المدون

العبادة من خلال الأساطير :

يشير بعض المؤرخين إلى أن شرق الجزيرة العربية من أكثر المناطق سبقًا لصياغة الفكر الإنساني، والبناء الحضاري فقد جاء عن السير (هـ رولنسون) [(١)] قوله : (يقر البابليون والذين قد أعطوا الكثير للحضارة بأنهم أنفسهم قد أخذوا أغلب معارفهم من سكان جزر عجيبة تقع في خليج فارس وتتحدث حكايات الأقدمين عن أوانس Oannes (إله السمك) الذي جاء من وراء البحر الأريتري - المجاور لحدود بابل - وهو الذي علم أهالي ما بين النهرين دجلة والفرات الحروف (اللغات) والعلوم والفنون من كل نوع وقد كان ذلك في فجر الحضارة) .

ومن الكتابات المنقوشة يبدو أن Oannes كان هو « رب المعرفة » God of Knowledge وسيد الشعوب القديمة الأولى مثل ايريد Erid وسورباك Surippak وكلخا Khalkha وغالبًا ما يعرف أوانس Oannes بإسم the God of the house of water أي رب مملكة الماء .

وقد أطلق عليه رولنسون لقب هيا وتابعه في استعمال هذا اللقب بعض الباحثين .

ولم يكن أولئك البدائيون آباء المعرفة الذين كانوا أول من أتى بالحضارة ونقلها إلى المقيمين عند ضفاف دجلة والفرات على حد قول لرولنسون إلا الجنس الأسود (Dark Race) أي أجداد « أصحاب الرؤوس السوداء » ومن المعلوم أن أولئك الناس لا ينتمون إلى الساميين لأنه لا توجد في أساطير وجغرافية منطقة الخليج (خليج فارس) والبحر الأريتري ما يدل على صلة لهم لا بالعبرانيين ولا بالعرب ولكن اعتمادًا على نوعية لغتهم فإن هذا «الجنس الأسود» قد ينتمي إلى الأكاديين في بابل .

ومن جهة ثانية يمكننا أن نرجح بأن سبقهم قبل غيرهم إلى الرقي والحضارة يعود الفضل فيه إلى مركز بلادهم الممتاز بتوسطه ووقوعه على الطريق الكبير بين الشرق والغرب .

---

(١) البحرين عبر التاريخ ، تأليف : الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك يوسف الحمر ، من ص١٥٤ - ص١٦٥ - الطبعة الثانية (البحرين) .

ويستطرد (رولنسون) فيقول : ولكن عبادة « هيا » Hea أو نبتون Neptune (إله البحر عند الرومان) لم تكن الوحيدة من نوعها التي أدخلها أصحاب «الرؤوس السوداء» البدائيون في حياة بابل. فخليج فارس كان أيضًا مشهورًا بعبادة الشمس .

ولكون عطارد أقرب السيارات إلى الشمس، فإن عطارد «وهو إله التجارة والفصاحة عند الرومان» كان يعبد في البحرين لما له من صلة وثيقة وذلك حسبما تم الكشف عنه من تاريخها. وبالنسبة إلى عبادة الشمس فإنه تجدر الإشارة إلى ما أفاد به قواد الاسكندر بأن جزيرة اكاروس Icarus التي تقع في الطرف الشمالي من الخليج الفارسي (شمالي جزيرة فيلكة الحالية) ، كانت مقدسة لابولو Apolo وديانا Diana وفي نفس الموضوع أفاد بطليموس Ptolemy أن تلك العبادة كانت بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية من الجهة الجنوبية .

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من فقرات فإن الخط المسماري خير قرينة للدلالة على وجود صلة بين عبادة الشمس وجزيرة نيدوكي Niduk-ki أي البحرين .

وهناك كذلك رحلات أزدوبار Izdubar أو على الأرجح مغامرات أندبار الهندي Indubar the Indian ، والذي كان ينتمي إلى عصر البدائيين في مستعمرات البابليين، فهو بكل تأكيد يرمز إلى أسطورة عبادة الشمس، ولذا يمكن اعتباره كمؤشر لأصالة هذه العبادة في تلك الأماكن .

وأما فيما يتعلق بعطارد فإن الأدلة على وجود عبادته متوفرة بكل تأكيد. ذلك أن الكتابات المنقوشة، والتي اكتشفها الكابتن ديوراند على الحجر الأسود الشهير بالبحرين. هي السند الأساسي في دراسة هذا الموضوع ومناقشته. وعلى ذلك الحجر الأسود قد كتب بالهيرية البابلية Heieratic Babylonian (وهي كتابات كهنوتية ذات أشكال أبسط من الهيروغليفية ـ المترجم) .

ما يمكن ترجمته كالتالي :

« Hekal Rimugas, eri - Inzak, Agiru » أي هذا قصر ريموقاس خادم عطارد ومن قبيلة عقير (Ogyr) ، « ومن الجدير ملاحظته أن الاسم ريموقاس

Rimugas هو من أصل آكادي (من الناحية اللغوية) ، فإن الكاسعة (أى المقطع اللفظي المضاف في المؤخرة) وهي هنا أس (S) سمة بارزة في أسماء « ما قبل اللغات السامية » أما أنزاك Inzak ذو المقطع الثاني لغويًا فإنه اسم آكادي للإله Nebo أو Mercury عطارد والذي كان يعبد في البحرين (كما أسلفنا) » .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره عن العبادات فإن الإغريق من أيام الاسكندر يروون لنا عن أهم عبادة كانت في منطقة الخليج الفارسي وهي عبادة الآلهة فينوس Venus (آلهة الحب والجمال) وهي ذات علاقة بعطارد (Mercury) أو أنزاك Inzuk والذي كانت زوجته في بابل تعرف باسم تاسميت Tasmit ولكن هذه الأخيرة كانت تذكر في النقوش التي تحدثنا عنها آنفًا باسم لاكامون Lakhamun وهي بدورها ذات علاقة باسم زيرو ـ بانت Ziru-Panit والتي يرجح أنها كانت زوجة مروداش Merodach ، وقد كانت هذه الأخيرة كذلك هي القديسة الحارسة لبابل ـ وفي هذا كله شيء من التداخل والغموض بين اسم زوجة مروداش Merodach واسم زوجة نيبو Nebo أو بالأحرى زوجة عطارد Mercury واللذين يتكرر ذكر اسميهما مقرونة بالزوجة Pop-nun ـ ولكن هذه الأخيرة لها علاقة كذلك بزيرو بانت وتاسميت .

والذي يهمنا هنا هو أن رسم النقوش الكتابية لاسم لاكامون Lakhamun لا يوجد في أي فقرة أخرى عدا الكتابة التي تذكر اسم ـ فينوس البحرين The Venus of Bahrain وهذه الحقيقة أقل ما يمكن أن نقول عنها هي أنها رائعة بلا شك، وذلك بسبب شمولها وتكاملها بالنسبة إلى ما لدينا من مجموعة الأساطير المختلفة وأهمية هذه الحقيقة تزداد حينما نعرف أن اسم لاكامون Lakhamun يتكرر ذكره مرارًا وهو مقرون باسم « الأم الكبيرة » Great Mother أو بالعنصر الأساسي الأنثوي للطبيعة The Female Principle of Nature وهذا يناسب تمامًا علاقة اسم زيرو ـ بانت Ziru-panit بـ نيدوكي Niduk-ki (أي البحرين كما سبق أن ذكرناه) .

ولهذا كله استطيع (الكلام لرولنسون) أن أقرر بأن لاكامو Lackamu ولاكامون Lakhamun هما شكلان (أو صورتان) لاسم واحد، وأقرر كذلك بأن القديسة (أي زيرو ـ بانت) الحارسة للبحرين هي نفسها الآلهة التي كانت تعبد فيما بعد في بابل وذلك بأشكال من أسماء ثلاثة هي زيرو ـ بانت Ziru-panit زوجة ميروداش Merodach، تاسميت Tasmit زوجة نيبو Nebo ، جولا Gula زوجة نينيب Ninip .

وعلى أية حال فإن صفات جولا Gula والتي كان يرد ذكرها مقرونًا باسم لاكامو Lackumu (وهو العنصر الذكر للطبيعة The Male Principle of Nature) تناسب تمامًا آلهة البحرين، وذلك للأسباب التالية :-

١ ـ أن الأم الكبيرة The Great Mother (أي أمو الجدات Ummu-Alidat) بمعنى المولودة الأصل (Genetrix) هي ذاتها آلهة أصحاب الرؤوس السوداء (أي الجنس الأسود) .

٢ ـ أن تلك الأم الكبيرة هي كذلك ملكة الآلهة بالكرك (جزيرة قديمة يرجح أنها مقابل المحمرة بمدخل الفرات) (المترجم) (The Queen of Karrak) والتي كانت تبارك أيضًا القبور (Abrikat Arali) .

٣ ـ وهي كذلك الملكة الآلهة للحياة (The Queen of Life) والتي تبعث الموتي، وبذلك تكون سيدة النشور.... ولهذا فهي الآلهة التي يرغب أصحاب « الرؤوس السوداء » أي الأريتريين Erythreans أن يدفنوا عند مزارها (محرابها) المقدس تمامًا كما يرغب اليوم الفرس (أتباع الأماكن المقدسة) Seataries أن يدفنوا بالنجف في كربلاء وذلك لكون المكان (في وادي السلام) Wadi-as-salam وما جاوره هو المقام المقدس الذي سيكتب لهم فيه الحساب .

ويمكنني (الحديث لرولنسون) أن أذكر حادثة أخرى مماثلة تفسر وجود المقابر بكثرة في وركا Warka أو حوروك Huruk وذلك لنفس السبب أي لكونها مزار (أي مقام مشهور) للآلهة عشتار Ishtar والتي تمثل أيضًا قوة الإخصاب والإنتاج في الطبيعة (The Productive Power of Nature) والتي يرجح أنها في مقدمة القوامين بأمر الإنبعاث وإلى هنا يصبح من الضروري علينا أن نأخذ بعين الإعتبار العامل الجغرافي وعلاقته الوثيقة بالعامل الأسطوري إذ بدون هذه العلاقة وتلاحمها لا يمكن تفسير أو معرفة أحد العاملين معرفة ذكية معقولة إلا بدراسة العامل الآخر دراسة مستوفاة وليكن معلومًا هاهنا أنه منذ بداية تاريخ الكتابات المنقوشة الآشورية حتى نهاية آخر فترة من عهودها كانت على الدوام إشارة إلى اسم جزيرة تدعى نيدوكي Niduk-ki باللغة الآكاديه وكذلك باسم تلون أو تلمون أي Tilvun or Tilmun باللغة الآشورية .

وإن هذا الاسم الأخير غالبًا ما ينطبق على اسم البحرين بدون أي شك كما يقترن هذا الاسم (تلمون) بإسمين آخرين هما ميلوك Miluk ومجان أو مجان Makkan مما قد يدل على أن أماكن هذه الأسماء الثلاثة كانت متجاورة .

وفي الوقت الحاضر تعرف أن معنى ميلوك Miluk ومجان Makkan هما « العلوي » (Upper) « والسفلي » (Lower) على التوالي. وهذا ما يتفق عليه العلماء المختصون في تاريخ الآشوريين ولغاتهم (Assyriologists) ، فهم عندما يدرسون مصر مثلاً يشيرون إلى الإقليم العلوي (مصر العليا) فالإقليم السفلي (مصر السفلى) أو وصفهما معاً في لفظة ثنائية باسم واحد Mirraim وعلى غرار ذلك كانت ميلوك ومجان « غربية » وأخرى « شرقية » كميناءين في الخليج الفارسي، واللذين كانا مجاورين للبحرين .

إن اسم نيدوكي Niduk-ki [(١)] قد ذكر لأول مرة في أعمال التنجيم والتي لم تذكر في حينه لفظة آشور لأنها سبقت نشوء الإمبراطورية الآشورية نفسها .. وكلما ورد هو أن نيدوكي كانت تقع في مكان ما شرقي بابل .

وفي الكتابات الاسطورية يتكرر ذكر نيدوكي Niduk-ki مقرونًا بالجبل الكبير للإله بعل (The Great Mountain of Bel) ، وعلاقته بالثور الخرافي Bull الذي بدوره له صلة بعبادة الشمس، وكل تلك الارتباطات تشير إلى اسم نيدوكي جهة (الشرق) عامة .

كما حفلت أدبيات دلمون بالعديد من الإشارات الدالة على تلك العبادات الأسطورية التي تعكس إنبهار إنسان ذلك العصر بمظاهر الطبيعة وتعبده لعناصرها. ونظراً لأهمية الماء في مدّ الأرض بأسباب الحياة والنماء ولما يجري بينهما من تفاعل وما ينتج عن ذلك التفاعل من إخصاب فقد تعبّد لهما سكان تلك البلاد .

ومن هذه الأساطير وغيرها يتضح مدى إنبهار إنسان هذه البلاد بما حوله من مظاهر الطبيعة ومحاولة تفسيرها والربط بين أجزاءها المختلفة وما ينجم عن تلك العلاقة المتشابكة بينها من تفاعل وإخصاب مستمرين ونمو مطّرد للحياة بكافة أجناسها ، وكيف استحالت مشاعر الإنسان في الرهبة منها والرغبة في عطاءها إلى

---

(١) يذكر رولنسون بأن نيدوكي Niduk-ki اسم أكادي معناه مكان الذبح Possessing Altars المقدس أو مقام الرب Possessing a God .

لون من ألوان العبادة الأسطورية القائمة على إحساسه بالحاجة إلى قوة عليا قادرة ينعم في ظلها بحياة الدعة والأمن والسلام .

ولم تزل تلك المفاهيم والقيم الروحية البدائية الغامضة آخذة في التبلور والرسوخ حتى برزت في صور محسوسة هي الديانة الوثنية التي جسدت الآلهة في صور وتماثيل سرعان ما أصبحت لها معابد وطقوس وتعاليم وسدنة وهيئات إدارية وقوانين مرعية كانت أنماطها تختلف وتتغير باختلاف وتغير العصور والأقوام التي شغلت هذه البلاد .

وعلى الرغم من ظهور ديانات أخرى في المنطقة كاليهودية والنصرانية فقد ظلت الوثنية موجودة إلى أن أشرق الإسلام في هذه الربوع فأزالها وغمر بالهداية قلوب سكان هذه المنطقة الذين دخلوا في دين الله أفواجاً .

وقد اشتملت الكشوف الأثرية في جزيرة البحرين، وجزيرة فيلكة ، وتاروت ، وجاوان ، وثاج ، والحناءة ، ويابرين ، ومواضع أخرى في المنطقة على معابد ومقابر ونصوص كتابية بالغة القدم تبين الباحثون من تصاميمها ومحتوياتها ملامح العبادة السائدة في هذه البلاد إبان تلك الأزمنة السحيقة .

فقد اشتمل معبد « باربار » في جزيرة البحرين ومعبد عشتاروت في جزيرة تاروت والمعبد الروماني في جزيرة فيلكة على هياكل للآلهة، وساحات لأداء مراسيم العبادة، ومصاطب لذبح القرابين ، وآبار وبرك للمياه المقدسة، وعدد من التماثيل منها تمثالان نحاسيان عثر عليهما في معبد باربار بجزيرة البحرين وتمثال من الطين المحروق لإفروديت تم العثور عليه في جزيرة فيلكة وتمثال لمعبودة الفينيقيين عشتاروت من الذهب الخالص وجد في أحد بساتين القطيف . وكذلك صور من مدينة ثاج لبعض النساء وكأنهن راكعات كما حملت بعض الأختام صورًا لأشخاص يؤدون القرابين في المعبد .

أما المقابر التي تم العثور عليها فهي تتكون من أضرحة مبنية أو منحوتة أو حفائر أرضية وبعضها في شكل جرار وأحواض فخارية، وأكثر هذه المدافن تشتمل على أمتعة وأدوات شخصية كالحلي، والأسلحة، والأواني، وألوان من الأطعمة، وأختام دائرية (١) .

---

(١) تاريخ هجر ، (ج١ ، ص٨٧ ، ط٢ ، ١٤١١هـ) ، عبد الرحمن عثمان آل ملا .

كما كانت أوضاع الدفن في تلك المقابر مختلفة ، فمن أولئك الموتى من تم دفنه واقفًا في توابيت ، ومنهم من كان جالسًا القرفصاء ، ومنهم من دفن مضطجع على ظهره أو على أحد جنبيه ، والحالة الغالبة في الدفن هي وضع الميت على جنبه الأيمن ، ورجلاه ممدودتان ، ووجهه متجه ناحية الشرق ، وقد حمل وضع الموتى على تلك الصورة الباحثين على الاعتقاد أن لتلك الطرق في الدفن صلة بالقيم الدينية السائدة في تلك الأزمنة مما يدل على وجود تقاليد دينية كانت تراعى في مراسيم الدفن[١] فتصميم المدافن على نماذج متشابهة ودفن الموتى بتلك الطريقة ووضع الأطعمة والأمتعة والحيوانات مع الموتى في الأضرحة أمور تدل بجلاء على أن إنسان ذلك العصر الموغل في القدم قد أدرك معنى الخلود والحياة الأبدية. لأن الغرض من وضع تلك الأشياء مع الميت الإستفادة منها في العالم الثاني وفق العقيدة السائدة لدى عدد من الشعوب من نحو ٢٨٠٠ ق.م كما استنتج الباحثون من آثار القرابين التي كانت تنحر على أسطح المدافن ، ومن شظايا أوان فخارية تم تكسيرها عن عمد ورماد تم نثره بأماكن متعددة على غير انتظام إلى أن أولئك الأقوام كانوا يمارسون بعض العادات والمراسيم والطقوس عند دفن الموتى في مثواهم الأخير. وهذا بدوره يستلزم وجود جماعة متخصصة في ذلك هم الكهنة وسدنة القبور ولا ريب أن تلك الجماعة كانت تتمتع بمنزلة متميزة في المجتمع. وقد أشارات النصوص الكتابية إلى بعض أسماء أولئك السدنة مثل ريموم خادم الإله أنزاك [٢] .

ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه الديانات سائدة في عموم أراضي شرق الجزيرة العربية على مدى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، وكانت تتأثر من وقت إلى آخر وبدرجات متفاوتة بديانة أرض الفرات ووادي الأندوس وغير ذلك من المناطق التي ربطتها بهذه البلاد الصلات السياسية والثقافية والتجارية .

وقد احتفظت أظابير ثقافة العراق القديم ببصمات واضحة للعبادات المعروفة في شرق الجزيرة إبان تلك الأزمنة السحيقة .

---

(١) تاريخ هجر ، ص ٨٨ ، عبد الرحمن عثمان آل ملا .

(٢) المرجع السابق ، ص٩٦ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ظل تلك الوثنية في شرق الجزيرة العربية أخذ في الإنحسار عندما أخذت ديانات أخرى كالمجوسية ، واليهودية ، والنصرانية ، طريقها إلى هذه المنطقة بحكم مركزها التجاري وصلاتها بالأقطار الأخرى حتى أصبحت عبادة الأوثان قاصرة على قبائل بعينها، بل صرت تجد في القبيلة الواحدة جماعة تدين بعبادة لا تدين بها جماعة أخرى من نفس القبيلة .

ومن الأوثان التي أشارت المصادر إلى وجودها في شرق الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام .

١ ـ « ذو اللبا » وكان بحصن المشقر في هجر وتتعبد له جماعة من عبد القيس ، وسدنته هم بنو عامر .

٢ ـ « أوال » وهو صنم لبكر وتغلب إبني وائل وقد سُميت به جزيرة أوال .

٣ ـ « المحرق » صنم كان يتعبد له أهل الحيرة ولعل بعض سكان البحرين ومن بينهم جماعة من بكر بن وائل قد تعبدوا له أيضًا مما يحمل على الاعتقاد أن جزيرة المحرق قد استمدت اسمها من ذلك الصنم .

ثانيا : المجوسية

من المعلوم أن المجوسية من أكثر الديانات إنتشارًا في فارس وقد تحمس لها عدد من ملوكهم ومن الطبيعي أن يوجد لها أثر ولو بصورة محدودة في المناطق المجاورة لبلاد فارس والتي تتواجد فيها الجاليات الفارسية أو التي تربطها بفارس علاقات تجارية وثقافية وسياسية، ولهذه الأسباب ظهرت الديانة الفارسية في أراضي البحرين وكانت شائعة بين أفراد الجنس الفارسي من سكانها وعلى نطاق ضيق بين العرب حيث لم يدن بها سوى أفراد معدودين .

فقد أشارت المصادر إلى أن نفرًا من تميم قد دانوا بها منهم الأقرع بن حابس، أبو سود جد وكيع بن حسان وزرارة بن عدس وإبنه حاجب وقيل لقيط بن زرارة أيضًا ولاشك أن اعتناق هؤلاء لهذه العقيدة المجوسية كان نتيجة احتكاك هؤلاء بالفرس ووجود مصالح مشتركة بين الطرفين .

وقد عبر الباحث عبد الكريم النجم [١] عن شكوكه في إعتناق هذا النفر من العرب للمجوسية وأورد إحتمال كون ذلك من قبيل التزوير والإفتراء من خصومهم، كما يعلل محدودية المجوسية بين العرب على فرض وجود من دان بها بينهم بأمور منها كون المجوسية ديانة قومية غير تبشيرية ولما يوجد في طبيعتها من أمور تأنف منها العرب كإباحة المحارم التي تخالف عادات العرب وتقاليدهم وأخلاقهم، ولا ريب أن لهذا التعليل ما يبرره .

وبحكم وجود جالية فارسية كبيرة في شرق الجزيرة وانتشار المجوسية بين معظم أفراد تلك الجالية فقد أشار البلاذري [٢] إلى وجود بيت نار في بلاد البحرين وجاء في أحد كُتب الرسول محمد ﷺ إلى رؤساء البحرين أن بيت النار لله ورسوله بمعنى أن ما كان في حوزة بيت النار من الأموال والممتلكات تنتقل إلى بيت مال المسلمين، كما أن الرسول الكريم أخذ الجزية ممن إختار البقاء على مجوسيته من أهل هذه البلاد وبهذا الصدد قال المنافقون : زعم محمد أنه لا يأخذ الجزية من غير أهل الكتاب وها هو يأخذها من مجوس هجر وهم غير أهل الكتاب، فنزل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [٣] .

بيد أن المجوسية قد تلاشت في البحرين ولم يُعد لوجودها أثر لأسباب منها أن هذه الديانة غريبة عن السكان ولم تكن عميقة الجذور في هذه البلاد .

---

(١) البحرين في صدر الإسلام ، ص٤٩ ، عبد الرحمن النجم .
(٢) فتوح البلدان ، ص٧٩ ، البلاذري .
(٣) سورة المائدة ، آية ١٠٥ .

ثالثاً : الديانة الأسبذية (عبادة الخيل)

وقد أُشتق اسم هذه الديانة من الأسب وهو الحصان أو الفرس، وهي ديانة فارسية أيضًا وليس في المصادر ما يوضح أساس هذه الديانة أو تفاصيلها أو المصدر الذي أُخذت منه ووجودها في هذه البلاد محدود النطاق. وقد دان بها بنو عبد الله بن دارم من تميم وإليها نسبوا، ومن بين هؤلاء المنذر بن ساوي، وجاء في رواية أخرى بأن هؤلاء قد نسبوا إلى قرية تعرف باسم أسبذ، ويذكر أبو عمرو أن الأسباذ قوم من الفرس كانوا مسلحة المشّقر ومنهم المنذر بن ساوي، ويذكر أبو عبيدة أن أسبذ قائد فارسي لكسرى على البحرين، قال طرفة بن العبد :

خـــذوا حـــذركم أهـــل المشقـــر والصفـــا

عـــبـــيـــد أســـبـــذ والقـــرض يُجزى من القـــرضِ

وجاء عن ابن عباس قوله [1] : جاء رجل من الأسباذيين من أهل البحرين وهم مجوس أهل هجر إلى رسول الله ﷺ فمكث عنده ثم خرج فسئالته ما قضى الله ورسوله فيكم قال : شراً قلت مه قال الإسلام أو القتل قال وقال عبد الرحمن بن عوف قبل منهم الجزية قال ابن عباس وأخذ الناس بقول عبد الرحمن بن عوف وتركوا ما سمعت أنا من الأسبذي .

والراجح أن الأسباذيين من بني عبد الله بن دارم نسبوا إلى عبادة الفرس وليس إلى قرية أسبذ لأن مساكنهم ليست أسبذ فحسب وإنما استقروا في مناطق أخرى من البحرين .

رابعًــــا : اليهـــوديـــة

تسربت اليهودية إلى البحرين ربما عن طريق العراق أو اليمن أو يثرب حيث استقرت في تلك الجهات بعض الجاليات اليهودية من زمن بعيد ونظرًا لوجود صلات تجارية وثقافية بين البحرين وهذه المناطق فلا يُستبعد إنتقال اليهود إلى البحرين منها عن طريق التجارة وغيرها من أسباب الهجرة والإنتقال .

ومن الصعب تحديد الفترة الزمنية التي ظهر فيها اليهود في هذه البلاد .

---

(١) فتوح البلدان ، ص٧٨ ، البلاذري .

ومن المعلوم أن الديانة اليهودية قومية غير تبشيرية (1) وهي صلبة قاسية الطقوس، الأمر الذي حال دون إنتشارها بين العرب إلا بصورة ضيقة جدًا .

ولم تشر المصادر إلى وجود أثر لليهود في حياة البحرين الاقتصادية أو الاجتماعية، حيث لم يرد بهذا الصدد سوى إشارة إلى رجل يُدعى ابن «يامن» كان يمتلك في البحرين بعض البساتين وكذلك يمتلك عدد من السفن التي تبحر في الخليج لنقل التجارة بين الموانئ المختلفة .

قال طرفة بن العبد في معلقته :

عدوليـــــة أو من سفـــــين ابن يامــن

يجـــــور بهـــــا الملاح طـــورًا ويهـــتدي

ويذكر بنيامين في رحلته عام ٥٦٩م أن في القطيف من اليهود نحو خمسة آلاف يهودي ولكن الباحث عبد الكريم النجم (2) يرى في هذا القول مبالغة ظاهرة وقد ظل اليهود مقيمين في البحرين حتى بعد الإسلام يدفعون الجزية إذ لم يخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه منها حين أخرج اليهود من جزيرة العرب .

كما توجد بعض الدلائل التي تشير إلى أن اليهود كان لهم وجود في البحرين إبان حكم القرامطة .

خامسًا : النصـــــرانيـــــة

وصلت الديانة النصرانية إلي شرق الجزيرة العربية عن طريق الجماعات التبشيرية المسيحية حيث كانت هذه البلاد مركزًا تجارياً يستقبل القوافل القادمة للتجارة من كل إتجاه .

وكان المبشرون آنذاك يرافقون تلك القوافل باذلين كل ما في وسعهم لنشر الديانة المسيحية بين سكان المناطق التي يُحطون فيها رحالهم ، وقد كان بعض هؤلاء المبشرين

---

(1) محاضرات في تاريخ العرب ، ج١ /١٧١ ، العلي .

(2) البحرين في صدر الإسلام ، ص٤٨ ، ٤٩ ، عبد الرحمن النجم .

يقومون بمهمتهم خدمة للدين فحسب في حين كان البعض الآخر يقومون بذلك خدمة لأغراض استعمارية محضة، وكانت العراق أهم الطرق التي تسربت النصرانية منها إلى البحرين وعمان واليمامة وبخاصة حين دان المناذرة بالنصرانية، التي كانت هذه المناطق تقع في دائرة نفوذهم. فقد ذكرت المصادر أن النعمان بن المنذر كان يتعبد للعزى في أول الأمر، ولكنه اعتنق النصرانية فيما بعد، وجاء في سبب ذلك أنه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدي بن زيد فوقف بظهر الحيرة على مقابر مما يلى النهر فقال له عديّ بن زيد «أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال لا. قال : إنها تقول : أيها الركب المخبوّن على الأرض المجدّون مثل ما أنتم حيينا وكما نحن تكونون » . ثم قال :-

رب ركـــب قـــد أناخـــوا حولنـــا
يشـــربون الخـــمر بالمـــاء الزُلالْ
ثم أضحـــوا لعـــب الدهـــرُ بهـــم
وكذاك الدهـــرُ حـــالٌ بعـــد حـــال

فأثر ذلك في النعمان واعتنق الديانة المسيحية وذلك حوالي سنة ٥٩٣م تقريبًا ، وصار يعتبر نفسه من حماة المذهب النسطوري الذي انتشر في العراق كما صارت الحيرة من معاقل هذا المذهب أيضًا لدخول جماعة من أصحاب الجاه والسلطان فيه وفي مقدمتهم ابنتا النعمان هند وماريًا، وكذلك ابناه المنذر والحسن وكان الأخير هو أشد الجماعة تمسكًا بالنصرانية وقد قام النعمان بعد إعتناقه للنصرانية بطرد اليعاقبة (١) من الحيرة ، وبالتالي أصبحت من أهم مراكز التبشير بالمذهب النسطوري، ومنها توالى تدفق التبشير بهذا المذهب إلى البحرين وسائر أجزاء الجزيرة العربية. وقد أشارت الأخبار الكنسية إلى أن رسوليّ الكِلدان الأولين [آدي ، وماري] كانا قد صارا إلى بلاد العرب سكان الخيام وإلى نجران وجزائر بحر اليمن (٢) .

بيد أن النصرانية لابد أن تكون قد تسربت إلى هذه البلاد أيضًا عن طريق النشاط البيزنطي في نشر الديانة المسيحية بواسطة المبشرين الذين كانوا يرافقون القوافل التجارية القادمة إلى هذه البلاد .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٣ ، د/ جواد علي .   (٢) المرجع السابق ، ج٦ ، ص١٢ .

وتحدثنا المصادر التاريخية عن وجود عدد من الكنائس التي أنشأها البيزنطيون في سواحل الجزيرة العربية وبعض مدنها مستعينين في ذلك بأتباعهم من الأحباش وبخاصة حين نجح البيزنطيون في السيطرة على طرق التجارة في البحر الأحمر .

بيد أن النصرانية لم تنتشر في البحرين على نطاق واسع إلا بعد إنضواء ملوك الحيرة كما أسلفنا .

وقد كان معظم سكان الحيرة والولايات التابعة لها على مذهب النساطرة باستثناء عدد قليل كان يعتقد مذاهب نصرانية أخرى كالمذهب اليعقوبي .

وكان أصحاب كل مذهب يبذلون ما في وسعهم لإستمالة الناس إلى مذهبهم .

ومن البديهي ألا يجد مذهب الروم الفرصة الكافية لانتشاره في المناطق الخاضعة للنفوذ الفارسي لما بين القومين من عداء قديم .

ولعل الخلاف الذي استعر آواره بين النصارى في بعض المسائل العقدية كالخلاف حول طبيعة المسيح وما نجم عن ذلك من صراع بين النصارى من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار النسطورية في الحيرة والبحرين. ولكي تكون الصورة واضحة فلابد من إلقاء الضوء على ذلك الخلاف وتطوره وما نجم عنه من الأحداث التي أدت إلى تدفق أنصار النسطورية على هذه المنطقة .

حول نشوء مذاهب النصرانية

لقد فتح « بولس » الرسول وأتباع المسيح الآخرون ميدانًا واسعًا من الجدل في موضوع المسيح (١) . وعما إذا كان المسيح إنسانًا أم ربًا. أو هو من خلق الرب. وهل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب. هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة وفرقتهم شيعًا وأحزاباً (٢) . يزعم كل منها أنه على الحق دون غيره فنجم عن ذلك ظهور المذاهب في الشرق والغرب فإنقسمت الكنيسة تبعًا لهذا الخلاف على نفسها فأفرزت الكنيسة الواحدة عدة كنائس . ولم تزل في إنقسام مستمر حتى كثُرت وتعددت . وظهرت أسماء لم تكن معروفة في النصرانية من ذي قبل (٣) .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٦٢٤ ، د/جواد علي .
(٢) المرجع نفسه ص٦٢٤ . (٣) المرجع نفسه ص٦٢٤ .

لقد كان قدماء النصارى في فوضى فكرية إذ لم تكن تعاليم المسيح واضحة في أذهانهم ولا مهضومة، وكانت تفاسير تلاميذه غير مركزة بصورة كافية لتوجيه أتباع النصرانية وجهة واحدة .

ثم أن خشية النصراني على نفسه وماله من بطش اليهود من أهم الأسباب التي أفضت إلى تلك الفوضى والاضطراب .

ولولا حماس بعض التلاميذ وإخلاصهم لتلك العقيدة وسعيهم الدائب لجمع تعاليمها وتعهدها بالصقل والتهذيب لما ظل للنصرانية وجود .

ومن المسلم به أن النصرانية قد خضعت عبر تطورها لكثير من التغيير والتبديل والتحريف. كما تسربت إليها من الديانات الأخرى أشياء كانت تتعارض معها في الأساس .

ومن هنا يمكن اعتبار النصرانية الحالية سلسلة آراء وأفكار صاغها البارزون من الآباء [(١)] . كما أفرز الخلاف والجدل بين الآباء عدة مذاهب (كالاريوسية) أتباع أريوس، والسبيلية والثالوثية أتباع الثالوث، ومذاهب أخرى كان مصدرها تلك البلبلة الفكرية الناجمة عن الاختلاف في طبيعة المسيح، ونظرًا إلى ما أحدثته هذه الآراء اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخلية للامبراطورية، عزم الامبراطور قسطنطين على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها. فعقد مجمع (نيقيا) الذي حضره آريوس للدفاع عن نفسه كما حضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولإثبات هرطقته وخروجه على العقيدة الصحيحة في نظرهم .

وقد تمخض ذلك المؤتمر عن وضع بيان دقيق عن الثالوث والحكم بفساد رأى آريوس واعتباره خارجًا على العقيدة النصرانية الصحيحة، ووضع تعريف للإيمان الصحيح على حد قولهم. كما تبع عقد ذلك المجمع في سنة ٣٢٥م. وحدد معنى النصرانية وأصولها عقد عدة مجامع في القسطنطينية وأفسوس سنة ٤٣١م . وفي خلقدونيا سنة ٤٥١م. وذلك للنظر في جملة مشاكل خطيرة جابهت الكنيسة، ولكنها لم تُفلح في جمع شمل النصارى تحت راية واحدة، فبرزت إلى الوجود عدة كنائس ، وفي سنة ١٠٤٥م

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٦٢٤ ، د/ جواد علي .

تجزأت الكنيسة الكبرى للامبراطورية إلى كنيستين (كنيسة غربية) استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها، وكنيسة أرذوكسية هي الكنيسة الإغريقية. وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لها أثر خطير في جوهر العقيدة المسيحية .

وكانت الكنيسة في الشرق قبل ذلك قد إنقسمت هي الأخرى. فعُرفت الكنيسة النسطورية والكنيسة اليعقوبية .

حـــول المذهـــب النسطـــوري :

أما المذهب النسطوري فينسب إلي البطريرك نسطوريوس [نسطور] من جرمانقيا. (مرعش) المتوفى سنة ٤٤٥م. وكان له رأي خاص في طبيعة المسيح، وهو زعمه أن للمسيح طبيعتان هما أقنوم الإنسان يسوع، وأقنوم الله الكلمة. فقال أن مريم هي بشر ولدت بشرًا هو المسيح الذي هو إله من ناحية الأب الإله فقط (١) .

ومن الواضح أن نسطور قد تأثر بآراء الآباء قبله ومنهم على وجه الخصوص «أديودوروس» أسقف طرسوس وتلميذه أثيودور المصيصي من ٣٩٣ إلى ٤٢٨م .

فمن المعلوم أن نسطور وقف في أنطاكية على آراء هذين العالمين وذلك في عام ٤٢٨م ، فتبنى تلك الآراء وبشر بها وتحمس لنشرها بين الناس فأثار عليه بذلك غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء فنددوا به وأدرجوه في قائمة الملحدين الخارجين عن التعاليم وطلب منه المثول للمحاكمة في مجلس عقد من كبار رجال الدين عُرف بمجمع أفسوس سنة ٤٣١م. فحكم ذلك المجلس على آراء نسطور بالهرطقة وأوصى بوجوب عزله من أسقفية القسطنطينية، ومن ثم وقع هذا وأتباعه تحت طائلة المطاردة والاضطهاد (٢) .

وكانت مدينة الرُها أهم مركز ثقافي للنساطرة إلى أن جاء نونوس أسقفًا لمدينة الرُها. وهو من أشد أعداء النسطورية المتعصبين للآراء البيزنطية لذلك رأى النساطرة ضرورة الإنتقال عن الرُها إلى أماكن أخرى لا أثر لنفوذ هذا الأسقف عليها، فيمموا شطر (نصيبين) وإتخذوها مقرًا للنشاط النسطوري ، وقد ظل هؤلاء مطاردين في جميع الأماكن الخاضعة لكنيسة الروم التي أصدرت حكمًا رسميًا بهرطقتهم ، لذلك

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، لقاضي القضاه عبد الجبار بن أحمد ، ص٢٩٢ ، ٣٩٦

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٦٢٧ ، د/ جواد علي .

عقد النساطرة العزم على الفرار بمعتقداتهم إلى بلد لا سلطان للكنائس المعادية لهم عليها. فاتجهوا إلى بلاد فارس العدو التقليدي للبيزنطيين، وركزوا نشاطاتهم المذهبية فيها وهناك حظوا بحماية ملوك الفرس لهم وتشجيع المذهب النسطوري وكان أكثر ملوك الفرس تحمسًا لذلك شاهنشاه (ملك الملوك) الذي أخذ على عاتقه حماية النساطرة ومنحهم الحرية الدينية والتبشير لمذهبهم بين رعاياه، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ومعرفتهم، فاختارهم للأعمال التي لم يكن لأتباعه فيها خبرة كافية، كما سمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وتعليمهم الطب والفلسفة اليونانية وبخاصة فلسفة أرسطو (١) .

فأصبحت بذلك مدينة سلوقية الواقعة على نهر دجلة مركزًا ثقافيًا مهما نافس الرُها ونصيبين، وصار هذا المركز من أهم دوائر نشر المذهب النسطوري والتبشير به في العراق وفي سائر الأراضي الخاضعة للسيطرة الفارسية، ومن هؤلاء النساطرة تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الحيرة النسطورية ومن أهل الحيرة انتقلت إلى جزيرة العرب .

ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة صارت هذه اللغة لغة العبادة والعلم عند النصارى من العرب (٢) .

وصول النصرانية لشرق الجزيرة :

وصفوة القول أن النصرانية قد وصلت إلى البحرين على يد البعثات التبشيرية القادمة من العراق وإيران وقد انتشرت في قبائل ربيعة إنتشارًا واسعًا وبخاصة في قبائل عبد القيس وبكر بن وائل (٣) ، القاطنين بلاد البحرين. فقد أشارت المصادر إلى وجود عدد من المؤسسات المسيحية في مختلف مناطق الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية فكان في قطر للديانة النصرانية مطرانية تعرف في اللغة الآرامية باسم بيت قطرايا، وقد كان لها عدة أسقفيات في إقليم البحرين منها أسقفية سماهيج التي تعتبر أول أسقفية تشير النصوص إلى وجودها في إقليم البحرين وهي تتبع بيت قطرايا .

(١) د/جواد علي ، ج ٦ ، ص ٦٢٨ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٦٢٨ ، د/جواد علي .

(٣) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩١ ، ابن حزم .

ويرجح الباحثون أنها أقدم أسقفية هناك (١) . وكان يتولى تصريف شئونها الأسقف باطاي . وقد عزله المجمع الكنسي المنعقد سنة ٤١٠م . وأقام مقامه الأسقف إيليا .

وكان من أساقفتها في سنة ٥٧٦م . أسقفاً يسمى سركس وكان في مدينة هجر أسقفية ورد ذكرها في المجمع النسطورى المنعقد سنة ٥٧٦م ، كما تأسست في الخط أسقفية وذلك سنة ٥٧٦م - ٦٧٦م ، وقد أدمجت إبتداءً مع أسقفية هجر تحت رئاسة أسقف واحد يُدعى إسحق ، وجاء في قائمة أسماء المشتركين في مجمع جرجيس الأول عام ٥٦هـ . إسمافوس أسقف هجر ، وشاهين أسقف الخط ، وكان في دارين أسقفية تأسست سنة ٤١٠م وقد تولى الأسقف المعروف باسم بول إدارة شئونها (٢) .

وقد وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولوا رعاية شئون طائفتهم في دارين وهم ١ ـ يعقوب سنة ٥٨٥م ، ٢ ـ يشوعياب سنة ٥٦هـ . وفي مجمع الأساقفة ورد ذكر موضع Toduru إلى جانب دارين وهي كما يعتقد جزيرة تاروت (٣) ، كما تم العثور مؤخرًا على دير لراهب يقع في منطقة الجبيل ، كما أسس أحد الرهبان ديرًا (٤) بجزيرة المحرق، ولا تزال القرية التي تأسس فيها ذلك الدير تحمل نفس الاسم. وحول هذا الدير تل عليه آثار بناء يسميه أهل تلك القرية بالراهب ، وكانت بعض هذه الأسقفيات تدين بالتبعية لرئيس الأسقفيات في فارس. وقد ظلت تلك التبعية قائمة حتى النصف الأول من القرن السادس الميلادي حيث كانت أسقفية فارس تمارس بعض السيطرة على أسقفيات البحرين وبخاصة تسمية الأساقفة، وقد ظهر اسم قطر في المجمع المنعقد سنة ٥٨٥م برعاية الجاثليق يشوعياب للنظر في الشئون الخاصة بنصارى البحرين، ومنها وجوب ترك الأعمال في أيام الآحاد إن أمكنهم وإلا أعفوهم من ذلك في حالة الضرورة (٥) .

ويستشف الباحثون من محاضر مجمع نسطوري آخرْ تم عقده سنة ٥٦هـ، دبر فيه الآباء عدة (أمور دينية) أن بلاد البحرين كانت حافلة بالكنائس والأديرة ودعاة الدين المسيحي وكان إذ ذاك على أسقفية قطر أسقف يُدعى (توما) .

---

(١) البحرين في صدر الإسلام ، ص٤٨ ، عبد الرحمن النجم .
(٢) المرجع السابق ، ص٤٨ .   (٣) المرجع السابق ، ص٤٨ .
(٤) تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٣٠ ، عبد الرحمن عثمان آل ملا .
(٥) البحرين في صدر الإسلام ، ص٤٨ ، عبد الرحمن النجم .

كما أشارت المصادر في حوالي ٢٢٤م، إلى وجود أُسقف يُدعى (عبد يسوع) قام بالتبشير في منطقة البحرين وأسس ديرًا بها، وفي سنة ٥٦هـ اجتمع الجاثليق جرجيس الأول مع رئيس الأساقفة (توماس) كما اجتمع بأساقفة هجر ودارين، والخط ومزون (عُمان) وقد دوّن مشرعوا الكنيسة [١] كإبن الطيب واوديشو قوائم في المتنصبين. كما قاموا بتحديد الجلسات الإفتتاحية للهيئات، دون أن يشيروا لبيت قطرايا. والنص الوحيد الذي أشار لبيت قطرايا جاء في المجمع النسطوري المنعقد برئاسة جرجيس الأول سنة ٥٦هـ [٢]، وفي سنة ٢٨هـ إلى ٣٩هـ وردت الإشارة إلى أسقف يُدعى (إبراهام) بإعتباره أحد رؤساء المتمردين على أشوايا الثالث حاكم سماهيج، ولم يشارك بالحضور بالمجمع النسطوري الذي دعى إلى عقده جرجيس الأول في دارين سنة ٥٦هـ في محاولة وضع حدّ للنزاع القائم في بيت قطرايا على عرش البطريركية، وكان يشوعياب حينئذٍ أسقفاً على دارين .

وكانت سحب دخان الخلافات التي يتأجج لظلاها في أسقفيات فارس يخيم على الأسقفيات في شرق الجزيرة. ففي سنة ٥٢٤م - ٥٣٧م شملت علميات التصفية التي قام بها الجاثليق أليشع البحرين كذلك، فقد عزل رؤساء الأساقفة المعارضين له واستبدلهم بآخرين، وفي سنة ٢٨هـ - ٣٩هـ ، شملت الخلافات التي نشبت في بلاد فارس في عهد يشوعياب الثالث بيت قطرايا، وقد شجع يشوعياب كل من أسقفية فارس وأسقفية بيت قطرايا على التحرر من الحماية وحثهما على الاستقلال ومازلتا تناضلان في سبيل ذلك حتى أصبحتا تتمتعان بالنفوذ الكامل بما في ذلك تسمية الأساقفة الخاصة بكل منهما .

وبذلك صار لبيت قطرايا مطرانها المستقل المعروف باسم (توماس) ، وقد نزل الجاثليق جرجيس الأول في بيت قطرايا ليجتمع بالأهالي الذين خرجوا عن الطاعة وتمردوا على أسقف [روي أرداشير] في فارس [٣] ، أفاد بذلك توماس أسقف المرج، ويرى البروفسور دوفلبير أن الحوادث السالفة الذكر جرت في بداية القرن الثامن الميلادي أما الأب لامينس فيذكر أن ذلك قد تم خلال القرن التاسع الميلادي، هذا وإن آخر ذكر للمسيحية في عهد الجاثليق أوانيس الثالث ٢٨٠هـ - ٢٨٦هـ وفي قائمة المطارنه التي دونها (إلي Elie) لا تذكر المصادر أي أسقف بالمنطقة بإستثناء أسقف

---

(١) و (٢) ، و (٣) النجم ، ص٤٧ .

سماهيج، أما صلوات رسمات المطارنة التي ألفها أبو حليم (٥٧١هـ - ٥٨٦هـ) فإنها تشتمل على صلوات خاصة برسامة أساقفة بيت قطرايا، يقول الباحث عبد الكريم النجم : [إن ورود أسماء هؤلاء الأساقفة في مجامع الكنيسة النسطورية ووجود الكنائس يدل على وجود أتباع لهذا المذهب في المناطق الآنفة الذكر ، ويدل أيضًا على أن النصرانية قد بقيت في البحرين حتى بعد الإسلام. وأنهم لازالوا يزاولون طقوسهم ويدبرون أمورهم الدينية بحرية تامة في ظل الإسلام] (١) .

ومن هنا يمكن القول أن النصرانية كانت منتشرة بين عرب شرق الجزيرة العربية وبخاصة في قبيلة عبد القيس حيث كانت هذه القبيلة من العرب المتحضرين بالنسبة لأعراب البوادي ولهم اتصال بالعالم الخارجي، وإلى جانب هؤلاء جماعات من بكر بن وائل ، وبني أمرء القيس بن زيد مناه من تميم وإلى نصرانية هؤلاء يشير ذو الرمة فيقول : -

ولكنـــا أصـــل أمـــرء القيـــس معشـــرٌ

يحـــل لهـــم لحـــم الخنـــازير والخمـــرُ

ومن أشراف النصارى في العصر الجاهلي والسنوات الأولى لظهور الإسلام نذكر على سبيل المثال الشاعر عبد المسيح المتلمس، وقس بن ساعدة الأيادي، رآب الشنيّ ، وبحيرا الراهب .

بيد أن معظم أهل الأخبار يروّن أن هؤلاء المذكورين باستثناء المتلمس كانوا على الحنيفية ولم يكونوا هودًا أو نصارى (٢) .

وممن أدرك الإسلام ودخل فيه بشر بن عمرو المعروف بالجارود وكان سيد عبد القيس وقد أسلم وحسُن إسلامه وأسلم معه جماعة من قومه، كما أن معظم أعضاء الوفادة الأولى من عبد القيس كانوا يدينون بالنصرانية يؤكد ذلك أنهم حينما عادوا من وفادتهم على الرسول ﷺ جعلوا بيعتهم في جواثا مسجدا، أما من تمسك بنصرانيته وقبل بدفع الجزية للمسلمين فقد كفل له الإسلام الحق في ممارسة عبادته. وفيما مرَّ من الإشارة إلى وجود الأسقفيات والأديرة في هذه البلاد دليلٌ كاف على ما كانوا يتمتعون به من حرية وسلام تحت جناح الإسلام .

(١) النجم ، ص٤٨ .

(٢) مروج الذهب ، ج١ ، ص١٦٨ ، المسعودي .

ومن المؤكد أن إنحسار ظل المسيحية وغيرها من الديانات الأخرى باستثناء الإسلام عن هذه المنطقة كان نتيجة حتمية لعدة عوامل أهمها القوة الذاتية الكامنة في الإسلام والمتمثلة في وضوح تعاليمه وعدالة أحكامه وأمميته وشمول تناوله لجميع حاجات الروح وشئون الحياة، الأمر الذي جعل الناس ينظون تحت لوائه زرافات ووحدان حتى لن يبقى للديانات الأخرى معه في هذه البلاد موطئ قدم برغم ما بذلته إرساليات التبشير للدين المسيحي في الآونة الأخيرة من جهود .

النشاط التبشيري في شرق الجزيرة واخفاق جهوده :

فقد حدثتنا المصادر أنه سنة ١٢٢٦هـ وصل القس هنري مارتن إلى مسقط، وشرع على الفور في ممارسة العمل التبشيري ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح فأقفل راجعًا إلى بلده في العام ذاته. بيد أنه بذلك مهد الطريق للحملات التبشيرية التي توالى وصولها إلى هذه المنطقة فيما بعد .

ففي سنة ١٢٤٤هـ قدم إلى بغداد طبيب الأسنان أنتوني جرافس من أكستر وشرع في مباشرة التبشير إلى جانب عمله كطبيب للأسنان هناك (١) .

وفي سنة ١٢٥٩هـ وصل إلى عدن الدكتور (جون ويلسون) فزار لمهمة التبشير معظم بلدان الخليج وعكف على جمع كل ما يجده مفيدًا من المعلومات للبعثات التبشيرية التي كان المسرح التبشيري في المنطقة يُعد لإستقبالها.

ففي سنة ١٣٠٣هـ جاء جيمس وات من بريطانيا وابتدأ مهمته التبشيرية في بغداد ولم يلبث أن غادرها إلى عدن ليؤسس هناك مكتبة إنجيلية لخدمة أغراض التبشير، وتركزت جهود هؤلاء الوافدين بالدرجة الأولى على جمع المعلومات وإعداد التقارير الدقيقة عن المنطقة ورفعها إلى جمعيات التبشير في بريطانيا وأمريكا التي كانت تبذل قصارى جهدها في إعداد بعثات تبشيرية أكثر تنظيمًا وميراسًا في مجال التبشير لافادها إلى منطقة الخليج، وكان أكثر أولئك المستكشفين نشاطاً في تصيد المعلومات الجنرال المتقاعد من الجيش البريطاني (هيج) فقد حضر إلى المنطقة سنة ١٢٩٧هـ ودوّن في دقة متناهية العادات والتقاليد والوضع السياسي والمادي في هذه البلاد، فأرسى بذلك حجر الأساس للبعثة التبشيرية التي قادها أيان كيت فالكوند في منطقة

(١) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص٧ .

الشيخ عثمان في عدن سنة ١٣٠٢هـ ويعتبر الأستاذ عيسى محمد أمين [1] اجتماع البطريراك توماس قليبي فرنج عام ١٣٠٨هـ بالمبشر صموئيل زويمر مبعوث الكنيسة الهولندية مقدمة للبعثة التبشيرية الأمريكية وتمهيدًا لإقامة مراكز تبشيرية في البصرة ، والبحرين ، والعشّار ، ومسقط ، ومطرح والكويت ، وقطر ، تباعًا .

وغني عن البيان أن فكرة تأسيس البعثة التبشيرية الأمريكية في منطقة الخليج العربي أتت من نيويورك في السنوات ١٣٠٥هـ ، ١٣٠٦هـ ، حيث عقد أول اجتماع (للعجلة) وكان المؤسسون لها هم لانسنج ، وكانتين ، وصموئيل زويمر .

وقد جمعت مؤسسة العجلة مبلغ (٥٠٠٠) خمسة آلاف دولار لهذه الغاية ، وفي سنة ١٣٠٦هـ وفي قاعة هرتزوج في نيويورك تأسست أول جمعية تبشيرية بهدف التبشير بالمسيحية في منطقة الخليج العربي ، ومؤسس هذه الجمعية البروفسور لانسنج وكان من أعضائها القس صموئيل زويمر وجيمس كانتين وفيليب فيلبس ويمساعدة كاثرين هلستد .

تمكنت هذه المجموعة من توفير مبلغ ٥٠٠٠ دولار كمعونة أولى لهذه المهمة حينئذٍ قدم إلى المنطقة القس زويمر وجيمس كانتين عن طريق سكوتلندا ولبنان كما انضم إليهما كامل عبد المسيح من سوق الغرب وحضر معهم إلى البصرة ، وقد وصل الثلاثة إلى منطقة البحر الأحمر عن طريق السويس وقابلوا القس ڤالبي فرنج على ظهر سفينة قادمة من أفريقية [2] ، وتم الاتفاق بينهم فيما يظهر على توزيع المنطقة إلى مناطق نفوذ من عدن إلى صنعاء ثم بوشهر والبصرة والبحرين ، وظل القس زويمر يتنقل بين أقطار المنطقة للبحث عن المكان المناسب لبدء حركة التبشير ، فزار البحرين في سنة ١٣٠٩هـ ولكنه غادرها ثم عاد إليها سنة ١٣١٠هـ حيث باشر العمل بها في مهمته التبشيرية بدكان في منطقة السوق . فأصبحت بذلك البحرين أول مركز للمبشرين في منطقة الخليج بعد وصولهم إلى البصرة . وفي الوقت ذاته وصل إلى المنطقة بيتر زويمر الأخ الأصغر لصموئيل زويمر فبدأ عمله التبشيري في مسقط حيث أنشأ أول مدرسة نظامية هناك للعبيد المحررين ، وفي سنة ١٣١٨هـ وصل الدكتور توماس وزوجته إلى البحرين قادمين من البصرة حيث أقاما بمنزل الجالية التبشيرية ، وفي فناء ذلك المنزل تم إجراء أول عملية جراحية في البحرين، وفي سنة ١٣٢٢هـ زار بعض أعضاء هذه

---

(١) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص٧ ، ٨ ، ٩

(٢) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص٨ .

البعثة الكويت محاولين الحصول على إذن من حاكمها الشيخ مبارك آل صباح بممارسة أي نشاط يمكنهم من تحقيق أغراضهم ولكنهم لم يظفروا بالموافقة من حاكم الكويت، حتى جاءتهم الفرصة في سنة ١٣٢٨هـ عندما طلب الشيخ مبارك من الدكتور أرثر سبنت إجراء عملية لعيني ابنته وتكللت العملية بالنجاح حينئذ حصلت الجالية المسيحية على تصريح بتأسيس مستشفى بالكويت تم ذلك بين ١٣٣١ ـ ١٣٣٨هـ وفي سنة ١٣٥٩هـ فتح فرع جديد للمستشفى الأمريكي في مطرح وفي سنة ١٣٦٦هـ تم افتتاح المستشفى الأمريكي في قطر ولكن تم إغلاقه بعد خمس سنوات نتيجة لعدم وجود الأموال الكافية لدى البعثة الطبية .

وبحلول عام ١٣٦٦هـ أصبح للبعثة الطبية مراكز في البصرة والعمارة ، والعشار ، ومسقط ، ومطرح والبحرين والكويت وقطر وتعمل جميع هذ المراكز كمنظومة طبية متكاملة تحت إدارة المجلس الأعلى للمبشرين بالشرق الأوسط .

كما أنشأ إلى جانب تلك المستشفيات عدد من المؤسسات الاجتماعية والثقافية كملاجئ للأيتام من الجنسين ومدارس ومكتبات كان هدف جميع تلك المؤسسات العمل الدائب على تنصير منسوبيها والمترددين عليها من خلال توزيع نسخ إنجيل يوحنا ، وإقامة الصلوات المفتوحة وإلقاء المحاضرات في كل صباح وفي كل فرصة مواتية من ساعات الليل أو النهار علاوة على اقتناص بسطاء الناس من المحتاجين للعلاج أو المساعدة المادية مع ممارسة جميع وسائل الإقناع والإغراء يتم ذلك على يد قساوسة وراهبات أكفاء من أمثال القس السيد والسيدة « فان أس » وجريت فان بارسيم والقس « دايكاسترا » والقس « بيننج » والقس « هاكن » والدكتور « بارني » و« ديم » و« هاريسون » و« ستورم » (١) .

فقد أوقف هؤلاء وأمثالهم حياتهم وسخروا كل طاقاتهم في سبيل نشر الديانة المسيحية بين سكان هذه البلاد .

يقول نصيف أحد المعلمين بمدارس الإرسالية الأمريكية بالبحرين : [وكان من عادة الإرسالية أن تدعو الزوار القادمين إلى الإرسالية في البحرين للصلاة المفتوحة خارج أبواب الكنيسة، حيث يجتمع العديد من أفراد الجالية المسيحية في البحرين من

---

(١) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص١٩١ ، و١٩٢ .

المتنصرين والأمريكيين والإرساليين وغيرهم من العراقيين المسيحيين واللبنانيين والأردنيين ، كانوا جميعًا يشاركون في الصلوات] .

أما المرضة شريفة الأمريكية وهي من أنشط العاملات في مجال التبشير فتقول في هذا الصدد : [منذ فترة قصيرة أقمنا الخدمة (المناولة) بتقديم الخبز العربي المسطح وشراب الرمان كما كنا نقيم الخدمة باللغة العربية في الصباح وباللغة الإنجليزية في المساء. كانت الترانيم باللغة العربية في الخدمة العربية ، وكذلك كنا نترنم ببعض تلك الترانيم العربية في الخدمة الإنجليزية وكان بعض المرضى الداخلين في المستشفى يتعلمون هذه الترانيم بعد قضاء فترة معنا في المستشفى ... ولذلك أقول بأن هناك فرصًا كثيرة للتنصير . وفرصًا كثيرة للعمل الانفرادي مع هؤلاء المرضى المقيمين. ونحن الآن ندرس إنجيل يوحنا في درس الكتاب الذي نقدمه للموظفين] .

وبالفعل كانت هذه المبشرة الأمريكية لا تدع أي فرصة تمر دون أن تستغلها في محاولة بث مبادئ النصرانية حتى في أشد الأماكن محافظة وحساسية تجاه النشاط التبشيري فقد حدث أن حضرت هذه المرضة إلى الأحساء ١٣٦٩هـ في مهمة علاجية ضمن فريق طبي برئاسة دكتور ستورم، وبالرغم من علمها أن هذه البلاد لم تكن ضمن دائرة نفوذ الإرساليات الأمريكية رغم علمها بذلك فقد حاولت أكثر من مرة التحدث مع بعض زوار المستشفى المعد لعمل هذا الفريق الطبي وتزويدهم بنسخ من إنجيل يوحنا ، ولولا مقاومة الأهالي لهذا العمل والإجراءات الصارمة التي اتخذها أمير البلاد تجاه تلك المحاولات لتمادت في مهمتها إلى أبعد من ذلك بكثير .

فقد جاء عنها قولها : [كما حدث أنني مرة كنت في الهفوف ، وكادت جولتي أن تقطع عندما أمر الحاكم بإبعادي من البلد في أسرع فرصة ، حيث بعث مراسله إلى الدكتور « ستورم » وطلب منه أن يتصرف دون أن يبدى الأسباب ، ولكن كان في الأمر شيئًا وإلا لما طلب مني ذلك .

وحضر الدكتور « ستورم » إليّ ليسألني عما أكون قد فعلته ولما أجبته بأنني لا أدري ، ذهب وطلب مقابلة الحاكم شخصيًا وهناك تبين للدكتور « ستورم » بأن الحاكم قد تسلم ٤ خطابات تشير إلى أنني أعطى صورًا من الإنجيل وأنني أوزع نسخًا من الكتاب المقدس ، ولم أنكر ذلك فقد حدث بالفعل ولطالما كنت أوزع نسخًا من الكتاب المقدس ، إلا أن أحدًا لم يحتج من قبل كما لم يحدث ذلك مشكلة في السابق .

وقال الحاكم للدكتور «ستورم» بأن مثل هذه الاتهامات ـ لو تم النقاش فيها ومحاكمة شريفة ـ فإن العواقب لن تكون مرضية أبدًا بالنسبة لجميع أفراد البعثة ، ولذلك فإنه من الأفضل عدم الخوض في هذه المحاكمة ويجب على شريفة أن تترك المدينة .

وبعد جهد بالغ ، تمكن الدكتور «ستورم» من أن يقنع الأمير بعدم سفر شريفة « أي أنا » على شرط أن يتم طرد جميع البعثة إن عادت لارتكاب مثل ذلك الإثم .

وعندما عاد الدكتور « ستورم » إلى مركز البعثة وأخبرني بالأمر تبين لي أن هناك من يريد طردنا من المدينة] (١).

ومن هنا يتبين لنا أن التبشير كان الهدف الأول لتلك الإرساليات والصبغة المميزة لجميع نشاطاتها ، وأن الخدمات الطبية والتعليمية التي كانت تقدمها لم تكن إلا وسائل أستخدمت لتحقيق الغرض الأساسي وعلى الرغم من البصمات الإنسانية التي تركتها جهودها في المنطقة فإنها خرجت خروج الخاسرين وكان الاخفاق حليفها في تلك المهمة، إذ لم يزد عدد المتنصرين في البحرين مثلا وهي مركز الثقل لعمل المبشرين على عدد أصابع اليد الواحدة ، ولم تستطع شريفة وهي من أنشط العاملات في حركة التبشير أن تدلل على الزعم [بأن الباحثين قد تعرفوا على العديد من المسيحيين في البلاد العربية بأكثر من قولها] [أنهم بالفعل مثل حقل من القمح نزعت منه خمسة آلاف نبتة موزعة في أماكن واسعة حيث لا تظهر للعيان على أنها منزرعة بعكس الحال لو أنها جميعًا نزعت من مكان صغير لكانت ظهرت وبان مكانها] (٢) .

أجل لقد أخفقت الحملات التبشيرية استمالة المسلمين لاعتناق الديانة المسيحية رغم ما بذلته تلك الإرساليات من جهود مضنية وما كان في حوزتها من أسباب القوة والنفوذ والدعم السياسي المتواصل من السلطات الاستعمارية المحلية والجمعيات التبشيرية العالمية والظروف السيئة السائدة في المنطقة من جهل مطبق وأوضاع سياسية واقتصادية متردية . إن بعض هذه العوامل كاف لنجاح تلك الحملات التبشيرية وتحقيق مآربها لولا وجود أسباب أكثر منها قوة وصلابة تحطمت دونها جميع تلك الجهود حتى ذهبت أدراج الرياح .

---

(١) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص٢١٦ ، ص٢١٧ .
(٢) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص١١٥ .

مـــن أهمهـــا فيمـــــا أرى :

١ ـ قوة الإسلام وإنسجامه مع الفطرة السليمة للإنسان إلى جانب ما فيه من تكامل وشمول لجميع متطلبات الفرد والمجتمع في الدار الفانية والأخرى الباقية .

٢ ـ موقف الإسلام الصارم من المرتد عنه المتمثل في إسقاط إعتباره وتجريده من جميع الحقوق الشرعية التي يتمتع بها المسلمون .

٣ ـ تعرض المرتد لأقسى ألوان المعاملة من الأسرة والمجتمع وذلك بإزدرائه ونبذه والاحجام عن معاملته .

لذا نجد أن المتنصرين على قلتهم في المنطقة من أدنى طبقات المجتمع وأضعفهم وأشدهم معاناة من الأمراض النفسية وألوان البؤس الاجتماعي .

٤ ـ جهود العلماء المسلمين في مقاومة حملات التبشير بوعظ الناس وتحذيرهم من خطر الإصغاء للمبشرين .

وفي طليعة من إضطلع بهذه المهمة في البحرين الشيخ قاسم بن مهزع (١) والشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة (٢) وغيرهما .

ومن الجدير بالذكر أن علماء البحرين ومثقفيها لما وجدوا أنفسهم أمام صراع ديني وفكري عظيم مع المبشرين بزعامة القس صموئيل زويمر أسندوا قيادة ذلك الصراع

---

(١) توفى الشيخ قاسم بن مهزع سنة ١٣٥١هـ عن عمر يزيد عن ١٠٠ سنة ، تلقى دراسته العلمية بالأحساء على يد الشيخ أبى بكر بن الشيخ محمد آل ملا والشيخ محمد بن عبد الله العبد القادر الملقب بسُحبان ، تولى الشيخ قاسم قضاء البحرين زهاء ٧٥ سنة احتسابًا ، ولقب بالقاضي الرئيس . اتسم بكثير من الصفات الحميدة كالحلم وحصافة الرأى ، وبعد النظر وحب الاصلاح بين الناس والاحسان إلى المحتاجين منهم ، كان يملك بالمنامة ٢٠ دكان يؤجرها شهريًا ويشترط على كل مستأجر دفع الأجرة بصورة يومية ، ثم يقسم تلك الأجرة كالتالي قسم لنفسه وعائلته ، وقسم لأخوته ، وقسم لأقاربه ، وقسم للفقراء كما يشتري في صباح كل يوم جلتين مليئتين بالخبز ويفرقها على المحتاجين أما نشاطه في تدريس العلوم والدفاع عن قضايا الإسلام ، والتصدي للمبشرين فمن الأمور المعروفة ، إفادة من الشيخ عبد الرحمن بن أحمد آل ملا في ١٤١٣/١٠/٢١هـ .

(٢) ولد الشيخ إبراهيم سنة ١٢٦٦هـ ، وقام برحلات علمية إلى البصرة والأحساء وغيرهما ، وتوفى سنة ١٣٤٩هـ ، يعد من أبرز رواد الحركة الثقافية في البحرين ، ترك قصائد ورسائل عدة قام بجمعها محمد جابر الأنصاري في كتاب واحد .

لشيخ فاضل هو « مُقبل الذكير » (١) الذي تبين له على الفور أن أساليب مكافحة التبشير التي يتبعها بعض المشايخ والمتركزة في حث الناس على عدم إرتياد مؤسسات المبشرين لم تحقق الغرض المنشود، يكتشف أن أفضل الوسائل لمقاومة التبشير تكمن في إنشاء مؤسسة ثقافية تشمل المنتدى الثقافي والمدرسة كأسلوب مقاومة حضاري .

وبالفعل يبادر الذكير مع يوسف كانو على إنشاء النادي الأدبي الإسلامي في منتصف عام ١٣٣١هـ ورغم المال الكثير الذي يتطلبه إنشاء هذا المشروع إلا أنه عقد العزم على أن يغطي احتياجاته من ماله الخاص فوضع هذا المشروع موضع التنفيذ ففتح النادي في سوق المنامة قبالة مكتبة الإرسالية الأمريكية ، وكان في بداية تأسيسه عبارة عن صفين دراسيين تدرس فيهما للتلاميذ العلوم الدينية وبعض العلوم الحديثة إضافة إلى غرفة مطالعة ومكتبة .

ويسجل النادي في أشهره الأولى الكثير من النجاحات سجلتها تقارير الإرسالية الأمريكية التي تحدثت عن « تناقص رواد مكتبة الإرسالية » . وبالتالي تناقص بيع الكتب فيها . إضافة إلى اعتراف التقارير نفسها بنجاح النادي في جذب الكثير من زبائنهم ، وعلاوة على هذا النجاح يصبح النادي ملتقى لرواد العلم ومثقفي مدينة المنامة ومكانا يتدارسون فيه أساليب التبشير وسبل مقاومته .

وأمام هذا النجاح يقرر الشيخ مقبل تطوير النادي ورفع كفاءته فيسند إدارته للشيخ محمد بن عبد العزيز المانع ، ومع وصول الشيخ المانع يتزايد الإقبال على النادي

---

(١) هو مقبل بن عبد الرحمن الذكير . من عُنيزة بنجد استقر في البحرين واشتغل بتجارة اللؤلؤ وكان على جانب كبير من الأخلاق الحميدة التي بسببها عُرف في الأوساط التجارية بلقب « فخر التجار » شارك بحيوية متزايدة في الأنشطة الثقافية والقضايا الوطنية كما أسهم بجهده وماله في قضايا الأمة الإسلامية ومساندة حركة الجهاد .

حين إندلعت الحرب العالمية الأولى قاد حملة كبيرة للتبرعات بالبحرين للدولة العثمانية، كما راسل رجالات الخليج للغرض ذاته فقد جاء في تقرير الوكالة السياسية البريطانية سنة ١٣٣٣هـ « أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أرسل ١٢٥ ألف روبية إلى الشيخ مقبل كاشتراك من شعب قطر لإعانة الدولة العثمانية .

كما قاد حملة تبرعات أخرى للمجاهدين الليبيين في حربهم ضد الاستعمار الإيطالي . كما أشارت تقارير الوكالة البريطانية إلى نشاطه في جمع الإعانات للمسلمين في أحد الولايات الهندية .

وما أن حل عام ١٣٣٥هـ حتى توالت عليه خسائر صفقات عديدة في تجارة اللؤلؤ ، وتكالبت عليه في ذات الوقت مجموعة تجار حاقدين عليه ، ويصل حد الأزمة في النهاية إلى الإفلاس المالي .

فعاد إلى عنيزة وتوفى بها سنة ١٣٣٨هـ .

رجال في جزائر اللؤلؤ . خالد البسام ، ص٧ : ١٥

ودروسه التثقيفية وخاصة محاضرات المدير الجديد الخبير بالتبشير وأساليبه .

ولم يكد النادي يؤتي أكله حتى وجد الذكير نفسه مضطرًا لإغلاقه سنة ١٣٣٥هـ نتيجة أزمات مالية حادة مُني بها الشيخ الذكير حتى أدت إلى إفلاسه ، ورحيله عن البحرين والعودة إلى عنيزة مسقط رأسه. وإلى جانب ما قام به رواد الثقافة المار ذكرهم من نشاط ملحوظ في الحد من مساعي المبشرين . تجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبته جريدة المنار في مجال مكافحة التبشير في منطقة الخليج. فقد كان رئيسها الشيخ رشيد رضا وهو من أكثر المفكرين دراية بأساليب المبشرين ومقاصدهم وما يشكلونه من خطر على الإسلام والمسلمين على صلة فكرية قوية بشباب البحرين. أولئك الشباب الذين كان المبشرون في المنامة يحاولون إحتوائهم ليعدوا من بينهم روادًا أوائل للتبشير في الخليج . ليوجدوا للتبشير في المنطقة دعاة من أهلها . لتكن نتائج التنصير أكثر تأثيرًا .

يقول مبارك الخاطر وهو بصدد الحديث عن الشيخ رشيد : [لقد وضع صاحب المنار ذلك نصب عينيه .. فكان يستخبر القادمين إلى القاهرة من الجزيرة العربية والخليج.. يتسقط أنباء التبشير في المنطقة كلها. وحين تأتي الأخبار بما لا يسره من توسع أعمال المبشرين فيها .. يكتب في المنار العدد تلو الآخر ينعي على أهل البحرين والخليج عدم وعيهم وإدراكهم بأساليب المبشرين وأهدافهم البعيدة المرامي ، ثم يوجه تلك القلة المثقفة من أبناء المنطقة الذين أخذوا على عاتقهم مقاومة التبشير بما تيسر لديهم من وسائل ليست بذات مردود جيد بالنسبة لوسائل المبشرين] (١) .

بقي أن أقول أن المناسبات والشعائر الدينية المتكررة التي يمارسها المسلمون من أهم العوامل وأبعدها أثرًا في تعميق معاني الإسلام وقيمه في نفس المسلم وتحصينه بأقوى عناصر المناعة والمقاومة لجميع أساليب التبشير في أنعم ملامسها وأزهى ملابسها .

فهذه المبشرة الأمريكية شريفة تحدثنا عن مدى ما يُمنى به المبشرون من مشاعر الضيق والإحباط حين تحدق بهم إحدى المناسبات الدينية كحلول شهر رمضان وما يعترضهم من معاناة إبّان أدائهم لمهمتهم التنصيرية فتقول (٢) بعد أن تصف رمضان

---

(١) الكتابات الأولى الحديثة لمثقفي البحرين ، ص٤٠ ، مبارك الخاطر .

(٢) مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص١٠٨ ، ص١٠٩ .

وأحوال الصائمين فيه بمدينة البحرين [إن التقى والإيمان الشديدين بتعاليم الإسلام جعلتنا نتساءل عما إذا كان بالإمكان أن ننجح في تغيير عقيدة إخواننا المسلمين العرب ، وإن كان ذلك عدلا ؟!. كان يبدو أن الأمر سيكون معجزة لن تتحقق وتوصلنا إلى قناعة بأن إرساليتنا في البحرين لم تكن بسبب أي شيء ممكن أن نقوم به ، لأن الأمر لم يكن سهلاً حتى من الناحية الإنسانية ولكننا استمددنا قوتنا من الله ، وكنا نعلم بأن كل شيء معه ممكن] .

كما تذكر أن ثمة مناسبات دينية تجعل المبشرين يشعرون بأن عملهم مستحيلا حتى يصل بهم الأمل إلى الصفر أو دونه .

ولعل من المفيد أن نذكر بهذا الصدد إحدى تجارب هذه المبشرة في مجال التنصير ، وما تعترضهم من عقبات في أداء مهمتهم تلك .

تحدثنا المرضة سالفة الذكر بما ترجمته نصًا :ـ

في أحد الأعوام ، وقبل عدة أيام فقط من بدء رمضان ، قرر أحد معارفنا المسلمين من العرب أن يعلن في الملأ عن إيمانه بالسيد المسيح وكان اسمه (علي) وكان قد درس الكتاب المقدس مع القس (بيننج) لمدة عام .

وكان الدافع جيدًا منذ البداية ، وقد استمر مخلصًا للدين طيلة الطريق ، وكان يقرأ كل ما تقع يداه عليه من الأدب المسيحي باللغة العربية ، حيث بقى في البدء يؤمن بالسر . كان « علي » يعمل في التجارة البحرية ، يتنقل من جزيرة إلى أخرى على ظهر سفينة كان الإنجليز يسمونها (السفينة السعيدة) . وكان يسافر لمدة طويلة بعيدًا عن البحرين وفي إحدى تلك المرات صلى وتأمل وقرر أن تنتهي فترة إيمانه السرية وقرر أن يعلن دينه الجديد مهما حصل بعد ذلك .

وهنا أود التنويه إلى التنصر لمن كان على دين الإسلام يعني تعرضه للقتل أو الموت . وكانت الإرساليات الأمريكية والغربية تعتبر ملحدة ، إلا أن المسلمين كانوا يتحملون وضعنا هنا لأننا من بلد غريب ، ولأننا لم نكن نعلن عدم إيماننا بالدين الإسلامي إلا أن الأمر كان يختلف بالطبع إذا ما كان المعنى هو أحد المسلمين أنفسهم . كان ذكر اسم المسيح يعني التجديف والإلحاد والجريمة المميتة ، حتى أنه في بعض الأوقات من التاريخ الإسلامي كان قتل المسيحي يعتبر عملية مقدسة .

وفي البحرين أيضًا في أواخر القرن التاسع عشر ، كان هناك المتعصبون من المسلمين ممن لا يفكرون لمرة أخرى في قتل إنسان مرتد عن الدين الإسلامي [١] .

لذلك كان قرار (علي) للتعمد والتنصر ليس بالأمر العادي ولسوء الحظ لم يكن القس (بيننج) موجودًا في البحرين آنذاك لسفره في رحلة خاصة به تستغرق مدة طويلة ، ولم يكن بالإمكان تعميده من قبل مساعد القس إلا أن (عليًا) كان مصمماً على (التنصير) بأسرع ما يمكن .

ووافق مساعد القس (برنارد هاكن) على أن يُجرى مراسيم التنصير في الأسبوع القادم ، على أن يحصل (علي) على موافقة والده . كما جلس معه ليفهمه بأن التنصر سيجلب له الكثير من المشاكل والصعاب بين أهله ، إلا أن (عليًا) كان على علم وفهم بكل شيء ومع ذلك لم يكن يخشى شيئًا .

في صباح السبت ، حضر (علي) وقال بأن والده طرده من المنزل وأخذ منه مركبه واستولى على ممتلكاته الأخرى ، وهدد بقتله إذا رآه مرة أخرى .

وأقام (علي) مع أصدقاء له تلك الليلة ، وفي صباح الأحد حضر إلى الكنيسة قبل أن يحضر أي أحد . وقام الشخص المسئول عن توزيع الكتب المقدسة بالكنيسة بمهمة إلقاء الخطبة في الحضور .. وكان من المفروض أن يقوم القس (هاكن) بأداء العماد (لعلي) .. إلا أن أمرًا غريبًا حدث وكأن هناك أيد خفية تعمل ضدنا .

فقد أصاب القس (هاكن) ألم مخيف في ظهره ظهرت معه عروق الرقبة بشكل واضح .. ولم يكن يستطيع الوقوف أو الحركة فتم إخراجه من الباب الجانبي للكنيسة دون أن يشعر أحد من الحاضرين .. كان يرتجف أثناء مشيه .. وطبعًا لم يكن بالإمكان أداء مراسم (العماد) في تلك الساعة، أما (علي) فقد كان يجلس بكل صمت وخشوع في الكراسي الأمامية وكان مستغرقًا في الصلاة كمن لم يصل من قبل .

وعاد القس (هاكن) قبل انتهاء الصلاة بمدة قصيرة ، شاحب اللون ، مهزوزًا ولكنه تمالك نفسه ليتم مراسم العماد .. كانت آلامه نتيجة لتحرك حصى الكلى معه .

---

(١) ولا تخرج تلك الاعتقادات عن كونها مخلفات للحروب الصليبية ونظرة الغرب الخاطئة للمسلمين في اعتقادهم بالمسيح ـ المترجم .

لم يكن من الحكمة السماح (لعلي) بالذهاب إلى قريته بعد (التنصير) ولذلك فقد نصحناه بالسفر إلى البصرة ومحاولة العمل هناك بمساعدة الإرسالية الأمريكية في البصرة ، وبالفعل سافر يوم الأربعاء على متن السفينة المغادرة للبصرة ، وكنا قد جمعنا له بعض الحاجيات البسيطة ودفعنا له أجرة السفر ، وعندما ودعناه قلت لنفسي بأنني الآن أودع إنسانًا ترك كل شيء وتخلى عن كل شيء ليتبع المسيح .

***

القسم الثاني

إشراق الإسلام

في شرق الجزيرة العربيّة

أولاً : الإســلام في البحــرين :

لقـد انتظمت هذ البـلاد في نظام الإسـلام منذ السنوات الأولى للهـجـرة النبـوية الشريفة ، فقد ذكرت المصادر أن منقذ بن حيان من بني غنم بن وديعة كان يتردد على يثرب للتجارة منذ العصر الجاهلي فشخص إليها بتجارة فيها تمر وملاحف من هجر بعد هجرة النبي ﷺ ، فمر به النبي ﷺ وهو قاعد فنهض إليه منقذ فقال النبي ﷺ كيف قومك؟ ثم سأله عن أشرافهم رجلاً رجلاً بأسمائهم فأسلم منقذ ، وتعلم الفاتحة وسورة (إقرأ) وكتب النبي ﷺ لجماعة عبد القيس كتابًا ، فلما دخل إلى قومه كتمه أياماً ، وكان يصلي فقالت زوجته لأبيها المنذر بن عائذ إني أنكرت فعل بعلي فقد قدم من يثرب ، إنه ليغسل أطرافه ثم يستقبل الجهة فيحني ظهره مرة ويضع جبينه إلى الأرض مرة أخرى ، فاجتمعا فتجايرا ذلك فوقع الأسلام في قلبه ، ثم أخذ المنذر كتابه ﷺ وذهب إلى قومه فقرأه عليهم فأسلمو وأجمعوا المسيرة إلى رسول الله ﷺ (١) ، (٢) .

ولعل المنذر بن عائذ كان قد أسلم قبل ذلك ، وكتم إسلامه هو الآخر ، فقد جاء في رواية ثانية أن المنذر بن عائذ الملقب بأشج عبد القيس كان صديقًا لراهب وكان يلقاه كل عام فلقيه عامًا بالزارة ، ووصف له نبيًا يخرج من مكة يظهر على الأديان ، ثم مات الراهب ، ولما سمع الأشج بظهور الرسول ﷺ بعث صهره وإبن أخته (عمرو بن عبد القيس) إلى مكة بتجارة فيها تمر وملاحف ، وكلفه باستقصاء أخبار النبي الجديد ﷺ ، ولما قابل عمرو الرسول دعاه الرسول وأرشده إلى الإسلام فأسلم وطلب منه أن يدعو خاله إلى الإسلام ، ولما عاد عمرو إلى البحرين أخبر خاله فأسلما وكتما إسلامهما (٣) .

ومهما يكن من شيء فإن المنذر بن عائذ أخذ الكتاب وتلاه على جماعة من قومه ، فشرح الله صدورهم للإسلام فأسلموا ، وعقدوا العزم على المسير إلى رسول الله ﷺ ، وربما كانت وفادتهم تلك بطلب من الرسول ، فقد جاء عن الواقدي قوله : ـ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل البحرين أن يقدم إليه عشرون رجلاً فقدموا عليه يرأسهم عبدالله بن عوف الأشج (٤) ، وفي رواية أن الوفادة الأولى كانت في السنة الخامسة للهجرة .

---

(١) عمدة القارئ ، ج١ ، ص٣٠٩ ، العيني .
(٢) المواهب اللادنية ، ج٤ ، ص١٥ ، القسطلاني .
(٣) الإصابة ، ج٢ ، ص١٧١ .
(٤) فتح الباري ، ج١ ، ص١٤٧ ، القسطلاني .

الوفادة الأولى على الرسول ﷺ :

تحدثت المصادر عن عدة وفادات من البحرين إلى المدينة المنورة في عهد النبي الكريم ﷺ ، كان أهمها وفادتان ، تمت الأولى منهما على الأرجح في السنة الخامسة من الهجرة ، وقد أسهبت كتب الحديث والسير في وصف هذه الوفادة فمن ذلك ما جاء في سند الإمام أحمد(1) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا يونس بن محمد ، قال حدثني يحيى بن عبد الرحمن العصري ، حدثنا شهاب بن عباد ، أنه سمع بعض وفد عبد القيس وهم يقولون قدمنا على رسول الله ﷺ فاشتد فرحهم بنا فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا فقعدنا ، فرحب بنا النبي ﷺ ، ودعا لنا ثم نظر إلينا فقال : من سيدكم وزعيمكم ؟ فأشرنا بأجمعنا إلى المنذر بن عائذ فقال النبي ﷺ أهذا الأشج ؟ وكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم بضربة لوجهه بحافر حمار ، قلنا نعم يا رسول الله فتخلف بعد القوم ، فعقل رواحلهم ، وضم متاعهم ، ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السفر ، ولبس من صالح ثيابه ،ثم أقبل إلى النبي ﷺ وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له ، وقالوا هاهنا يأشج فقال النبي ﷺ واستوى قاعدًا وقبض رجله هاهنا يأشج فقعد عن يمين النبي ﷺ فرحب به وألطفه ، وسأله عن بلاده وسمى له قرية الصفا والمشقر وغير ذلك من قرى هجر ، فقال بأبي وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء قرانا منا ، فقال إني قد وطئت بلادكم وفسح لي فيها قال ثم أقبل على الأنصار فقال يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيئًا بكم اشعارًا وأبشارًا أسلموا طائعين غير مكروهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا ، قال فلما أن أصبحوا ، قال كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم ؟ قالوا خير إخوان ألانوا فراشنا ، وأطابوا مطعمنا ، وباتوا وأصبحوا يعلمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى ، وسنة نبينا ﷺ ، فأعجبت النبي ﷺ ، وفرح بها ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً ، فعرضنا عليه ما تعلمنا وعلمنا ، فمنا من علم التحيات وأم الكتاب ، والسورة والسورتين والسنن ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال هل معكم من أزوادكم شيء ، ففرح القوم بذلك ، وابتدروا رحالهم ، فأقبل كل رجل منهم معه صرة من تمر فوضعوها على نطع بين يديه فأومأ بجريدة في يده ، كان يختصر بها فوق الذراع ودون الذراعين فقال أتسمون هذا

---

(1) مسند الإمام أحمد ، ج٣ ، ص٤٣٢ .

التعضوض ؟ قلنا نعم . ثم أومأ إلى صرة أخرى فقال أتسمون هذا الصرفان ؟ قلنا نعم ، ثم أومأ إلى صرة فقال أتسمون هذا البرني ؟ قلنا نعم فقال رسول الله ﷺ أما إنه خير تمركم وأنفعه لكم ، فقال : فرجعنا من وفادتنا تلك فأكثرنا الغرس منه ، وعظمت رغبتنا فيه حتى صار معظم نخلنا وتمرنا (البرني) ، فقال الأشج يا رسول الله. إن أرضنا أرض ثقيلة وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة هيجت ألواننا وعظمت بطوننا فقال رسول الله ﷺ لا تشربوا في الدباء والحنتم والنقير ، وليشرب أحدكم في سقاء يلاث على فيه ، فقال له الأشج بأبي وأمي يا رسول الله رخص لنا مثل هذه ، وأومأ بكفيه فقال يأشج إني إن رخصت لك في مثل هذه ، وقال بكفيه هكذا شربته في مثل هذه ، وفرج يديه وبسطها يعني أعظم منها حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر ساقه بالسيف ، وكان في الوفد رجل من بني عضل يقال له الحرث ، قد هزرت ساقه في شراب لهم في بيت تمثله من الشعر في إمرأة منهم ، فقام بعض أهل ذلك البيت فهزر ساقه بالسيف ، فقال الحرث لما سمعتها من رسول الله ﷺ ، جعلت أسدل ثوبي فأغطي به ساقي وقد أبداها الله تبارك وتعالى (١) .

كما جاء في باب وفد عبد القيس من صحيح البخاري (٢) عن أبي جمرة قال : قلت لابن عباس : أن لي جرة ينتبذ لي فيها فأشربه حلوا في جر إن كثرت منه فجالست القوم فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح؟ فقال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ ، فقال مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا : يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركين من مضر وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام ، فحدثنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعو به من وراءنا ، قال : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : الإيمان بالله ، هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : ما ينتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت ، وهكذا رواه مسلم. والدباء وعاء القرع اليابس ، والحنتم جرة خضراء والنقير جذع ينقر وسطه ، والمزفت المطلى بالقار ، فهذه الأوعية كان ينبذ فيها فنهاهم عن ذلك .

وفي مسند الطيالسي بالسند عن ابن عباس قال : إن وفد عبد القيس لما قدم على رسول الله ﷺ قال : ممن القوم؟ قالوا : من ربيعة ، قال : مرحبًا بالوفد غير الخزايا

---

(١) الإمام أحمد ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) كتاب وفود الإسلام ، ص٢٥ ، أبي تراب الظاهري .

ولا الندامى ، فقالوا : يا رسول الله إنا حي من ربيعة ، وإنا نأتيك من شقة بعيدة ، وإنه يحول بيننـا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل ندعوا إليه من وراءنا وندخل به الجنة ، فذكر الحديث وفي آخره أنه ﷺ قال لهم : فاحفظوهن وادعو إليهن من وراءكم ، وفي رواية مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : لأشج عبد القيس ، إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل ، الحلم والأناه ، فقال : يا رسول الله تخلقتهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال جبلك الله عليهما ، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله .

كما جاء أيضًا في مسند الإمام أحمد ، حدثنا عبد الله حدثني أبي ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، قال حدثنا عوف ، حدثنى أبو القموص زيد بن عدي قال حدثنى أحد الوفد الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من عبد القيس ، قال : وأهدينا له فيما يهدي موطا أو قربة من تعضوض أو برني ، فقال : ما هذا؟ قلنا هذه هدية قال : وأحسبه نظر إلى تمرة منها فأعادها مكانها وقال : أبلغوها آل محمد قال : فسأله القوم عن أشياء حتى سألوه عن الشراب ، فقال : لا تشربوا في دباء ولا حنتم ولا نقير ولا مزفت ، اشربوا في الحلال الموكى عليه فقال له قائلنا : يا رسول الله وما يدريك ما الدباء والحنتم والنقير والمزفت ؟ قال : أنا لا أدري ماهيه؟ ، أي هجر أعز؟ ، قلنا : المشقر قال : فوالله لقد دخلتها وأخذت إقليدها ، قال : وكنت قد نسيت من حديثه شيئًا فاذكرنيه عبيد الله بن أبي جروة قال : وقفت على عين الزارة ثم قال اللهم أغفر لعبد القيس إذ أسلموا طائعين غير كارهين غير خزايا ولا موتورين إذ بعض قومنا لا يسلموا حتى يخزوا ويوتروا ، قال : وابتهل وجهه هاهنا من القبلة يعني عن يمين القبلة حتى استقبل القبلة ثم يدعو لعبد القيس ، ثم قال : إن خير أهل المشرق عبد القيس .

ويذكر ابن سعد (١) أن رسول الله ﷺ أسكن الوفد دار رملة بنت الحارث ، حيث مكثوا عشرة أيام كان الأشج خلالها يسائل الرسول ﷺ عن القرآن وكان أُبيّ بن كعب يقرأ على الأشج بعض السور كما تعلم أعضاء الوفد بعض سور القرآن .

والراجح ما ذكره ابن حجر (٢) بأن أعضاء الوفد مكثوا في المدينة حتى العام الثامن للهجرة ٦٢٩م ، ويقول العيني (٣) ثم إن النبي ﷺ قال : تبايعوني على أنفسكم

---

(١) ابن سعد ، ١ ق ٥٤/٢ ، ٥/٤٠٦ ـ ٤٠٧ . (٢) الإصابه ، ١٧١/٢ .

(٣) عمدة القارئ ، شرح صحيح النجاري ٣١٠/٨ الزرقاني ١٦/٤ .

وقومكم ؟ فقال القوم : ـ نعم ، فقال الأشج : ـ يا رسول الله إنك لن تزايل الرجل على شيء أشد عليه من دينه ، نبايعك على أنفسنا ، وترسل معنا من يدعوهم ، فمن إتبعك كان مِنا ، ومن أبى قاتلناه .

وبعد فتح مكة سنة الثامنة للهجرة ٦٢٩م. عاد الوفد إلى البحرين ، وفي صحبتهم العلاء بن الحضرمي موفدًا من قبل الرسول لملك البحرين المندر بن ساوي ، ومساعدة الوفد لنشر الدين في البحرين .

وفور وصولهم حولوا بيعتهم مسجدًا(١) و(٢) وفي السنة التاسعة من الهجرة اتجهت نخبة من عبد القيس إلى المدينة المنورة وفدًا على الرسول ﷺ برئاسة الجارود بن المعُلى بن حنش العبدي ، وكان لا يزال حتى ذلك الوقت على نصرانيته ، وقد سُر الرسول الكريم كثيرًا بقدوم ذلك الوفد ودار بينه وبين الجارود حوار انتهى بإسلام الجارود ومن معه ، وبعد فترة أمضاها الوفد للنهل من علوم القرآن والسنة والتفقه في الدين ، أقفل راجعًا إلى بلده البحرين .

إن الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في شأن وفادة عبد القيس للمدينة تلقى الضوء على عدة أمور منها : ـ حرص هؤلاء القوم على مقابلة الرسول ﷺ والنهل من معين التعاليم الإسلامية من مضانها ، غير مبالين بالمصاعب والأهوال التي قد تعترض طريقهم إلى المدينة والمتمثلة في القبائل التي لا تزال في ذروة المعارضة للإسلام والتصدي لأتباعه ومضايقتهم .

إن أسئلة أعضاء الوفد للرسول وإلتماسهم منه الترخيص لهم في تناول قليل من تلك الأشربة التي اعتادوا تناولها بالقدر الذي يقيهم من الأمراض الناجمة عن بيئة بلادهم ، وإجابة الرسول لهم بالمنع المطلق ونهيه لهم عن الإنتباذ في بعض الأوعية التي درجوا على استعمالها يوضح بجلاء أن هؤلاء القوم كانوا على علم بالكثير من الأحكام الشرعية كالحلال والحرام ، والمباح والمكروه .

---

(١) الإصابة ١٧١/٢ .

(٢) لا تزال بقايا مسجد عبد القيس قائمة في الموقع المعروف باسم جواثا شرق مدينة الهفوف وهو أول مسجد أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ، بالمدينة أنظر تاريخ هجر، ج١ ، ص١٦٧ عبد الرحمن الملا الطبعة الثانية .

أما تذكير الرسول لهم بالإيمان بالله وبيانه لأركان الإسلام أيضًا فإن الغاية من ذلك تعظيم هذا الأمر والتنويه بأهميته لا التبليغ به لأن أركان الإسلام من أوائل الأمور التي يتعلمها المسلم بمجرد اعتناقه للإسلام .

يذكر ابن حجر في ترجمة المنذر بن أشوع العبدي ، أنه قدم في وفد عبد القيس فقالوا يا رسول الله :ـ جئنا سلما غير حرب ، ومطعين غير عاصين فاكتب لنا كتابًا يكون في أيدينا تكرمة على سائر العرب ، فسُر النبي ﷺ ، وأمرهم ، ونهاهم ، ووعظهم ، وكتب لهم كتابًا .

في هذا الحديث دلالة واضحة على ما كان يتمتع به هؤلاء من رغبة صادقة في إظهار الولاء والطاعة للإسلام ، والإلتزام التام لأوامره ، وكذلك ما طُبعوا عليه من عفة النفس ، وسموّ الأخلاق ، إذ لم ينتهزوا هذه المقابلة لإلتماس رفد أو عطاء كما يفعل كثير من عشاق الدنيا وطلاب المال ، فكل ما طلبوه وطمحوا إليه شهادة من الرسول الكريم تكون لهم وسام عز وفخار بين سائر العرب ، وهذا ما عبر عنه الرسول الكريم في أحد أدعيته لهم حيث قال :ـ اللهم اغفر لعبد القيس جاءوني لا يسألوني مالاً اللهم اغفر لعبد القيس (١) .

وتختلف الروايات في عدد الوفد ، فقد جاء عن أبي خيرة الصباحي قوله : كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ وكنا أربعين راكبًا ، وعن ابن سعد عن الواقدي أن عدد الوفد كان عشرين شخصًا رأسهم عد الله بن عوف الأشج في بني عبيد ثلاثة نفر وفي بني غُنم ثلاثة نفر ، ومن بني عبد القيس إثنى عشر رجلاً معهم الجارود. وفي رواية أخرى لابن سعد جاء قوله فأسلم الأشج ثم خرج في سبعة عشر رجلاً وفداً على النبي ﷺ من أهل هجر ويذكر النووي أن الوفد كان أربعة عشر راكبًا ، وقال ابن كثير أنهم كانوا ثلاثة عشر راكبًا .

---

(١) تاريخ هجر ، ج١ ، ص٣٨ ، ط٢ .

أسمـــاء الوفـــد :

قائمـــة ابـــن سعـــد :

من بني عصر : المنذر بن الحارث وقد اختلف الرواة في اسمه فقد ذكر الواقدي أن اسمه عبد الله بن عوف ، ويذكر هشام بن الكلبي أنه المنذر بن الحارث بن عمرو بن زياد بن عصر ، ويذكر المدائني أنه المنذر بن المنذر بن النعمان بن زياد بن عصر وسماه الرسول ﷺ الأشج لضربة بوجهه وهو رئيس الوفد ، وعمرو بن المرجوم واسم المرجوم عبد القيس بن عمرو بن شهاب بن عبد الله بن عصر بن عوف بن عمرو بن عبد القيس ، وشهاب بن المتروك واسم المتروك عباد بن عبيد بن شهاب بن عبد الله بن عصر ، وهمام بن ربيعة ، وخزعة بن عبد عمرو ، وجارية بن جابر ، وعامر بن عبد القيس ، وعمرو بن عبد قيس وعمرو بن شعيث ، ومن بني صباح بن عبد القيس أبوخيرة ، وعقبة بن جروة ، ومطر بن هلال العنزي وهو أخ لعقبة بن جروة من أمه وحليف لهم من عنزة ، والزارع بن الوازع العبدي وقد نزل البصرة .

ومن بني عائشة بن العوف بن الديل الحارث بن جندب ، ومن بني مرة بن ظفر بن الديل صحار بن العباس العبدي ، ومن بني عجل بن عمرو بن عبد القيس سفيان بن خولي من بني ظالم بن ذهل بن عجل ، ومنقذ بن حبان ، ومن بني محارب عبد القيس همام بن معاوية بن شبانة وحفيده عُبيدة بن مالك بن حطمة بن عمرو بن محارب ومحارب بن مزيدة بن مالك وإبان المحاربي ، ومن بني ظفر بن ظفر بن محارب سفيان ابن همام ، وعمرو بن سفيان .

وذكر من أسماء الوفد أيضًا جابر بن عبد الله بن جابر العبدي. وذكرت المصادر من الوفد عددًا لم ترد في قائمة ابن سعد وهم : الجهم بن قثم ، وقيس بن النعمان العبدي ، والمنذر بن الأشوع العبدي ، وعامر بن الحارث من بني مرة ، وجابر بن الحارث ، وفضالة بن سعيد المحاربي وكان من أشرافهم ، والأشعث بن جودان ، وحسان بن أبي حسان العبدي ، مشمرخ بن خالد السعدي قدم على النبي في الوفد فكساه بردًا وأقطعه ركيًا وكتب له كتابًا ولعل ذلك في وفادة خاصة ، ورسيم الهجري ، ومن بني عصرالحارث بن شعيب ، ومزيدة وجويرة ، ومن بني صباح عيسى بن عبد الله ، وأبو سنان وهو (مؤذن مسجد بني صباح) ، والأعور بن مالك بن عمرو بن عوف ابن عامر بن ذبيان بن الديل ، والقائف ، وإياس ابني عيسى بن أمية بن ربيعة

ابن عامر بن ذبيان بن الديل (وكانا من سادات بني صباح) وذكر العيني من وفد عبد القيس شريك بن عبد الرحمن ، والحارث بن عيسى ، وعبد الله بن قيس وعيسى بن عبد الله ، وربيعة بن خراش ، ومحارب بن مرثد ، وعباد بن نوفل بن خراش وابنه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن والحكم ابني حيان ، وعبد الرحمن بن أرقم وفضالة بن سعد ، وحسان بن زيد وعبد الله بن همام. وسعد بن عمر وعبد الرحمن بن همام ، وحكيم بن عامر وأبو عمر ، وابن شييم .

وإزاء هذا العدد الكبير من أعضاء الوفد برئاسة الأشج يقف الباحث عبد الرحمن النجم[1] موقف المتشكك من صحة العدد ، ويعتبر أن بعضهم قد حشر بين أسماء الوفد الحقيقيين سيما وأن الوفادة يترتب عليها مجد ومفاخرة ومكاسب. ورغم اتفاقنا مع الباحث في إحتمال عدم دقة هذه القائمة من الأسماء فإننا لا نتفق معه في الأسباب التي أوردها بل لأسباب أخرى منها :

١ ـ إن بعض الأسماء الواردة في القائمة كانت لأشخاص قاموا بزيارات خاصة الأمر الذي أشكل على الباحثين فأدرجوا أسماؤهم في قائمة أسماء أعضاء الوفادة الأولى . يعزز هذا الاحتمال ما أشارت إليه المصادر من أن الرسول الكريم قد أعطى المشمرخ بن خالد السعدي ، وهو أحد الأسماء الواردة ضمن قائمة الوفد بردًا وركيًا ، وكتابًا .

ولم يكن الرسول بالطبع ليخصه بهذا العطاء دون سواه من أعضاء الوفد الأمر الذي يعزز احتمال قدومه على الرسول ﷺ ، في وفادة خاصة به .

٢ ـ يوجد تداخل في بعض الروايات بين أسماء أعضاء الوفادة الأولى لعبد القيس في السنة الخامسة من الهجرة برئاسة الأشج وأعضاء وفادتهم الثانية في السنة التاسعة من الهجرة برئاسة الجارود ، من ذلك على سبيل المثال رواية ابن سعد عن الواقدي والتي جاء فيها أن عدد الوفد عشرين شخصًا ، وكان بينهم اثنى عشر رجلاً من عبد القيس معهم الجارود .

ومن المعلوم أن الجارود لم يكن أبدًا ضمن أعضاء الوفد الأول والقرائن على ذلك كثيرة منها : أن جميع المصادر تؤكد أنه ترأس الوفادة الثانية في السنة التاسعة

---

(١) البحرين في صدر الإسلام ، ص١٠٣ : ١٠٦ ، عبد الرحمن النجم .

من الهجرة وكان آنذاك لا يزال على نصرانيته ، وقد أسلم بين يدي الرسول وأسلم معه جماعة من قومه .

انتشار الإسلام في بلاد البحرين :

عاد وفد عبد القيس من المدينة المنورة وعقد أعضاؤه العزم على نشر الإسلام في ربوع بلادهم طوعًا أو كرهًا ، وكان في معيتهم العلاء بن عماد الحضرمي حليف بني عبد شمس ممثلاً عن الرسول ﷺ وموفدًا من قبله إلى زعماء المنطقة وفي مقدمتهم المنذر بن ساوي الأسبذي ، والأسبيخت مرزبان هجر وكان مع العلاء لكل منهما خطاب من الرسول ، ولم يكد العلاء يصل إلى البلاد حتى هرع إلى المنذر بن ساوي وأعطاه كتاب الرسول وكان نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد :

(فإني أدعوك إلى الإسلام ، فأسلم تسلم ، أسلم يجعل الله لك ما تحت يديك وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر) .

وبعد أن فرغ المنذر من قراءة الكتاب خاطبه العلاء قائلاً : (يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا يصغرن بك في الآخرة ، إن المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون من يستحي من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، ويعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة ولست بعديم رأي فانظر لمن لا يكذب أن لا تصدقه ولمن لا يخون ألا تأمنه ، ولمن لا يخلف ألا تثق به ، إن كان أحد هكذا فهو هذا النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ليت ما نهى عنه أمر به ، أو زاد في عفوه أو نقص من عقوبته إن كان ذلك منه إلا على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصيرة) ، فأجابه المنذر بقوله : (قد نظرت في هذا الذي بين يدي من الملك فوجدته للدنيا ونظرت في دينكم فوجدته للدنيا والآخرة معًا فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت) .

ثم أسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض العجم [1] وفي مقدمتهم أسبيخت مرزبان هجر وقد أجاب المنذر بن ساوي الرسول وقبل بوجود العلاء ممثلاً للرسول ﷺ وراعيًا لمصالح الدولة الإسلامية وخاصة ما يتصل منها بالشئون المالية والدفاعية كما بادر المنذر بن ساوي إلى إجابة الرسول على خطابه برسالة خطيه أعرب فيها عن إسلامه وتصديقه بالرسالة وكما بشره بإسلام العرب وبعض العجم ثم سأله عن نوع الإجراءات التي يتعين عليه اتخاذها تجاه من لم يقبل الدخول في الإسلام كاليهود وبعض المجوس ، وقد جاء في تلك الرسالة ما نصه :

إني قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه وفي أرضي مجوس ويهود فأحدث إلي في ذلك أمرك [2] .

فأجابه الرسول ﷺ بكتاب نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي

سلام الله عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو

أما بعد :

فمن استقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا ومن لم يفعل فعليه دينار من قيمة المعافري [3] .

والسلام ورحمة الله يغفر الله لك

ثم توالت كتب الرسول ﷺ ، على البحرين للمنذر وغيره من الزعماء المحليين وأشراف عبد القيس تحمل التوجهات السامية والدعوة للإسلام والترغيب فيه .

---

(١) فتوح البلدان ص٧٨ .   (٢) ابن سعد ق٢/١٩ .

(٣) المعافرية : نوع من البرود اليمانية ، يقول الأزهري برد معافري منسوب إلى معافر اليمن ثم صار إسما لها بغير نسبة ـ البحرين في صدر الإسلام ، ص١٤٧ ، عبد الرحمن النجم .

ومن تلك الرسائل :

١ ـ كتابه ﷺ للمنذر بن ساوي ما نصه :

بسـم الله الرحمــن الرحيـم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد ،

« فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وأنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وأن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا ، وأني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » (١) .

٢ ـ كُتبه ﷺ إلى أسبيخت : يروي ابن سعد من كُتب(٢) الرسول لمرزبان هجر السابق ما نصه :

« إلى أسبيخت بن عبد الله صاحب هجر. إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، وإني قد شفعتك وصدقت رسولك الأقرع في قومك فأبشر فيما سألتني وطلبتني بالذي تحب ولكني نظرت أن أعلمه وتلقاني فإن تجئنا أكرمك وإن تقعد أكرمك .

أما بعـــد :

فإني لا أستهدي أحدًا وإن تُهدي إليّ أقبل هديتك ، وقد حمد عمالي مكانك وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقراية المؤمنين ، وإني قد سميت قومك بني عبد الله فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل وأبشر » .

والســـلام عليــك وعلى قومــك المؤمنـين

---

(١) عيون الأثر ، ٢/٢٦٧ .

(٢) البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ، ص١٤٨ ، عبد الرحمن النجم .

٣ ـ كتب الرسول ﷺ ، إلى عبد القيس كتابًا جاء فيه :

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

من محمد رسول الله لعبد القيس وحاشيتها من البحرين وما حولها «إنكم أتيتموني مسلمين مؤمنين بالله ورسوله ، وعاهدتم على دينه فقبلت على أن تطيعوا الله ورسوله فيما أحببتم وكرهتم وتقيموا الصلاة ، وتؤدوا الزكاة ، وتحجوا البيت ، وتصوموا رمضان ، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على أنفسكم ، وعلى أن تؤخذ من حواشي أموال أغنيائكم فترد على فقرائكم على فريضة الله ورسوله في أموال المسلمين (١) » .

٤ ـ من كتب الرسول ﷺ إلى مجوس هجر .

عن الحسن بن محمد أنه قال : كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام فمن أسلم قبل منه ، ومن لا ضُربت عليه الجزية في أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له إمرأة (٢) .

أما نص كتابه ﷺ فيرويه الزيلعي بسنده هاشم بن القاسم عن المرجاني رجاء عن سليمان بن حافص عن أبي إياس معاوية بن قرة أن رسول الله ﷺ كتب إلى مجوس هجر .

أما بعد

« من شهد منكم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فله مثل مالنا ، وعليه مثل ما علينا ، ومن أبى فعليه الجزية على كل رأس دينار على الذكر والأنثى ، ومن أبى فليأذن بحرب من الله ورسوله » (٣) .

إن هذه الكتب التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ وبين زعماء البحرين وأشرافها قد حملت بعض بصمات الإدارة الإسلامية الجديدة على سير الحياة في البحرين ، وتنظيم شئونها وفق تعاليم الإسلام ومفاهيمه ، كما أبرزت مكانة الأشخاص الذين تم تبادل الكتب معهم .

---

(١) البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ، ص١٤٨ ، عبد الرحمن النجم .
(٢) البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ، ص١٥٠ ، عبد الرحمن النجم .
(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٨٩ و٩٠ .

ففيما يتصل بالكتب الموجهة لعامل البحرين المنذر بن ساوي فإن الخطاب الأول تضمن دعوة المنذر في الدخول في الإسلام والإشارة إلى أن مصلحته تكمن في القبول بهذا الدين وإن استمـــرار بقاؤه في الملك متوقف على ذلك ، لأن الدين الإسلامي لابد أن تشتد شوكته ويسمو سلطانه ، ويمتد إلى أقصى ما تصل إليه حافر فرس أو خف بعير .

أما إجابة المنذر على هذا الخطاب فتعكس سرعة استجابته لإعتناق الإسلام والإيمان به ، والعمل بمقتضاه ، كما توضح موقف أهل البحرين من هذه الدعوة ، ومسارعة القطاع الأعظم منهم إلى الاقتداء بقائدهم والدخول في الإسلام ، وامتناع اليهود وبعض المجوس عن قبول الإسلام ، واختيارهم البقاء على عقائدهم ، وإلتماس الإجراءات التي ينبغي اتخاذها معهم في موقفهم هذا من الإسلام .

ولعل من الأسباب الكامنة وراء سرعة استجابة المنذر لهذه الدعوة الكريمة ما كان يتحلى به من سلامة الفطرة التي تهدي إلى الدين القويم والصراط المستقيم ، علاوة على كون الأسبذية أو المجوسية من العقائد الدخيلة المجافية للقيم العربية الأصيلة كما أن للمناقشة الهادئة التي أفاض فيها العلاء للمنذر في إثر فراغه من قراءة كتاب الرسول ﷺ وما إنطوت عليه تلك المناقشة من البراهين العقلية والأفكار المنطقية ، كان لها الأثر الكبير في تلك المبادرة .

أما الخطاب الثاني فيعبر عن إمتنان الرسول بموقف المنذر من الإسلام وبيان ما عليه المسلمون من مساواة في الحقوق والواجبات وضرورة أخذ الجزية من غير المسلمين ، وتحديد مقدارها ويحمل الخطاب الثالث تفاصيل أكثر من سابقيه ، ففيه تذكير للمنذر بالله عز وجل ، وإن النصح لله ورسوله يعود بأحسن الثمار وأفضلها على الناصح نفسه ، وإن التعاون مع رسل الرسول وعماله والنصح لهم والاستجابة لتوجيهاتهم نصح واستجابة للرسول ذاته .

ولأن معاملة المنذر لعمال الرسول قد تميزت بهذه السمات فقد أثنوا عليه بالخير عند رسول الله ﷺ .

كما يتضمن الاستجابة لمطالب كان المنذر قد رفعها إلى الرسول وقضايا أراد البت فيها ، ومنها على ما يظهر أن بعض السكان قد اشترطوا لأنفسهم شروطًا معينة يدخلون على أساسها في الإسلام ، وإن تلك الشروط أصبحت موضع نظر إما من

عمال الرسول أو غيرهم فأرجئ الحسم فيها للرسول ﷺ . كما أن أناساً قد اقترفوا بعض الذنوب ولكنهم قرروا الإقلاع عنها والتوبة منها ، فطلبوا من المنذر السعي لهم في إلتماس العفو من الرسول ﷺ ، وقد لبى الرسول ﷺ جميع هذه المطالب .

كما أراد أن يشيع الطمأنينة في نفس المنذر على تثبيته في مركزه واستمراره في ممارسة سلطاته ، وإنه لن يتعرض للعزل طالما ظل سائرًا على طريق الإصلاح .

كما ذكره بأن الحكم فيمن إختار البقاء على يهوديته أو مجوسيته لم يتغير ، وهو أخذ الجزية المقررة التي سبق إيضاح مقدارها.

وفيما يتصل بالكتب التي تم تبادلها بين الرسول ﷺ وأسبيخت المرزبان السابق لهجر. فإن الكتاب قد تضمن الإشارة إلى أن مكانة أسبيخت من قومه لن تتغير بعد الدخول في الإسلام ، وإن منهم من إرتكب بعض المخالفات ولكنهم أظهروا الرغبة في العدول عنها فقام أسبيخت بإفاد ممثله الشخصي المعروف باسم الأقرع إلى المدينة وعرض الأمر على الرسول ﷺ وإلتماس العفو منه عن أولئك المخالفين ، كما ألمح إلى بعض المطالب التي لم يفصح عنها ، كما إستأذنه في قبول هدية يعتزم إرسالها إليه ﷺ وقد لبى الرسول جميع تلك المطالب .

فشفعه في قومه ، وتجاوز عما بدر منهم ، كما بشره بإجابة مطلبه وطلب منه إيضاحه ، والقدوم عليه في المدينة ، وإنه سيكون موضع تقدير وإكرام في حالة القدوم وعدمه ، وأخبره بأنه لا يمانع في قبول الهدية ولكنه لا يطلبها من أحد ، وأشعره بأنه كان موضع تقدير وثناء رسله ﷺ إلى البحرين ، ثم يوصيه بإلتزام أحسن ما كان عليه من الصلاة والزكاة وتعليم المؤمنين كما أنعم على قومه بتسميتهم بني عبد الله ، وطلب منه حثهم على أداء الصلاة وإلتزام أحسن الأعمال وبشره بما يسره ثم يختم الخطاب بالسلام عليه وعلى قومه المؤمنين .

أما كتاب الرسول ﷺ لعبد القيس ومن يليهم من سكان البحرين وحولها ، فقد بدأ بتذكيرهم بموقفهم المشرف من الإسلام وسبقهم بالدخول فيه ، ووفادتهم إليه ، وما أُبرم في تلك الوفادة من عهود على الطاعة في جميع الظروف والأحوال والإلتزام بأداء جميع أركان الإسلام ، والقيام لله بالقسط ولو على أنفسهم. وبخاصة فيما يتصل بإخراج الزكاة الشرعية ، وأوجه صرفها بحيث تؤخذ من أموال أغنيائهم ، وتصرف على فقرائهم على الطريقة التي رسمها الشرع بهذا الصدد .

وبالنسبة للكتاب الذي بعثه الرسول ﷺ إلى مجوس هجر فقد تضمن دعوتهم للدخول في الإسلام ، وإن تأخرهم عنه في الماضى لن يحول دون قبوله منهم الآن ، وإن فرض الجزية عليهم والامتناع عن الزواج منهم وعن أكل ذبائحهم كل ذلك سيظل قائمًا إذا ظلوا على مجوسيتهم .

كما أوضح هذا الخطاب الإسلام في أبسط صوره ، وهو أداء الشهادتين ، وإستقبال قبلة المسلمين ، وأكل ذبائحهم وإن من أسلم من المجوس سيكون له جميع الحقوق ، وعليه كافة الواجبات شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين وإن من امتنع عن قبول الإسلام فهو مخير بين أداء الجزية ومقدارها دينار على كل بالغ آثر البقاء على دينه الأول من ذكر أو أنثى ، أو الحرب لمن امتنع عن ذلك .

لقد كان لاستجابة المنذر بن ساوي ومبادرته في إعتناق الإسلام أطيب الأثر في نفس الرسول ﷺ كما أثمرت بأفضل النتائج على المنذر ، فقد ثبته الرسول ﷺ في مركزه كوالٍ على البحرين ، وترك له ممارسة الصلاحيات الإدارية والمدنية في البلاد ، وجعل الرسول ﷺ العلاء الحضرمي على جميع أعمال جباية الخراج (١) ، وكان العلاء على قدر كبير من الحكمة وحُسن السياسة فقد استطاع بجميل معاملته أن يستقطب حوله قلوب سكان البحرين على اختلاف أجناسهم وتباين أحوالهم فصار يأخذ الزكاة من أهلها والخراج من أصحابه ، فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء وكتب بينهم كتابًا نصه (٢) :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين. صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر ، فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »
أما الجزية فقد كانت على كل حالم دينار .

وعن قتادة قال : لم يكن للبحرين أيام رسول الله ﷺ قتال ولكن بعضهم أسلم وبعضهم صالح العلاء على أنصاف الحب والتمر ، ولعل من أهم أسباب بروز هذا الصلح وقوف عبد القيس إلى جانب العلاء ومؤازرتهم له في نشر تعاليم الإسلام

---

(١) أنظر تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٥٠ ، ٥١ .
(٢) البحرين في صدر الإسلام ، ص١٠١ ، عبد الرحمن النجم .

وتطبيق أحكامه استجابة لواجب الجهاد ونهوضًا بالمسؤليات التي رسمها لهم رسول الله ﷺ في إطار مناصرة العلاء والشد من أزره كما يتبين ذلك في رسالته ﷺ إلى الأكبر بن عبد القيس ، وقد جاء فيها .

« من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس. إنهم آمنوا بأمان الله ، وأمان رسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القحم وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم أن لا يحبسوا عن طريق الميرة ، ولا يمنعوا صوب القطر ، ولا يحرقوا حريم الثمار عند بلوغه ، والعلاء الحضرمي أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها ، وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، ولا يبدلوا قولا ، ولا يريدوا فرقة ، ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء ، والعدل في الحكم والقصد في السيرة ، حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما والله ورسوله يشهد عليهم » .

هذا بالإضافة إلى ما يتسم به سكان هذه البلاد من روح التسامح والبعد عن الغلو ، والميل إلى حياة الإستقرار والأمن .

وقد ظل العلاء يمارس مهام عمله إلى أن عزله النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة ٦٣٠م ، وجعل مكانه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية .

وقد روى ابن سعد أن الرسول ﷺ كتب إلى العلاء بن الحضرمي أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القيس. فقدم عليه منهم بعشرين رجلاً رأسهم عبد الله بن عوف الأشج فشكا الوفد العلاء بن الحضرمي فعزله رسول الله ﷺ وولى أبان بن سعيد بن العاص وقيل أن العلاء كان على ناحية من البحرين وأبان على ناحية أخرى والقول الأول أثبت (١) .

وفيما يتصل بأهمية إنتظام هذه البلاد في سلك الإسلام وما أحدثه من أثر بالغ في إنعاش الحياة الاقتصادية للدولة الإسلامية الفتية وإثراء خزانتها بما كانت ترسله إليها من أموال الجزية والخراج ، نكتفي ببيان أن أكثر مال تسلمه الرسول في حياته جاءه من البحرين ، فقد بلغ في بعض السنوات مائة وخمسين ألف دينار (٢) .

---

(١) فتوح البلدان ، ص٩٢ ، البلاذري .

(٢) أنظر مجلة العرب ، جماديان ، ١٣٩٩هـ .

وبفضل هذه الموارد تحسنت الأوضاع الاقتصادية في عاصمة الإسلام وتعززت حركة الجهاد في سبيل نشر الدين ، والدعوة إليه ، وقد كانت هذه الأموال تنقل إلى المدينة من البحرين تحت إشراف رجال من كبار الصحابة رضوان الله عليهم كأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وأبي هريرة ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبان بن سعيد .

وحين تصل هذه الأموال إلى المدينة تغمر الناس هناك موجة من مشاعر الغبطة والإبتهاج حيث يتم نثرها في المسجد وتقسيمها على المسلمين تحت سمع الرسول وبصره دون أن يخص نفسه ﷺ أو أهله بشيء منها .

وصفوة القول أن هذه البلاد قد إنضوت تحت راية الإسلام دون قتال لعوامل من أهمها : بزوغ فجر الإسلام في وقت كانت فيه أراضي شرق الجزيرة العربية واقعة ضمن دائرة النفوذ الفارسي الذي أدركه العجز والضعف آنذاك بسبب حروبه المستمرة مع الروم من جهة ، وتوالي اندلاع الثورات الداخلية من جهة أخرى ، الأمر الذي جعل سلطته على الأراضي الخاضعة له ضعيفة وعاجزة عن إشاعة حياة الاستقرار والأمن ، وبالتالي أصبحت تلك البلاد فريسة للفوضى والفتن والصراعات القبلية التي أوشكت أن تصيب بالشلل التام حياة الاستقرار والأمن في سائر مدن المنطقة وقراها العامرة بألوف السكان من مختلف الأجناس وألوان الأنشطة الاقتصادية من تجارة رائجة وصناعة متنوعة وزراعة متعددة المحاصيل والثمار .

لذا كان التخلص من نير السيطرة الفارسية أملاً يتطلع إلى تحقيقه جميع سكان المنطقة ، وقد وجدوا بغيتهم في إعتناق الإسلام والإنضواء تحت لواء دولته .

هذا إلى جانب غلبة الطابع الحضاري على سكان البحرين وتنوع ثقافاتهم وإطلاعهم على العديد من الديانات السابقة وبخاصة النصرانية التي كان يدين بها معظم عبد القيس ، كما كانوا على علم بما في النصرانية من إشارات وأوصاف للنبي المتوقع ظهوره بين العرب ، وهذا ما أكده الجارود فقد قال للرسول : والله إني أجد صفتك في الإنجيل ، هذا إلى جانب ظهور دعاة التوحيد بينهم ومن هؤلاء قس بن ساعده الأيادي ، ورآب الشني ، وبحيرا الراهب وأسباب أخرى كصلات البحرين بالحجاز والرغبة في استمرارها وتطويرها ، سعياً وراء تحقيق حياة أفضل تحت رواق الدين الإسلامي .

هذه العوامل وغيرها جعلت عبد القيس في طليعة المستجيبين للإسلام بطواعية واختيار وقبل غيرهم من سائر العرب باستثناء الأنصار والسابقين من المهاجرين .

وقد كان لهذا السبق أثره الواضح في خلق المناخ الملائم لقبول الإسلام ، ومعرفة مزاياه ، ونشر الوعي لأهمية المبادرة في إعتناقه ، فحالما أصبحت هذه البلاد في دائرة النفوذ الإسلامي ، أخذ سير الحياة بها يتخذ صبغة الدين الجديد ، وهدى تعاليمه في جميع المجالات .

وفيما يتصل بالحياة الدينية والتعليمية أخذت المساجد تنتشر في كل مكان لتحل محل معابد الأديان السابقة كالكنائس والبيع وبيوت النار ، كما نهضت تلك المساجد بعدة مهام بالغة الأثر في بناء المجتمع الإسلامي وإرساء دعائم استقراره وتنظيم شئونه وتسليحه بالمعرفة والعلم والآداب .

ففي المساجد كانت تؤدى شعائر الصلاة اليومية والجمع والأعياد ، وتقسيم الزكاوات ، وتبذل الصدقات وتعقد ألوية الجهاد ، وتلقى المواعظ ، ويتم التوجيه والإرشاد ، وتعقد حلقات العلوم الدينية والأدبية وألوان المعرفة العامة .

وكان أول من أخذ على عاتقه مسئولية النهوض بهذه المهمة والمشاركة فيها أعضاء الوفادة الأولى من أمثال المنذر بن عائض وعمر بن المرجوم وعمرو بن عبد القيس وغيرهم .

يؤكد ذلك قولهم لرسول الله ﷺ إبان مقابلتهم له في سياق حديثهم معه (مرنا بأمر فصل ندعو إليه من وراءنا وندخل به الجنة) .

كما تصدر مرزبان هجر السابق عبد الله بن أسبيخت حلقات التعليم والارشاد للمسلمين من أبناء الجالية الفارسية. فهذا رسول الله ﷺ يقول له في أحد كتبه إليه : (وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقراية المؤمنين) .

ولا ننسى في هذا السياق الدور الكبير الذي قام به الموفدون من المدينة إلى هذه البلاد من كبار الصحابة كالعلاء بن الحضرمي وأبي هريرة ، وأبان بن سعيد بن العاص وأبي عبيدة وغيرهم .

وفي مجال الاقتصاد أصبحت قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها أساس التعامل في جميع الشئون المالية والاقتصادية سواءً بين السكان أنفسهم ، أو بينهم وبين الجهات الحكومية الرسمية ، فكان من نتائج ذلك اختفاء كثير من الأساليب والممارسات

التي كانت تتبع قبل الإسلام في جمع المال وتكوين الثروات ، كالمعاملات الربوية ، والبيوع المحرمة واحتكار السلع ، واستغلال النفوذ وقبول الرشاوى إلى غير ذلك من الأمور التي حرمها الإسلام ، وقضى على التعامل بها .

فساد العدل كافة فئات المجتمع فأقبل الناس على العمل ومضاعفة الإنتاج في مختلف الأنشطة الاقتصادية بنفوس راضية ، وقلوب مطمئنة ، وقد أصبحت العلاقة المالية بين الحاكم والمحكوم واضحة ومحددة في الزكاة والجزية والخراج ، وكانت الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، أما الجزية والخراج فكانت تحمل إلى المدينة المنورة للإستعانة بها على تحسين الأوضاع المادية للمسلمين ، ومد قوافل الجهاد بما تحتاج إليه من المؤن والأسلحة والعتاد .

حركة الردة وموقف أهل البحرين منها :

انتقل الرسول محمد ﷺ في السنة الحادية عشرة إلى الرفيق الأعلى وكان لوفاته وقع الصاعقة على المجتمع الإسلامي في كل مكان فاهتزت أركانه ، وعصفت به رياح عاتية من الفوضى والاضطراب .

فثبت الذين آمنوا بصدق على إيمانهم وأظهر الذين في قلوبهم مرض ما قد إنطوت عليه جوانحهم من حقد على الإسلام ، أو حسد لمحمد ، أو غيرة منه أو طمع في زعامة متوقعة أو رغبة في استعادة سلطان زائل ، أو شح بالمال عن الانفاق في سبيل الله إلى غير ذلك من الأسباب .

وكانت أراضي شرق الجزيرة العربية آنذاك مهيئة لظهور مختلف الاتجاهات لتعدد العناصر البشرية التي تتكون منها البنية السكانية بها ، فكان بها من العرب عشائر عبدالقيس وعشائر من تميم ، وبكر بن وائل ، كما كانت بها جالية كبيرة من العجم ، وعناصر أخرى كالزط ، والسيابجة ، وكان لكل فئة من هؤلاء السكان خصائصها العقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

فكانت تلك الخصائص حجر الأساس في مواقفها من الإسلام بعد وفاة الرسول.

فقد كانت عشائر عبد القيس محتضرة ويدين معظم أفرادها بالنصرانية وجاء دخولها في الإسلام مبكرًا ، فنالت بذلك الشرف مكانة دينية وسياسية متميزة ، في حين كانت عشائر بكر بن وائل يغلب عليها طابع البداوة ولم يمس الإيمان شغاف قلوب أبنائها لحداثة دخولهم فيه .

أما الجالية الفارسية فكانت تتمتع قبل الإسلام بامتيازات واسعة في المراكز السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وقد فقدت في ظل الإسلام تلك الامتيازات ، كما أن بعضهم ظل متمسكًا بمجوسيته .

أما العناصر الأخرى فكانت تشكل السواد الأعظم من الصناع والزراع والحرفيين وصيادي الأسماك والغاصة على اللؤلؤ وهؤلاء بسطاء تتبنى كل جماعة منهم موقف واتجاه الشخص الذي تعمل في خدمته أو تحت إمرته .

هذه الخصائص شكلت أساس ومنطلق مواقف سكان البحرين من الإسلام بعد وفاة الرسول، وبخاصة في غياب القائد القوي القادر على حفظ التوازن بين جميع الفئات وإهراق الماء على مجمرة الفتنة قبل إتقادها .

ولم يكن هذا الشخص سوى المنذر بن ساوي ملك البحرين قبل الإسلام وعامل الرسول بعد إنتظام البلاد في سلكه .

فقد توفى بعد وفاة الرسول بأيام قليلة [١] ، مما زاد الطين بله والنار اشتعالاً .

فعلى إثر وفاة المنذر ارتدت عن الإسلام قبائل بكر بن ربيعة وتبعتها في ذلك أخلاط الناس من شتى الفئات والأجناس [٢] ، وأوشكت عبد القيس على الانزلاق في حمأة الردة ، ولكن الله قيض لهم الجارود فأخمد جذوة الطيش بما لديه من الحكمة وغزارة العلم ، والمنطق السليم ، فقد وقف فيهم خطيبًا فقال [٣] : « وقد تعلمون ما كنت عليه من نصرانية ، وإني لم آتيكم قط إلا بخير .

إن الله بعث نبيه محمدًا ، ونعى إليه نفسه فقال تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [٤] وقال ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ [٥] ، ثم أردف قائلاً : ما شهادتكم يا قوم على موسى ؟ قالوا نشهد أنه رسول الله . وقال : أنا أشهد أن محمدًا رسول الله عاش كما عاشوا ومات كما ماتوا وأتحمل شهادة من لم يشهد » ، وبذلك انقشعت سحب الشك والاضطراب وثبتت عبد القيس على إسلامها [٦].

(١) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ، ص٢٥٤ ، الطبري .
(٢) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٥٨ ، ط٢ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ، ص٢٥٥ ، الطبري .
(٤) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .
(٦) فتوح البلدان ، البلاذري ، ص٩٤ .

أما عشائر بكر بن وائل فقد أعلنت الردة والخروج على الإسلام ، وأسندت قيادتها لشريح بن ضبيعة الملقب (بالحطم) ، وعلى الفور سار الحطم بجموع بكر بن وائل ، ومن وافقهم من الأعراب وعسكر بين القطيف وهجر ، وأرسل إلى المنذر بن سويد وهو أخو النعمان بن المنذر وكان يلقب بالغرور يدعوه للإنحياز إليه ويمنيه بتتويجه ملكًا على البحرين ليكون كالنعمان في الحيرة متى تم لهم الظفر بما أرادوا ، كما اتصلت عشائر بكر بن وائل في هذا الشأن بكسرى ملك الفرس ، وحظيت منه بالتأييد والمؤازرة ، وسارع الغرور لإعداد جيش كبير من العشائر وأعراب البوادي ، وانضم للحطم وطوق بالحصار الشديد عبد القيس في حصن جواثا ، ولما طال على عبد القيس أمد الحصار ومسهم الضُر والجوع ، كتبوا للخليفة الصديق رضي الله عنه كتابًا ضمنوه بيان حالهم وما هم فيه من كرب عظيم وسألوه النجدة والمدد ، وقد ضمنوا ذلك الكتاب أبياتًا لعبد الله بن حذف أحد بني كلاب هذا نصها .

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً ∴ وفتيان المدينة أجمعينا

فهل لك في شباب منك أمسوا ∴ أساري في جواثا محاصرينا

كأن دماءهم في كل فج ∴ شعاع الشمس يغشى الناظرينا

توكلنا على الرحمن إنا ∴ وجدنا النصر للمتوكلينا

وعندما وصل كتابهم لأبي بكر رضي الله عنه أعد جيشًا من أهل المدينة ضم من المهاجرين والأنصار زهاء ثلاثمائة وستين رجلاً منهم أبو هريرة والبراء بن مالك الأنصاري ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن عبد الله بن أُبيّ وأسند قيادة ذلك الجيش للعلاء بن الحضرمي وحمله رسالة لعبد القيس وأمره بالمسير إلى البحرين ولما كان الجيش بحذاء اليمامة لحق به ثمامة بن أثال في المسلمين من بني حنيفة وذلك بعد قتل مسيلمة الكذاب ورجوع بني حنيفة للإسلام. كما لحق به أيضًا قيس بن عاصم المنقري التميمي فيمن أطاعه من بني تميم ، وانضم إليهم بنو عمرو ،وبنو سعد من تيم والرباب وكان ذلك في اشتداد الصيف ، ولما وصل العلاء البحرين أرسل إلى الجارود كتاب أبي بكر لعبد القيس وقد جاء فيه قوله : (إني بعثت إليكم العلاء بن الحضرمي في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله

(١) تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ، ص٢٥٥ ، الطبري .

حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبىّ أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ، ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الآذان ، فإن أذن المسلمون وأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا إسألوهم ما عليهم فإن أبوّ عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وإحملوهم على ما ينبغي لهم) .

ولاشك أن هذا الخطاب ترك في نفوس عبد القيس أبلغ الأثر في رفع معنوياتهم وتعزيز الروح القتالية لديهم الأمر الذي ساعد كثيرًا على إحراز النصر في نهاية المطاف ، وكان العلاء قد طلب من الجارود الخروج بمن معه من عبد القيس والوقوف حذاء عسكر الحطم مما يلي جواثا ، وقد بادر الجارود بالإمتثال كما سار العلاء بالجيش ونزل هو الآخر حذاء معسكر الحطم مما يلي هجر ، وانضم جميع المشركين للحطم باستثناء أهل دارين ، فخندق المسلمون على أنفسهم وخندق المشركون ، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم ، واستمروا على هذا الحال طيلة شهر كامل ، وفي ذات يوم سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء وحركة غير عادية ، فقال العلاء : ـ من يأتي إليّ بخبر القوم فقال عبد الله بن حذف[1] : أنا وخرج حتى دنا من خندق المشركين فأخذوه ، وكانت أمه عجيلية فجعل ينادي مستنجدًا ويقول : ـ يا أبجراه ، فجاء أبجر بن بجير فعرفه وقال ما شأنك؟ فقال عبد الله علام أُقتل وحولي عساكر من عجل؟ وتيم الله ، فخلصه وقال : (والله لأظنك بئس ابن أخت القوم أتيت الليلة أخوالك) ، فقال دعني من هذا وأطعمني فقد مت جوعًا. فقرب له طعامًا ، فأكل ثم قال لرجل غلب عليه السُكر : زودني وإحملني ، فحمله على بعير وزوده فدخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى فخرج المسلمون عليهم وهاجموهم وأفشوا فيهم القتل فلاذ المشركون بالفرار بين مترد وناج ومقتول ومأسور ، واستولى المسلمون على جميع ما في العسكر ولم يفلت رجل إلا بما يرتديه من ملابس وسلاح ، ولحق قيس بن عاصم أبجر بن بجير وكان فرس أبجر أقوى من فرس قيس ، ولما خشي قيس أن يفوته طعنه في العرقوب وقطع العصب ، وسلم النسا .

---

(١) الطبري ، ج ٢ ، ص٢٥٦ .

وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر :

فإن يرقأ العرقوب لا يرقأ النسا ... وما كل من يهوى بذلك عالمُ

ألــم تر أنـــا قد فللنا حماتهم ... بأسرة عمرو والرباب الأكارم

وأما الحطم فقتله قيس بن عاصم وقطع عتيب بن المنذر التميمي رجله (١) في موضع يقال له جيّار ، وفي قتل الحطم يقول مالك بن ثعلبة العبدلي :

تركنا شريحا قد علته بصيرة ... كحاشية البــرد اليماني المجير

ونحن فجعنا أم غضبان بابنها ... ونحن كسرنا الرمح في عين صبر

ونحن تركنـــا مسمعًا متجندلاً ... رهينـــة ضبـــع تعتـريه وأنســر

وحاول رؤساء الفتنة من قبيلة بكر بن وائل حث أتباعهم على القتال وبث روح العزيمة فيهم فسارت تنادي وتقول :

أتاكم مفروق بن عمرو في جموع بكر بن وائل، فرد عليهم ابن حذف قائلاً :

لا توعيـــدونا بمفـــروق وأســـرته ... من تأتنا يلقى فينا سنة الحطـم

النخـــل باطنهـــا خيـــل وظاهـرها ... خيــل تكدس في البنيــان كنعـم

وإن حيـــين من بكـــر وإن كـــثروا ... لأمـــة داخـــلون النـــار في أمم

واستولى المسلمون على عسكرهم ومعداتهم .

وكان ممن حظى بالشهادة في ذلك اليوم من المسلمين عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ وهما ممن شهد بدرًا (٢) .

ولما أصبح العلاء قسّم الفيء ونقل أهل البلاء ثم اتجه إلى مدينة هجر وطوقها بالحصار ولما طال على المشركين أمد الحصار طلبوا من العلاء أن يصالحهم وتم الصلح على أن يكون للمسلمين ثلث الأموال التي في داخل المدينة إضافة إلى ما يوجد خارجها من الأموال، وأفرز العلاء خمس الغنائم وأرسله إلى أبي بكر رضي الله عنه

(١) الطبري ، ج ٢ ، ص٢٦١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص٩٥ ، البلاذري .

وقسم الباقي على المسلمين فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين وكان المنذر قد تمكن من الفرار ودخول المشقر والاعتصام به إلى أن اضطرت المدينة تحت وطأة الحصار إلى إعلان الصلح مع العلاء الحضرمي على ثلث ما بها من المال.

وفي رواية أخرى أن المنذر الملقب بالغرور وقع أسيرًا في قبضة عفيف بن المنذر ولكنه أجاره بعد أن كلمته في ذلك الرباب بنت أمرئ القيس بن عدي[1] ، فقال : عفيف للعلاء إني قد أجرت الغرور ، حينئذٍ قال العلاء للغرور أنت غررت هؤلاء قال أيها الملك لست بالغرور ولكنى المغرور فقال العلاء : أسلم فأسلم وظل مقيمًا بهجر ، جرت هذه الأحداث في السنة الثانية عشرة من الهجرة ٦٣٣م حينئذٍ كتب العلاء بن الحضرمي للخليفة الصديق يبشره بما أفاء الله عليه من النصر وكان نص خطابه ،

أما بعد ،

(فإن الله تبارك وتعالى اسمه سلب عدونا عقولهم وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار فقتحمنا عليهم خندقهم فوجدناهم سكارى فقتلناهم إلا الشريد وقد قتل الله الحطم) . ويبدو أن يوم جواثا وما أسفر عنه من نصر للمسلمين قد ترك في نفوس أعداء الإسلام وبخاصة الأعاجم منهم مرارة عظيمة وجرح لم يندمل لوقت طويل فهذا ابن خرداذبه المعروف بشعوبيته يقول في مدح أحد الأعاجم :

ماضر أشناس لا يكون له يوم جواثا ويوم ذي قار

وكأنه بذلك يعلل بالعزاء والمواساة نفوس أبناء جنسه ومن على شاكلته من الشعوبيين ، كما كانت ردة بكر بن وائل عارًا ظلت تُعير به ردحًا من الزمن من ذلك قول وهب أحد بني ضبيعة بن عجل :

ألم تر أن الله يسبق خلقه فيخبث أقوام ويصفو معشرُ

لاحا الله أقوامًا أصيبوا بخنعة أصابهموا زيد الضلال ومعمر

وواصل العلاء زحفه إلى القطيف واجتاز البحر إلى جزيرة تاروت للاستيلاء على دارين ، وهناك دارت معركة حامية الوطيس حقق فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على المشركين حتى كادوا أن يفنوهم عن آخرهم ، فظفروا بغنائم كثيرة من الأموال

---

(١) تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وقد شهدت معه وقعة كربلاء وبعد استشهاده نقلت مع السبايا إلى دمشق وبعد سنة من ذلك الحادث توفيت بالمدينة .

والعتاد ، ثم ساروا إلى مدينة السابور واحتلوها عنوة واستولوا على مدينة الشعابة وقتلوا من بها من العجم ثم والوا زحفهم إلى مدينة الزارة (المعروفة بالرمادة في الوقت الحاضر) فحاصروها ، وكان مرزبانها (فيروز بن جشيش) الملقب بالمكعبر قد تحصن فيها مع أتباعه من مجوس هجر والقطيف (وامتنعت المدينة عن المسلمين لقوة تحصينها إلى أول خلافة عمر رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة من الهجرة ٦٣٤م) ، وطلب المرزبان المبارزة فتصدى له البراء بن مالك الأنصاري فتمكن من قتله وأخذ سلبه الذي بلغ أربعين ألفًا فخمسه عمر رضي الله عنه لكثرته وكان أول سلب خمس في الإسلام .

وخرج رجل من الزارة مستأمنًا لأهل بيت بها على أن يرشد المسلمين إلى العين التي يشرب منها أهل المدينة ، فقبل منه ذلك وعلى الفور قام العلاء بردم تلك العين فانقطع الماء عمن في الزارة فاضطروا للاستسلام وصالحوا العلاء على ثلث أموال المدينة من الذهب والفضة ، وجاء الأخنس العامري إلى العلاء وأخبره بأنهم لم يصالحوه على ذراريهم وقد رحلوهم إلى دارين ، وكانت تحيط بدارين مياه البحر بحيث لا يمكن الوصول إليها بالدواب إلا في وقت الجزر ، ولكن كراز النكري أرشد المسلمين إلى أسهل الطرق للوصول إلى تلك الجزيرة ، بعد أن رأى تردد العلاء في اقتحام مياه البحر حينئذٍ هزم المسلمون دارين على حين غرة فلم يشعر أهلها إلا بالتكبير فخرجوا وقاتلوهم بكل ضراوة وعنف فدارت الدائرة على المشركين ، واستولى المسلمون على أموالهم وساقوا في السبى نسائهم وذراريهم وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فأسلم ولما سُئل عن سبب إسلامه قال : ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها :

١ ـ فيض في الرمال ٢ ـ وتمهيد اثباج البحر

٣ ـ ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرًا (اللهم أنت الملك الرحمن الرحيم لا إله غيرك والبديع فليس قبلك شيء والدائم غير الغافل الحي الذي لا يموت خالق ما يُرى وما لا يُرى وكل يوم وأنت في شأن ، علمت كل شيء بغير تعلم)، فعلمت بأنهم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق .

وقال عفيف بن المنذر :

ألم تــر أن الله ذلل بحــره ... وأنــزل بالكفــار إحـدى الجـلائل

دعونـــا الذي شـــق البحـــار ... فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

وهكذا نجح المسلمون في دحر جموع المرتدين والمتمردين والقضاء على الرؤوس المدبرة للفتنة من أمثال الحطم وفيروز بن جشيش (المكعبر) كما لمعت في تلك المعارك أسماء منها إلى جانب الجارود العبدي عبد الله بن حذف وعفيف بن المنذر وعتيب بن المنذر التميمي والأخنس العامري والبراء بن مالك الأنصاري ، وثمامة بن أثال وقيس ابن عاصم .

وقد عادت البلاد إلى حظيرة الإسلام وتحقق النصر الذي وضعت فيه قبائل عبد القيس حجر الأساس بفضل إيمانها وثباتها على الدين الحق والدفاع عن حياضه والاستعانة بحاضرة الإسلام في إخماد لهيب الفتنة ورفع لواء الإسلام على هذه الربوع .

ولعل أهم الأسباب التي جعلت عبد القيس تتخذ هذا الموقف المشرف تكمن فيما يأتي :

١ ـ اسلامهم المبكر وأثر ذلك في تعميق الإيمان به وإدراك مزاياه ، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثا في البحرين (١) .

٢ ـ وجود الزعيم المؤهل لمعالجة الأزمات بالأسلوب المناسب القائم على الحكمة والحوار والمنطق السليم المؤيد بالحجج العلمية والأدلة العقلية وهذا ما فعله الجارود بن المعلى العبدي حين حاور القوم مستعيناً بما لديه من العلم بأحوال الرسل السابقين والأمم السالفة وما آل إليه أمرهم حتى اقتنعوا بأن الذي حصل لمحمد بن عبد الله ﷺ لا يخرج عن هذه القاعدة ولا يشذ عنها .

٣ ـ إن المكانة الكريمة التي كانت لعبد القيس في نفس الرسول ﷺ والمؤمنين بسبب سبقهم للإسلام ومواقفهم المشرفة لمؤازرة عمال الرسول قد ساعدت كثيرًا على إخراجهم من غمرة الطيش والفوضى الفكرية التي خيمت على البلاد في إثر تلقي نبأ وفاة الرسول وحيث لم تتوفر هذه المزايا لعشائر بكر بن وائل التي جاء إسلامها متأخرًا وغلب على معظم أفرادها طابع البداوة ولم تتمكن في ظل الإسلام من تكوين مكانة مماثلة لتلك التي لعبد القيس ، فقد ذهبت بدافع التنافس على الشرف والرياسة بين

---

(١) صحيح البخاري ، ص ١٦٠ ، في باب الجمعة في القرى والمدن .

العشيرتين تبحث عما يعوضها عن ذلك بأي ثمن. فوجدت في الفراغ السياسي والظروف العصيبة التي أعقبت وفاة الرسول ثم وفاة المنذر بعده بأيام قليلة فرصة مناسبة لتحقيق أحلامها فتصدرت حركة الردة عن الإسلام واستقطبت جميع العناصر الأخرى التي كان لكل منها من الدوافع والأسباب ما يحمله على مسايرتها والانخراط في تبعيتها على أن رغبة المسلمين منهم في عدم أداء الزكاة ورغبة من ظل منهم على ديانته السابقة في الامتناع عن دفع الجزية والخراج يعتبر القاسم المشترك بين جميع تلك العناصر المرتدة أو المتمردة ، حيث ظلت جاهزة للإنسياق وراء كل ناعق من الانتهازيين والذين فقدوا أمجادهم ومصالحهم ونفوذهم ومراكزهم في ظل عدالة الإسلام وتطبيق تعاليمه .

وفي ضوء هذا النجاح الباهر الذي أحرزه المسلمون بقيادة العلاء قرر هذا القائد على أن تظل عجلة الجهاد دائرة دون توقف فعزم على غزو فارس مما يلي بلاد البحرين ولم يدع له الحماس بهذه الفكرة مجالاً لإستصدار الإذن اللازم من الخليفة عمر في هذا الشأن ولعل من أسباب ذلك التسرع ما وجده في عبد القيس من إخلاص للإسلام ورغبة في مواصلة الجهاد من ناحية ، والدور الكبير الذي لعبته فارس في مؤازرة وتأييد حركة الردة في البحرين من ناحية أخرى ، هذا إلى جانب شعور العلاء بروح التنافس في الفتوحات الإسلامية مع سعد بن أبي وقاص وغيره من القواد البارزين ، ومهما يكن من شيء فقد انتدب العلاء عبد القيس للنهوض بهذه المهمة فأعد جيشًا كبيرًا من ثلاث فرق جعل على قيادتها ثلاثة من عبد القيس هم الجارود بن عمرو ، وهمام من سوار ، وخليد بن المنذر ، وعبروا البحر إلى إصطخر بقيادة عرفجة بن هرثمة البارقي ، فتصدى لهم الفرس بقيادة الهربذ وأحاطوا بهم من كل ناحية ، بعد أن أغرقوا سفنهم وسدوا عليهم جميع الطرق ، فعاش ذلك الجيش ظروفًا عصيبة تجلى فيها صدق الإيمان ، وقوة العزيمة ، والإخلاص في الدفاع عن حياض الإسلام ، فانبرى خليد بن المنذر يحث المسلمين على الثبات للقتال وصدق التوكل على الله وقال : (إن الله إذا قضى لأحد أمرًا جرت به المقادير حتى يصيبه فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

فأجابوه بالتأييد والموافقة (١) .

---

(١) تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٦٤ ، ط٢ ، عبد الرحمن آل ملا .

وبعد أن أدّوا صلاة الظهر تنادوا للجهاد والتحموا بالفرس في معركة ضارية كان خلالها همام بن سوار يحث الناس على القتال حتى خرّ شهيدًا في أرض المعركة فقام مقامه إبنه المنذر وطفق خليد ينادي في المسلمين : هلموا قاتلوا القوم فحمى وطيس المعركة وإنجاب القتال عن خسائر بالغة في الأرواح من الطرفين ، ورغب المسلمون في التخلص من ذلك المأزق الحرج بالتوجه نحو البصرة غير أن الفرس حالوا دونهم فلم يتمكنوا من التحرك والوصول إليها من ناحية البر ، فلم يجدوا بُدًا من الإقامة بمكانهم ، وبعثوا إلى عمر رضي الله عنه يطلبون منه النجدة والمدد ، فبادر رضي الله عنه بالكتابة لأمير البصرة عتبة بن غزوان يحثه على نجدتهم فجمع عتبة الناس ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ثم أعد جيشًا من اثنى عشر ألف رجلاً وجعل على قيادته أبي رهم أحد بني مالك بن الحليس من بني عامر بن لؤى ، فسار أبو رهم بالجيش في محاذاة الساحل حتى التقى بخليد بن المنذر ومن معه ، وكان أهل إصطخر قد استصرخوا الفرس ، فأقبلوا عليهم من كل ناحية ودخل الطرفان في قتال شديد أسفر عن هزيمة المشركين. ثم رجع أبو رهم ومن معه إلى البصرة ، وعادت عبد القيس إلى بلادها ، وهذه المعركة رغم أنها لم تحقق الهدف المرجو بسبب مجيئها في غير الوقت المناسب من ناحية ، ولعدم تكافؤ القوتين في العدة والعتاد من ناحية أخرى ، فإن لها من النتائج الإيجابية ما يمكن تسجيله بسطور مشرقة في سجل الجهاد الإسلامي فقد كانت أول شوكة في الإسلام تدمي قدم التسلط الفارسي ، كما دللت على حرص مسلمي هذه البلاد ورغبتهم في الإسهام بكل ما يملكون من غالٍ ونفيس لرفع لواء الإسلام عاليًا على البلدان التي لم تحظ بعد بالتفيؤ بظلاله ، كما استخلص المسلمون منها كثير من العبر والدروس التي أفادتهم في معاركهم التالية مع الفرس وغيرهم من الأمم المماثلة ، ولكي تظل ذكرى خالدة في أذهان المسلمين فقد أطلقوا على المكان الذي جرت فيه اسم أحد شهداء عبد القيس فهي لا تزال تعرف حتى اليوم (بعقبة الجارود) وقد كان اسمها قبل ذلك عقبة الطاووس .

وتعتبر هذه المعركة نقطة البداية في الحرب الإسلامية التحريرية للأراضي الفارسية ، يؤكد ذلك ما جاء في المعجم لياقوت [١] حيث يقول : أما فتح فارس فكان بدؤه أن العلاء بن الحضرمي وجه عرفجة بن هرثمة في البحر فعبر إلى أرض فارس ففتح جزيرة مما يلي فارس .

(١) أنظر ، مجلة العرب ، جماديان ، سنة ١٣٩٩هـ ، ص٨٨٠ .

ولم يركن سكان البحرين بعد العودة إلى بلادهم للراحة والدعة بل انخرط كثير منهم في الجيوش الإسلامية وشاركوا في مختلف المعارك طيلة أيام الخلفاء الثلاثة عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، كما انعكست على سكان البحرين آثار الخلافات التي سادت المجتمع الإسلامي بعد قتل الخليفة عثمان وما نجم عن ذلك من أحداث ، فتقاسمت أطراف النزاع ولاء عبد القيس ، وإن بدا أن علي بن أبي طالب قد استأثر بالحظ الأكبر في هذا الولاء ، فقد قاتل إلى جانبه من أهل البحرين في معركة الجمل وحدها زهاء أربعة آلاف مقاتل يقودهم عمرو بن المرجوم وهو ابن أحد أشراف عبد القيس .

كما مال إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ، من زعماء عبد القيس صحار بن عياش العبدي وقد توفى في البصرة .

ولا ريب أن بصمات تلك الأحداث على سكان شرق الجزيرة العربية قد فتحت الطريق أمام الحركات الفكرية والسياسية التي ظهرت فيما بعد على اختلاف اتجاهاتها كما سنرى ذلك في الفصول القادمة ، على أن دور البحرين في هذه المرحلة لم يقتصر على النشاط العسكري في الفتوحات ومعالجة الأحداث القائمة آنذاك ، بل عادت إلى استئناف نشاطها في تحسين الأوضاع المادية للمسلمين وتوفير الأموال اللازمة لتجهيز جيوش الفتح بالمؤن والمعدات وذلك عن طريق المبالغ المالية الكبيرة التي كانت ترسلها البحرين إلى مركز الخلافة ، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يقدم على عمر من البحرين بخمسمائة ألف درهم فينال ذلك الخبر من عمر موضع الدهشة والاستغراب (١) .

وبعد صلاة الصبح يحدث عمر المسلمين فيقول : (أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وإن شئتم عددنا لكم عداً) ، وكان ذلك سببًا في وضع عمر لديوان بيت المال نزولاً على اقتراح أحد الحاضرين لهذه الحادثة .

ومن هنا يمكن القول أن البحرين كانت تمثل أهم الركائز الاقتصادية التي كانت تعتمد عليها الدولة الإسلامية في أيام الرسول والخلافة الراشدة حتى تم للمسلمين فتوح الأقاليم من خارج جزيرة العرب .

---

(١) تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٦٧ ، ط٢ .

ومع اشتداد ساعد الإسلام في هذه البلاد أخذت أعداد العناصر التي لا تدين به في التناقص بصورة مطردة إما بإنضواء بعض تلك العناصر تحت خيمة الإسلام ، وإما بنزوح البعض الآخر إلى خارج البلاد .

كما نشأ في رحاب الإسلام جيل جديد رضع من لُبانه واقتات على مبادئه فكان الإخلاص له والحماس في الدفاع عنه جزءًا من المقومات الشخصية لذلك الجيل ، ومن نماذج هؤلاء ما جاء في المصادر من أن غلمانًا بالبحرين كانوا يلعبون بالصوالجة وكان يجلس على مقربة منهم أحد الأساقفة فوقعت الكرة على صدره فأخذها فلما طلبوها منه أبى أن يردها عليهم فقال له أحدهم : سألتك بحق محمد ﷺ ألا رددتها علينا فأبى الأسقف وشتم الرسول ﷺ فنهال الغلمان عليه ضرباً بالصوالج حتى مات ورفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه ، يقول الراوي :

(فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف ، وقال عمر : الآن عز الإسلام ، إن أطفالاً صغارًا شتم نبيهم فغضبوا له ، وانتصروا)[١] .

ولعل فيما تقدم بيانًا كافيًا للدور الكبير الذي لعبته البحرين في شد عُضد الإسلام ونشر تعاليمه وصنع أحداثه منذ تفيأت بظلاله في السنوات الأولى لإشراق شمسه من مهابط الوحي .

* * *

---

(١) المستظرف ، ج٢ ، ص٥٠٧ ، ٥٠٨ .

ثانيًا : الإسلام في عُمان :

كانت عشائر الأزد وبعض العشائر العربية الأخرى قد نجحت في الاستقرار بعُمان وإزاحة الفرس عن معظم الأراضي العمانية فور هجرتها من اليمن على إثر إنهيار سد مأرب .

وقد قاد طلائع تلك الهجرات مالك بن فهم ، فقد جاء عن العوتبي [١] قوله : أول من لحق بعمان من الأزد مالك بن فهم بن حاتم وسار مالك حتى دخل عمان بعسكر جم من الخيل والعُدة والعدد فوجد بها الفرس ، فاعتزل مالك بمن معه إلى جانب قلهات من شط عمان ليكون ذلك أمنع له ، في حين ظل الفرس يسيطرون على الساحل وإلى ذلك يشير العوتبي حيث يقول : وكانت الفرس في السواحل وشطوط البحر والأزد ملوكًا في البادية والجبال وأطراف عمان وكل الأمور منوطة بهم [٢] .

وقد اتخذوا من توأم مركزًا لهم ومنفذها إلى البحر ميناء دُبي على حين تتمركز الحامية العسكرية الفارسية على الساحل بصحار أما المرزبان الفارسي فيتخذ من رستاق مقرًا لإقامته .

وقد شن مالك بن فهم عدة غارات ناجحة على الفرس أرغمتهم على مغادرة المناطق الداخلية إلى ساحل عُمان الذي ظل في قبضتهم ردحًا من الزمن .

ولكن مالك بن فهم غادر عمان إلى البحرين فقدمت إليها قبائل أزدية أخرى كالحدان والعتيق ، كما قدمت قبائل أخرى غير أزدية مثل بني سامة بن لؤى وهي من القبائل العدنانية التي غدت حليفة للأزد بعمان [٣] .

كما هاجرت إليها فيما بعد بطون من عبد القيس وبني جُرم من قضاعة. ولكن الغلبة ظلت للأزد .

وبهذا الصدد يقول البلاذري : وكان الأغلبيون على عمان الأزد .

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص٧٤ ، نقلا عن مخطوطة أنساب العرب للعوتبي .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص٧٥ .

وقد انتشرت في هذه القبائل الديانات السائدة في ذلك العصر كالنصرانية والوثنية أما المجوسية فقد ظلت قاصرة على الجاليات الفارسية المتواجدة هناك .

ولما بزغ فجر الإسلام كانت عمان من أسبق المناطق التي نفذت أشعته إليها ، فقد تفيأت بظلال الإسلام بعد فتح مكة مباشرة دون قتال. وذلك أن رسول الله ﷺ أوفد إلى حاكميها آنذاك «عبد وجيفر» إبني جلندي من بني المستكبر كلا من أبا زيد الأنصاري أحد الخزرج وعمرو بن العاص السهمي بكتاب منه يدعوهما فيه إلى الإسلام .

وقال : إن أجابا القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة ، وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن (١) .

وكان عبد وجيفر في صحار حين وردت عليهما دعوة الرسول ﷺ فرحبا بالدعوة وأسلما على الفور ، فبعث عمرو إلى الرسول بذلك حيث أشار إلى تعاونهما معه وتسهيل مهمته وتمكينه من ممارسة صلاحياته. وبهذا الصدد يقول عمرو بن العاص : فأجاب للإسلام هو وأخوه جميعًا وصدقا بالنبي ﷺ وخليّا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عونًا على من خالفني فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددناها إلى فقرائهم (٢) .

ولعل سبق جارتهم البحرين للدخول في الإسلام وما توفر للعمانيين من معلومات كافية عن مزاياه من أهم الدوافع التي دفعتهم للمبادرة بإعتناقه والسير في ركابه دون تردد ، كما أن الإسلام على ما يرى الدكتور فاروق عمر (٣) سيهيئ لعمان فرصة فريدة وهي التخلص نهائيًا من النفوذ الساساني المجوسي الأجنبي وتحرير سواحل عمان من سيطرتهم. وكذلك إمتلاك الموانئ والسهول الساحلية التي كان أحسنها بيد المرازبة ، والاستفادة من موارد التجارة البحرية بدل العمل كملاحين لسفن الفرس .

---

(١) فتوح البلدان ، ص٧٦ ، البلاذري .

(٢) تاريخ الخليج العربي ، ص٨٥ ، نقلا عن الطبقات لابن سعد ، ج٢ ، ص٢٧ .

(٣) تاريخ الخليج العربي ، ص٨٤ ، فاروق عمر .

ومن هنا يمكن استبعاد مزاعم كيتاني القائلة : إن ضعف ملكي عمان تجاه القبائل المتمردة ضد سلطتهم دعتهم إلى المبادرة وطلب المعونة من الدولة الإسلامية الفتية ، ومن ثم اعتناق الإسلام .

ونظيره إدعاء أنيور أن عمان فُتحت بواسطة جيش قاده إليها عمرو بن العاص. وفي رواية لابن سعد أن أزد عمان أرسلت وفودًا إلى الرسول ﷺ قبل ذلك ، ففي سنة ٥ هجرية ذهب وفد إلى المدينة ليتحرى عن الإسلام وليعلن بعد ذلك إسلامه [(١)]. وبعد أن أمضى عمرو بن العاص ثلاث سنوات في عمان عاد إلى المدينة سنة ١١ هجرية بعد وفاة الرسول ﷺ ، وصحبه وفد عماني على رأسه عبد ابن الجلندي ملك عمان ، في أثناء مسيرهم إلى المدينة اجتمع في البحرين عمرو بن العاص مع المنذر بن ساوي وكان على فراش الموت ، وتركز الحوار بينهما على مناقشة بعض القضايا الفقهية [(٢)] ، وقد ظل عبد وجيفر يمارسان مهامهما في الحكم إبان الخلافة الراشدة .

وحين امتنع المجوس عن إعتناق الإسلام وحاولوا النيل منه بالتحالف مع القبائل المعادية له كقبيلة العتيق قام المسلمون في عمان تحت قيادة حاكميهما بشن هجوم مكثف على الفرس في رستاق وطوقوا بالحصار الحامية الساسانية في صحار حتى أجبروهم على طلب النزوح عن عمان وضمنوا لهم ولعائلاتهم الخروج بسلام شريطة أن لا يفكروا في العودة إليها مرة أخرى .

أما من تبقى منهم في البلاد وظل على مجوسيته فقد ألزموه بدفع الجزية وفقًا للتعاليم الإسلامية .

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص٨٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ، ص٢٥٤ ، ابن جرير الطبري .

حـــركة الردة في عمـــان :

حين هبت زوبعة الردة على معظم أقاليم الجزيرة العربية في إثر إنتقال الرسول محمد ﷺ ، إلى الرفيق الأعلى ظلت معظم القبائل العمانية على إسلامها بإستثناء قبيلة العتيق الأزدية التي إدعى زعيمها لقيط بن مالك النبوة وإرتد بها عن الإسلام حيث إنحازت إلى منطقة دُبي الواقعة على مقربة من الفجيرة .

ولكن المسلمين في عمان وفي مقدمتهم عبد وجيفر تمكنوا بسرعة من قمع المرتدين وإخماد جذوة الإرتداد ، وكانت المدينة قد أرسلت لمساعدتهم في ذلك جيشًا بقيادة حذيفة بن محصن البارقي وعكرمة وعرفجة وجبير وعبيد ، وقد استعلاهم لقيط. بيد أن المدينة عززت ذلك الجيش بمدد من بني عبد القيس وبني ناجية يقودهم صيحان بن صوجان والحارث بن راشد فحاقت الهزيمة بالمرتدين وقتل منهم نحو عشرة آلاف ، وبعد القضاء على حركة الردة مكث حذيفة هناك لتسوية بعض القضايا والمساعدة على نشر حياة الأمن والاستقرار (١) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى إنكار حدوث الردة في عمان أصلا ويعدون حركة لقيط السالفة الذكر في إطار حركات التمرد التي تكون بواعثها عادة إما السعي وراء تحقيق أطماع وغايات خاصة ، أو نزعات عصبية ، أو منازعات قبلية إلى غير ذلك من البواعث والأسباب الخاصة والعامة (٢) .

ومما يعزز هذا الرأي أن وفدًا من عمان سار إلى المدينة في أعقاب تلك الحادثة وأكد للصديق بأنهم لم يخرجوا عن الطاعة ولم يمتنعوا عن دفع الزكاة . وكان من الأفضل لو أن حذيفة البارقي حاول تسوية القضية مع المتمردين بالتفاوض ومعرفة طبيعة ذلك التمرد وإزالة أسبابه قبل اللجوء إلى استعمال القوة في إنهاء تلك المشكلة .

وقد توفى الصديق رضي الله عنه ولم يزل وفد عمان مقيمًا في المدينة فعمل الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه إلى تصفية تلك القضية فرد السبي وشمل بالعفو جميع الثائبين إلى الرشد من المتمردين .

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص٨٥ ، فاروق عمر .

(٢) تحفة الأعيان ، ج١ ، ص٥٧ ، السالمي .

ومهما يكن نوع ما حدث فإن من الممكن على ما يرى الدكتور فاورق عمر [١] أن تتطور حركة لقيط إلي ردة لولا تدخل حكومة المدينة وقمع حذيفة البارقي للفتنة ، وحين توفى عبد وجيفر انتقلت مقاليد السلطة في عمان إلى يد عباد بن عبد الجلندي إلى جانب من توفدهم المدينة إلى عمان من العمال الذين تكون لهم في الغالب مهمة الإشراف على الشئون الدينية وجمع الخراج وإرساله إلى خزانة الدولة الناشئة في المدينة المنورة .

وقد أسهمت عمان في نشر الإسلام وتعزيز حركة الجهاد ، وتحقيق الفتوحات العظمى من خلال إنتظام القبائل العمانية في ركب الجيوش الإسلامية العاملة في العراق وفارس وغيرهما من الأقاليم الشرقية .

ومن ذلك أن عثمان بن أبي العاص عامل المدينة على البحرين وعمان خرج بعد الإذن من الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه إلى الجهاد بحرًا يرافقه ثلاثة آلاف مجاهد من عشائر الأزد وعبد القيس وغيرهما ، فتحركوا من جلفار (رأس الخيمة) إلى جزيرة كاوان فحاصروها حتى أرغموا القائد الفارسي بها على الاستسلام دون قيد أو شرط ، وقد أزعجت أخبار هذه الوقعة يزدجرد ملك الفرس ، فحث واليه على كرمان بإتخاذ الأُهبة لقتال المسلمين ، فإنصاع للأمر وسيّر جيشًا كبيرًا إلتحم بعساكر المسلمين في جزيرة القسم ، وبعد معركة حامية الوطيس تمكن المسلمون من دحر الفرس فأضعفوا بذلك مقاومتهم للجيوش الإسلامية الزاحفة عليهم من جهة العراق .

بيد أن دور العمانيين في نشر الإسلام لم يقتصر على المشاركة في تلك الفتوحات مع غيرهم بل أن لهم في ذلك نشاطًا خاصًا ظلوا يمارسونه من خلال الرحلات الملاحية والتجارية التي برعوا فيها واشتهروا بها .

على أن إسهامهم في القضاء على النفوذ البرتغالي وتصفية آخر معاقله في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي يعتبر بحق تتويجًا لجهودهم المثمرة في هذا السبيل [٢] .

* * *

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص٨٥ ، فاروق عمر .

(٢) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ص٢١٢ .

القسم الثالث

حَرَكَة الخوَارِجْ

أولاً : نشــأة الخــوارج :

تمثل حركة الخوارج إحدى أهم الحركات الفكرية والسياسية المبكرة في تاريخ الإسلام ، وقد ظهرت على خارطة العمل السياسي في إثر قبول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) لمبدأ التحكيم في معركة (صفين) ، الدائرة بينه وبين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه الذي أخذ على عاتقه مهمة المطالبة بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والامتناع عن الدخول في البيعة لعلي بالخلافة بسبب إيواءه لتلك الجماعة ، وتحدثنا المصادر أن عساكر معاوية في تلك المعركة حين أحسوا أن رياح النصر لا تهب في صالحهم ، رفعوا المصاحف على أسنة الرماح منادين بالكف عن القتال ، والنزول على حكم الله بالقضية برمتها ، وقد وافق علي على ذلك الطرح نزولاً على رغبة الغالبية العظمى من أتباعه ، إلا أن بعض أولئك الأتباع رفضوا مبدأ التحكيم ، واتهموا عليًا بالكفر لقبوله ذلك ، وطالبوه بالعدول عنه ، والتوبة منه ، وحين أصر على موقفه ، ولم يرضخ لمطالبهم إنشقوا عنه ، وأعلنوا براءتهم منه ، وخرجوا من عسكره ، واتجهوا إلى قرية قرب الكوفة تدعى (حروراء) فنزلوا بها ، وقد عُرفوا باسم الخوارج من ذلك اليوم ، وقد قبلوا بتلك التسمية لا من منطلق عموم مدلول الكلمة ، بل من مدلول قوله تعالى : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ (١) فالخروج في نظرهم يعني خروج الرجل من بيته مجاهدًا ، من هنا أصبحت كلمة الخوارج مصطلحًا أكاديميًا لهذه الجماعة دون غيرها ، وإن كان الخروج على جماعة المسلمين أو السلطة الشرعية ظاهرة قائمة في أي زمان ومكان ، بل إن عهد الرسول الكريم محمد ﷺ لم يصف من وجود أفراد مثلوا هذه الظاهرة (٢) .

فقد جاء من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنه قال : بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهبة أديم مقروز لم تُحصل من ترابها قال : فقسمها بين أربعة نفر . بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة بن علافة ، وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ! يأتيني

---

(١) سورة النساء ، آية رقم ١٠٠ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، ج١، ص١١٤ .

خبر السماء صباح ومساء) قال : فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار. فقال : يا رسول الله إتقي الله ، فقال : ويلك ، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ، قال : ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ، فقال : لا لعله أن يكون يصلي ، قال خالد : وكم مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم ، قال : ثم نظر إليه وهو مقف ، وقال إنه يخرج من ضأضأي (١) هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال : أظنه قال : لإن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود (٢) .

وقد جاءت الإشارة في حديث آخر إلى أن الرجل الذي جهر بذلك القول أمام الرسول ﷺ يُدعى (ذو الخويصرة) أو عبد الله بن ذي الخويصرة من تميم (٣) .

وتذكر المصادر أن ذا الخويصرة هذا هو حرقوس بن زهير السعدي ، الذي ذكره الطبري في الصحابة ، وذكر أنه كان له في العراق أثر ، وأنه هو الذي فتح سوق الأهواز ثم كان مع علي في حروبه .

ثم صار مع الخوارج فقُتل معهم ، وزعم بعضهم أنه ذو الثدية ويذهب ابن الجوزي بأنه أول خارجي خرج في الإسلام .

ومهما يكن من شيء فإن حركة الخوارج تتمثل فعليًا في الجماعة السالفة الذكر ، حيث فارقوا الجماعة واتجهوا إلى حروراء وشبهوا انتقالهم إليها بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وأعلنوا أن الأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل وجعلوا عبد الله بن الكواء اليشكري أميرًا للصلاة ، وعينوا لقيادتهم في القتال شبثة بن ربعي التميمي ، وقد بذل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كل ما في وسعه لإقناعهم بالعدول عن موقفهم العدائي هذا ، والانضواء تحت رايته فأوفد إليهم عبد الله بن عباس رضي

---

(١) ضأضأي : جنس .

(٢) الخوارج والشيعة ، ص٥٢ ، ٥٣ ، د/ جلي ، نقلا عن :

١ ـ صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، ج٣ ، ص١١١ . ٢ ـ صحيح البخاري ، ج٤ ، ص١٠٨ .

(٣) صحيح البخاري ، ج٨ ، ص٥٢ ، ٥٣ ، وأنظر أيضًا : مسلم ، ج٣ ، ص١١٠ .

الله عنهما ، في محاولة لتسوية الخلاف معهم ، ولما سألهم ابن عباس عن الأسباب الكامنة وراء خروجهم على أمير المؤمنين. قالوا : بأنهم نقموا عليه ثلاثة أمور :

١ ـ أنه بقبوله التحكيم قد حكم الرجال في أمر الله ، وقد قال تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ ، وكان ينبغي عليه الاستمرار في القتال إلى أن يظهر حكم الله .

٢ ـ أنه قاتل أصحاب الجمل وقتلهم ، ومع ذلك لم يسبهم ونهى عن قتل مدبرهم ، والإجهاز على جريحهم ، وغنيمة أموالهم وذراريهم ، وليس في كتاب الله على حد قولهم إلا مؤمن أو كافر. فإن كان هؤلاء مؤمنين لم يحل قتالهم وإن كانوا كفارًا أبيحت دماؤهم وأموالهم (١) .

٣ ـ إن علي بقبوله التحكيم قد محا نفسه عن إمرة المؤمنين (٢) ولكن ابن عباس دحض جميع مزاعم الخوارج هذه حيث أوضح بالأدلة الناصعة وجه الخطأ فيها بقوله : إن الله أوجب التحكيم في أمور هي أهون من حقن دماء المسلمين كحالة الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما ، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالي : ﴿ إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما ﴾ .

وقد أمر أن يحكّم في الصيد بجزاء في قوله تعالى : ﴿ مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدلٍ منكم ﴾ .

فمن أنكر التحكيم على وجه الإطلاق فقد خالف كتاب الله ، وأوضح لهم أن التحكيم في شأن أميرين من أجل حقن دماء المسلمين أولى من التحكيم فيما سبق ، وفيما يتصل بالمسألة الثانية فقد ذكر لهم ابن عباس أن في القوم المقاتلين بمعركة الجمل أم المؤمنين (عائشة) فهل يقبلون بسبى أمهم أم يجحدون أمومتها لهم ؟. ثم قال : فوالله لإن قلتم ليست بأمنا خرجتم من الإسلام ، وإن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها كان خروكم من الإسلام أشد فأنتم بين ضلالتين ، لقول الله تعالى : ﴿ النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم ، وازواجه امهاتهم ﴾ .

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٥٥ ، د/ أحمد محمد جلي .

(٢) يذكر أن عليًا عندما كتب بينه وبين معاوية كتاب نتائج التحكيم جاء فيه هذا ما قضى عليه أمير المؤمنين علي ومعاوية، فامتنع أهل الشام عن ذلك فقالوا إثبتوا إسمه واسم أبيه فوافق علي على ذلك واعترض عليه الخوارج ، البداية والنهاية ، ج٧ ، ص٢٧٧ ، لابن كثير .

وفيما يتعلق باعتراضهم على محو علي لإسمه من كتاب التحكيم بيّن لهم ابن عباس أن هذا التصرف لا ينطوي على أي مأخذ يؤخذ على علي ، لأن الرسول الكريم قد فعل مثل ذلك في كتاب صُلح الحديبية حيث قبل الإكتفاء بكتابة اسمه واسم أبيه دون الإشارة إلى صفة النبوة وهي منزلة أفضل من منزلة إمارة المؤمنين نزولاً على رغبة قريش حين طلبوا منه ذلك .

فوالله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه .

وقد أسفرت تلك المناظرة عن اقتناع زهاء أربعة آلاف من الخوارج بهذه الحجج الدامغة فعادت إلى معسكر علي يتقدمها عبد الله بن كواء ، في حين ظل أربعة آلاف أخرى منهم ثابتة على موقفها ، فأرسل إليهم علي قائلاً : كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دما حرامًا ، ولا تقطعوا سبيلاً ، ولا تظلموا أحدًا ، فإن فعلتم نبذت إليكم الحرب ، فقال عبد الله بن شداد : فوالله ما قاتلهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم الحرام .

ويذكر المبرد أن عليًّا ناظر الخوارج بعد مناظرة ابن عباس لهم وقد أورد نصًا غير بعيد من النص السابق الذكر (١) ويذكر أنه لما عاد ابن عباس إلى علي سأله عن الخوارج إن كانوا منافقين فقال ابن عباس : والله ما سيماهم سيماء المنافقين إن بين أعينهم لأثر السجود وهو يتأولون القرآن (٢) .

وحاول علي أن يجرب بنفسه مهمة اقناعهم فخرج إليهم ووعظهم ، وذكرهم بموافقتهم السابقة على التحكيم ، وقبول نتائجه رغم عدم رضاه عن ذلك فإعترفوا قائلين : إنهم بذلك قد أذنبوا وقد تابوا ، وطلبوا منه التوبة هو الآخر .

وكان الخوارج قبل أن يحين موعد التحكيم قد بعثوا إلى علي جماعة منهم تعرض عليه العدول عن التحكيم والعودة إلى القتال بعد أن يعلن توبته عن خطيئته فلم يوافق على ذلك الطلب متمسكًا بالعهد والميثاق الذي تم بهذا الصدد استجابة لقول الله تعالى ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ ، فازداد الخوارج إصرارًا على موقفهم المناهض لعلي وبايعوا رجلاً منهم هو

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٥٧ ، ٥٨ ، د/ أحمد جلي ، (الكامل ، ج٢ ، ص١٣٥ ، ١٣٦ ، المبرد) .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ج٢ ، ص٣١٠ ، ابن أبي الحديد .

عبد الله بن وهب الراسبي بالإمارة عليهم ، وذلك في العاشر من شهر شوال سنة ٣٧هـ ونزلوا النهروان وكتبوا إلى جماعتهم في الحضور إليهم هناك ومن ثم أخذوا يقومون ببعض الممارسات المخلة بالأمن والاستقرار ، ومن أكثر تلك الممارسات سوءًا ، إغتيال عبد الله بن خباب بن الأرت ، وبقر بطن زوجته الحبلى وقتلها مع جنينها ، وقتل بعض النساء الأخريات وذلك أن إحدى الجماعات الخارجة التقت في الطريق بعبد الله سالف الذكر فقالت له هل سمعت من أبيك حديثًا عن رسول الله ﷺ تحدثناه ؟ قال : نعم سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي ، فإذا أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول .

ثم سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر فذكرهما بكل خير ، وسألوه عن عثمان في أول خلافته وآخرها ، فجعله محقًا في أولها وآخرها ، وعن علي قبل التحكيم وبعده فقال إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيًا على دينه ، وأنفذ بصيرة ، فأخذوا عليه بذلك أنه لا يتبع الهدى وقدموه إلى شفير النهر فذبحوه وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها وكانت حُبلى. ثم قتلوا بعض النسوة وأخذوا يعترضون الناس ، ويقتلون الأطفال (١) ، فبعث إليهم علي الحارث بن مرة العبدي ليستطلع خبرهم فقتلوه أيضًا ، عند ذلك لم يجد علي مندوحة من قتالهم نزولا على رغبة أتباعه الذين أصروا على قتال الخوارج ، والفراغ من القضاء عليهم قبل المسير إلى الشام لقتال معاوية .

ولما التقى علي بالخوارج سألهم تسليم قتلة عبد الله بن الخباب للقصاص منهم . فقالوا : كلنا قتلناه .

فلم يجد علي بُدًا من قتالهم بإعتبارهم الفئة التي أشار الرسول الكريم في أحاديثه إلى خروجها حيث يقول :

سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان ، سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة (٢) .

---

(١) أنظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج٥ ، ص١١٠ ، تلبيس أبليس ، ص٩٣ ، ابن الجوزي .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٨ ، ص٥١ ، ٥٢ ، عن كتاب الخوارج والشيعة ، ص٥٣ ، د/جلي .

وقال : هم هؤلاء القوم سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس ، فجرت في إثر ذلك معركة النهروان التي أسفرت عن قتل معظم الخوارج ، حيث لم ينج منهم إلا القليل. وظلت حركتهم تعمل في الخفاء ، حتى تمكنوا من إغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم ، وعندما استولى الأمويون على السلطة لم يدخروا وسعًا في تعقب حركة الخوارج وتصفية جيوبها ، ولكن دون جدوى ، وقد كان لاستخلاف يزيد وحمل الناس على مبايعته وما أقدم عليه بعد ذلك من أعمال شنيعة في كربلاء والمدينة المنورة وغيرها ، أبعد الأثر في تجدد الفتنة التي اشتد سعيرها في أعقاب موت يزيد ، وظهور الانقسامات في صفوف المسلمين .

الحركة الخارجية في العصر الأموي :

أخذت الخوارج تتوافد على البصرة ، وتعمل بنشاط فائق على تنظيم حركة المعارضة للحكم الأموي ، تحت قيادة أبي بلال مرداس بن عمر التميمي (١) .

ولم يكن عامل الأمويين عبيد الله بن زياد غافلاً عن ذلك النشاط فبذل قصارى جهده في مضايقة عناصره في البصرة ، ومراقبة حركاتهم فلم يجد أبو بلال مندوحة من الدخول مع الأمويين في الصراع المباشر فخرج من البصرة على رأس أربعين رجلاً من أتباعه ، وقصد قرية (أسك) في الأحواز ، وأعلن الثورة على الأمويين ، فبعث إليهم زياد بقوة عسكرية اشتبكت معهم في قتال شديد أسفر عن قتل أبي بلال على يد عباد ابن الأخضر وذلك في سنة ٦١هـ .

وفي إثر معركة الحرة المعروفة رأى المحكمة الأولى من الخوارج وجوب الدفاع عن مكة كي لا تُمنى بمثل ما منيت به المدينة من الاستباحة والتدمير ، فاتجه عدد من الخوارج فيهم نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عامر الحنفي ، وعبد الله بن أباض وآخرون إلى مكة وانضموا إلى عبد الله بن الزبير للدفاع عنها ولكن التباين الكبير في المصالح والأهداف بين الطرفين حال دون قيام علاقة وثيقة بينهما ، فاختلف الخوارج مع ابن الزبير على مسألة الخلافة ، وانفضوا عنه ، فاتجهت طائفة منهم إلى اليمامة بزعامة

(١) أحد زعماء الخوارج إتصف بالتقوى والزهد وحسن السيرة، لم يدعو إلى الهجرة، ولم يخف أمنًا ، ولا يستحل استعراضًا، ولم يغنم أموالاً ولم يسب ذرية ، ولم ينزل معارضيه من المسلمين منزلة أهل الأوثان وكان يقبل أخذ العطاء من السلطان الجائر ، ولا يقاتل إلا من قاتله ، ويعتبر من أبرز أئمة المحكمة الأولى ، وجميع فرق الخوارج بعد إنقسامها تعده إمامًا من أئمتها ، بيد أن الأباضية أكثر تلك الفرق تأثرًا بسيرته .

أبي طالوت من بني زمان بن مالك بن بكر بن وائل ، وعبد الله بن ثور أبي فديك بن قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسود الحنفي ، وسالم بن مطر مولى بن زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل .

وفي سنة (٦٥هـ) خمس وستين هجرية (٦٨٤م) ، اختار خوارج اليمامة أبا طالوت رئيسًا عليهم بصورة مؤقتة ، فاستولى أبو طالوت على الخضارم في اليمامة ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد إقتطع أراضي في جوها المعروف بجو الخضارم ، وجلب إليها من مماليكه أربعة آلاف لاستصلاحها .

في حين كانت طائفة أخرى من الخوارج قد اتجهت بعد مفارقة ابن الزبير إلى البصرة ، وشرعت في تكثيف نشاطها المعارض لبني أمية والزبيريين على السواء.

وهناك زج في السجن من وجائهم زهاء مائة وأربعين رجلاً ثم أفرج عنهم بصورة جماعية ، فعقدوا العزم على مغادرة البصرة تحت إشراف جماعة من وجهائهم بينهم نافع بن الأزرق ، وعبد الله بن أباض ، وفي الليلة التي قرروا الخروج فيها لفت إنتباه ابن أباض دوى القراء ، ورنين المؤذنين ، وحنين المسبحين ، فقال لأصحابه : أعن هؤلاء أخرج معهم! فرجع وكتم أمره وتوارى عن الأنظار .

كما تخلف أيضًا عن الخروج معهم عبد الله بن صفار ، ولكن نافع بن الأزرق كتب إلى الذين تخلفوا عنه في البصرة يدعوهم إلى وجوب اللحاق به ، ولكن خطابه إنطوى على كثير من الآراء المتشددة ، وكان نص ذلك الكتاب كما جاء عن المبرد كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد :

إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة والدين واحد ، ففيما المقام بين أنصار الكفر ؟ .

ترون الظلام ليلاً ونهارًا ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ ، ولم يجعل لكم في التخلف عذرًا ، في حال من الأحوال .

ولم يقتنع عبد الله بن أباض بهذه الآراء فعلق عليها قائلاً : قاتله الله أي رأي رأى !. صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين ، وكانت سيرته كسيرة النبي ﷺ

في المشركين ، ولكنه كذب وكذبنا فيما يقول ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام ، وهم بُراء من الشرك ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام .

فأفضى ذلك إلى ظهور إنقسامات سياسية وفكرية خطيرة كان لها الأثر البالغ في سلوك الخوارج من حيث التطرف والاعتدال ، فقد تبرأ من نافع من الأزرق عبد الله بن أباض وتبرأ عبد الله بن صفار من ابن أباض ، وابن الأزرق معًا. متهمًا الأول بالتقصير والثاني بالغلو ، وجاراه في ذلك أبو بيهس هيثم بن جابر الضبعي الذي ذهب إلى القول بجواز الإقامة بين المسلمين والزواج منهم وموارثتهم بإعتبارهم منافقين لأنهم يظهرون الإسلام وحكمهم عند الله حكم المشركين .

كما دفعت هذه الآراء المتشددة أيضًا نجدة بن عامر الحنفي إلى الاستياء من نافع ابن الأزرق وقال له : قد أحدثت شيئًا لم يعمله السلف من أهل النهروان ، وأهل القبلة ، فقال : هذه حجة قامت عليّ لم تقم عليهم. فلم ينصاعوا له وتبنى نجدة وأصحابه آراءً أقل تطرفًا منها. إن التقية جائزة لقوله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ ، ومنها أيضًا أن القعود جائز والجهاد إن أمكن أفضل . وإن رد الأمانات إلى أهلها واجب ، ولم يقر قتل الأطفال وإن الإقامة في دار الكفر محل لإقامة المسلمين حلال ، ولم يؤيد الامتحان ، وبعد بروز هذا الخلاف بين الطرفين توجه نجدة ومن معه إلى اليمامة وانضم إلى أبي طالوت في الخضارم ، وهناك بدأ يمارس نشاطه ، ومن هنا تكونت الفرق الخارجة التي كفّر بعضها البعض الآخر ، كالأزارقة ، والنجدية ، والأباضية ، وغيرها من الفرق متعددة الاتجاهات .

وبذلك أصبح نافع بن أزرق أول من أطلق شرارة الخلاف والانقسام في صفوف الخوارج على ما يرى الأشعري. حيث انقسموا في البداية إلى أربع فرق هي :

١ ـ الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق .

٢ ـ النجدية : أصحاب نجدة بن عامر الحنفي .

٣ ـ الأباضية : أصحاب عبد الله بن أباض .

٤ ـ الصفرية : أصحاب عبد الله بن صفار .

ومن هذه الأصناف الأربعة تشعبت فرق الخوارج (١) .

(١) مسائل الإمامة ، ص٦٨ ، أبو العباس .

وسنحاول إلقاء شيء من الضوء على نشاط الثلاث الفرق الأولى بالقدر الذي يمس المنطقة من ذلك النشاط، وذلك بعد استعراض المبادئ والأفكار المشتركة بين جميع الفرق .

ثانيًا : المبادئ العامة للخوارج :

لقد أسهم الحماس الديني ، والتعصب القبلي ، رغم ما بين هذين العنصرين من تناقض وتضاد في تشكيل المواقف السياسية للخوارج وصياغة الفكر الخارجي ، فمن الملاحظ أن مبادئ الخوارج قد تركزت على ثلاثة أمور هي :

مسألة الإمامة العامة في الإسلام ، وتكفيرهم لمخالفيهم ، واستباحة قتلهم وقتالهم ، والحكم على مرتكبي الكبائر كفرًا وإيمانًا وإن جميع المشاكل والآراء التي أثارها الخوارج تعود في الأساس إلى هذه المسائل ، وفيما يتصل بالإمامة ، رفع الخوارج في أول الأمر شعار لا حكم إلا لله ، والتفوا حوله وتحمسوا له ، وناضلوا في سبيل تحقيقه في المجتمع الإسلامي ، وقد اعتبروا شعارهم هذا في بداية الأمر تحللا من الإلتزام بأي شكل من أشكال السلطة العليا في الجماعة ، بل على كل فرد من أفراد هذه الجماعة أن ينفذ ويطبق بنفسه جميع ما يمليه عليه الإسلام من التعاليم والواجبات والحقوق ، ولكن سرعان ما تبين لهم استحالة تطبيق ذلك على أرض الواقع ، فلم يجدوا بُدًا من تأمير أحدهم ، وكان أول من أنيطت به هذه المهمة عبد الله بن وهب الراسبي (١) ، وقد ذهب النجدات من الخوارج إلى عدم الحاجة لإمام إذا أمكن للناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن هم رأوا أن ذلك التناصف لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز (٢) .

وقد اشترطوا في الشخص الذي يتولى إمارة المسلمين الكفاءة والقدرة على النهوض بأعباء الولاية دون أي اعتبار آخر وقالوا : إنما ينبغي أن يلي أمر المسلمين إذا كانوا سواءً في الفضل أبعدهم في الحرب وأفقههم في الدين ، وأشدهم إطلاعًا بما حمل (٣) .

وقد إلتزموا في اختيار أميرهم مبدأ الحرية والشورى ، وذهبوا إلى أن هذا الاختيار حق لعامة المسلمين ، وأن الخليفة يستمر في وظيفته ما قام بالعدل وأقام

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٦٢ ، د/ أحمد جلي . (٢) الملل والنحل ، ج١ ، ص١٢٤ ، الشهرستاني .

(٣) تاريخ الطبري ، ج٥ ، ص١٧٥ .

الشـرع ، وابتـعـد عن الخطأ والزيغ فإن حـاد وانحـرف ، وجب عـزله أو قـتله ، وقـد عارضوا بشدة حصـر الخلافة في آل البيت أو قصرها على قريش ، أو أن تتم الخلافة بالوصية أو التعيين ، كما قال الخوارج بأن منصب الخلافة حق متاح لأي مسلم كفء عربيًا كان أم أعجمي وبناء على ذلك اختاروا أميرًا لهم من غير قريش هو عبد الله بن وهب الراسبي كما سبق أن ذكرنا .

كما ولى خوارج اليمـامـة في بداية أمرهـم أبا طالوت ، وولى النجدات بعد خلعهم لنجدة ثابت التمـار ، وهو غير عربي ، ولكنهم قالوا : بعد ذلك لا يقوم بأمرنا إلا رجل من العرب ، واختـاروا بدلاً منه أميرًا لهم عربي وشاركهم ثابت نفسه في الاختيار ، وأما المبدأ الثاني للخوارج. وهو اعتبار مرتكب الكبيرة كافرًا ، فقد بنى الخوارج رأيهم فيه على قولهم : (إن العمل بأوامر الدين والانتهاء عما نهى عنه جزء من الإيمان ، ومن عطل الأوامـر ، وارتكب النواهي لا يكون مؤمنًا بل كـافرًا ، لأن الإيمان لا يتجـزأ ولا يتبعض) .

ولم يقف الخوارج عند هذا الحد بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنبًا واتخذوا ذلك مبدأ للتبرء والولاية فمن ارتكب خطأ تبرؤا منه واعتبروه كافرًا ، ومن اتبع رأيهم وسلم من الذنوب في زعـمـهم تولوه ، وعلى هذا الأساس تولوا أبا بكر وعمر وعثمان في سني خلافته الأولى وعلي قبل التحكيم وتبرأو من عثمان في سني خلافته الأخيرة لأنه في زعمهم غيرّ وبدّل ولم يسر على نهج أبي بكر وعمر وحكموا بكفره ، وتبرأوا من علي بعد قبوله التحكيم وحكموا عليه بالكفر أيضًا ، كما تبرأوا وكفروا كل من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وأبي موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية وحكام بني أمية. يقول الدكتور الجلي :

وقـد سيطرت فكرة التولي والبراءة هذه على تفكير الخوارج وكـانت نقطة الخـلاف الوحيدة بينهم وبين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، حينما ناقش أمراؤهم وأقروا بعدالته وأنه يختلف عمن سبقه حين رد المظالم وعدل بين الرعية ولكنهم أخذوا عليه عدم إعلانه البراءة من أهل بيته السابقين (١) ، ومن ثم لم يدخلوا في طاعته .

---

(١) الخـوارج والشيعـة (نقـلا عن مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٠٠ : ٢٠٢ ، المسعودي) ، وسيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٧٧ ، ٧٨ ، ابن الجوزي .

ويذهب الأباضية المعاصرون [1]، إلى أن البراءة من العاصي يقصد بها هجرانه وبغضه على معصيته مستندين في ذلك كما يقول الدكتور (الجلي) بفعل النبي ﷺ، في الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ... إلخ .

وأحاديث المحبة للمطيع والبغض للعاصي [2] .

والذي أدى بالخوارج إلى مثل هذه الآراء على ما يذكر (الجلي) هو سوء فهمهم للقرآن فهم لم يقصدوا معارضته ولكن فهموا منه ما لم يدل عليه فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقي ، فمن لم يكن برًا تقيًا فهو كافر مخلد في النار .

ثم قالوا : إن عثمان وعليًا ومن ولاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله .

وقد استشهد الخوارج على آرائهم تلك ببعض الآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ ، ولأن الفاسق على وجهه غبرة فلابد أن يكون من الكفرة [3] ، ومن الواضح أن الخوارج قد تمسكوا في الاستدلال في هذه الآيات على آرائهم بظواهرها ، دون أن يأخذوا في الاعتبار الآيات الأخرى التي لم تجرد مرتكبي الكبيرة من صفة الإيمان .

فالآيات التي أيد بها الخوارج آراءهم تصف حال المؤمنين والكفار في الآخرة ، فبينما تبيض وجوه المؤمنين ويعلوها البشر ، تسود وجوه الكفار وتعلوها الغبرة ، فليس المراد بها الحديث عن عصاة المؤمنين [4] .

ولم يتفق الخوارج في مسألة مرتكبي الكبيرة وغيرها من المسائل التي تعرضوا لها على حكم واحد ، بل إن الخلاف على تلك المسائل كان منشأ إنقسامهم على أنفسهم

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٦٤ ، د/ أحمد جلي .

(٢) المرجع السابق ، (نقلا عن : العقود الفضية ص٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠) .

(٣) العقود الفضية ، ص٢٨٨ ، سالم بن حمد بن سليمان بن حميد العماني .

(٤) الخوارج والشيعه ، ص٦٥ ، د/ أحمد محمد جلي .

أكثر من مرة ، وظهور فرق عدة كان القاسم المشترك بينها إنكار التحكيم ، وقولهم إن الإمامة لا تنحصر في قريش ، أما آرائهم فيما سوى الأمور السالفة الذكر فقد جاءت متباينة من فرقة إلي أخرى وبدرجات متفاوتة من التطرف والغلو ، فالإباضية مثلا ، لا يرون ما تنادي به الأزارقة من الحكم بالشرك على مخالفيهم ، واستباحة دمائهم وأموالهم ، وقتل ذراريهم ، وسبي نسائهم ، كما لا يجيزون قتال من لم يقاتلهم ، ولا يستبيحون دماءهم ، ولا أخذ أموالهم كغنائم ، ولا قتل نسائهم وأطفالهم ولا سبيهم ، ولا يعتبرون الخروج فرضًا لازمًا بل أباحوا لأفراد جماعتهم العيش في ظل حكم الطغاة تقية للضرورة ويذهبون إلى أن الشراء أو بذل النفس أمر اختياري إذا فرضه الخارج على نفسه .

وهي آراء تبني معظمها النجدات من الخوارج ، فقد فرق النجدات في الحكم على مرتكبي الذنب بين من يرتكب الذنب ويصر عليه وبين من يقترف الذنب دون الإصرار عليه ، واعتبروا الأول مشركًا وإن كان الذنب صغيرًا ، وأما الثاني فهو مسلم وإن اقترف الكبائر ، ومن هذا المنطلق يمكن فهم ما نسب إلى نجدة من القول بأنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه حين قال : لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير جهنم ثم يدخلهم الجنة ، وزعم أن النار لا يدخلها إلا من خالف في دينه ، كما نسب إلى النجدات إسقاطهم لحد الخمر والقول بعدم وجوب الإمامة .

ثالثًا : فرق الخوارج :

أ ـ الأزارقة :

يطلق هذا الاسم على أتباع أبي راشد نافع بن أزرق الحنفي وكان من أبرز قادة الخوارج في المحكمة الأولى ، وكان على جانب كبير من الشجاعة والعلم ، والبلاغة والمقدرة على الخطابة ، بيد أن النهج المتشدد الذي تبناه في الآراء الدينية ، والمواقف السياسية أفضى إلى إضعاف مركزه بين الخوارج ، وتفرق معظم أتباعه عنه ، ومما يذكر في هذه المناسبة أن إمرأة خارجية من أهل اليمن تزوجت أحد الموالي من الخوارج فلما عيرها أهلها بذلك ، خيرت زوجها بين ثلاثة أمور [الهجرة إلى معسكر الخوارج ليكون في مأمن ـ أو أن يخفيها عن قومها ـ أو يخلي سبيلها ، فاختار زوجها طلاقها فأجبرها أهلها على الزواج من أحد أبناء عمها ولم يكن خارجيًا. ولما بلغ أمرهما الخوارج اختلفوا في الرأي على ذلك فذهب بعضهم إلى أن من الواجب عليهما

الخروج واللحاق بمعسكر الخوارج وقد تبني نافع بن الأزرق هذا الرأي وتبرأ ممن قال بالتقية وأجاز لهما القعود ، وقد سميت هذه الجماعة التي سايرت نافع في هذا الرأي وغيره من الآراء بالأزارقة (١) .

وقاد نافع هذه الجماعة من البصرة إلى الأهواز وسيطروا عليها ، وعلى ما وراءها من بلاد فارس وكرمان. ومن ثم شرعوا في كثير من الممارسات الإرهابية كاستعراض الناس ، وسفك دمائهم ، ولم يتورعوا عن قتل الأطفال ، فخيم الرعب والفزع على تلك البلاد ، كما هددوا البصرة وتصدت لهم قوات ابن الزبير في كل مكان تواجدوا فيه واشتبكوا معهم في معارك دامية ، كان من أهمها موقعة (دولاب) التي أسفرت عن قتل نافع بن الأزرق وكان ذلك سنة ٦٥هـ (٦٨٥م) ، وفي تلك المعركة تألق اسم قطري بن الفجاءة ، ولم يفت في عضد الأزارقة قتل قائدهم ، فخاضوا مع قوات ابن الزبير معارك ضارية ، وحين تمكن الأمويون من إنزال الهزيمة بابن الزبير والسيطرة على الأقاليم التي كانت تحت يده ، التحموا مع الأزارقة في قتال مرير ، ونجح المهلب ابن أبي صفرة (٢) في إنزال الهزيمة بهم في عدة معارك ، حتى تمكن من القضاء عليهم بصورة نهائية ، وكان الأزارقة بعد قتل نافع قد هموا بمبايعة عبيدة بن هلال اليشكري أحد الخطباء والشعراء المعروفين ، بيد أنه إعتذر وقال لهم : أدلكم على قطري بن الفجاءة (٣) فهو خير لكم مني ، فبايعوا قطري بإمارة المؤمنين ، وجبى له الخراج وصكت النقود باسمه. وبعد وقت قصير إندلع نزاع حاد بين قطري بن الفجاءة ، وجماعة من الأزارقة فاتهموه بالكفر واستتابوه ، ثم ألغوا بيعتهم له فسار بالبقية الباقية من أتباعه إلى طبرستان واستولى عليها .

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٦٧، ٦٨ ، د/ جلى .

(٢) المهلب بن أبى صفرة من أزد عُمان ولد في دُبي الواقعة على الخليج العربي، نشأ في البصرة وتوفى عام ٨٣هـ في خرسان ، من أشهر القادة في عصر بني أمية .

(٣) قطري بن الفجاءة يُكنى في الحرب أبو نعامة وفي السلم أبو محمد يعود بنسبه إلى تيمم بن قيس من أشهر قواد الخوارج، ولد في الأعدان من قطر وإليها نسبته، قيل لأبيه الفجاءة لأنه كان باليمن فقدم على أهله فجاءة يعد قطري في جملة خطباء العرب المشهورين بالبلاغة والفصاحة وله شعر جيد وهو على جانب كبير من الشجاعة قوي النفس لا يهاب الموت، وصفه أحدهم بقوله (كان طامة كبرى، وصاعقة من صواعق الدنيا) .
=

فأخذ الحجاج على عاتقه مهمة مطاردته في كل مكان ، وصار يرسل إليه الجيش تلو الجيش فينزل قطري بها الهزائم ، وفي إحدى المعارك التقى بأخ له يدعى الماحوز بن الفجاءة يقاتل في جيش المهلب ولم تمنعه شراسة القتال بينهما ، وهما يلتقيان وجهًا لوجه من أن يقول لأخيه (١) أرأيت إذ كنا أنا وأنت نتدافع على ثدى أمنا بالأعدان (٢) ، وتصف الدكتورة سهير القلماوي معارك قطري الأخيرة بقولها : ويضيق المهلب بقطري ذرعًا ويستبطأ الحجاج المهلب ، فيرسل إليه الرسول تلو الرسول ، ويُشهد المهلب رُسل الحجاج على القتال فيرجعون عاذرين المهلب من شدة ما يلقى من جيش قطري ،

= وكانت زوجته أم حكيم هي الأخرى مشهورة بالشجاعة ومن أجمل النساء وجهًا، خطبها كثير من الخوارج بعد وفاة زوجها فردتهم وكانت في الحرب تحمل على الناس وتقول :

أحمل رأسًا قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
وألا فتى يحمل عني ثقله

ومن شعر قطري في زوجته :

لعمرك إني في الحياة لزاهدٌ ∴ وفي العيش ما لم ألق أم حكيمْ
من الخفرات البيض لم يُر مُثلها ∴ شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها ∴ على نائبات الدهر جد لئيمْ
إذا قلت يسلو القلب أو ينتهي المنى ∴ أبى القلب إلا حب أم حكيمْ
منعمة صفراء حلو دلالها ∴ أبيت بها بعد الهدوء أهيمْ
قطوف الخطا مخطوطة المتن زانها ∴ مع الحسن خُلق في الجمال عميمْ
ولو أبصرتني يوم دولاب(١) أبصرت ∴ طعان فتى في الحرب غير ذميمْ
غداة طغت غلواء بكر بن وائل ∴ وعجن صدور الخيل نحو تميمْ
وكان لعبد القيس أول حدها ∴ وأحلافها من يحصد وسليمْ
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى ∴ تعوم ظللنا في الجلاد نعومْ
فلم أر يومًا كان أكثر مقعسًا ∴ يمج دما من فائض وكليمْ
وضاربة خدًا كريمًا على فتى ∴ أغر نجيب الأمهات كريمْ
أصيب بدولاب ولم تك موطنًا ∴ له أرض دولاب ودير حميمْ
ولو شاهدتنا يوم ذاك وخيلنا ∴ تبيح من الكفار كل حريمْ
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ∴ بجنة عدن عنده ونعيمْ

(١) معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٢٠ ، ياقوت الحموي .

(٢) الأعدان : موضع في قطر يعرف اليوم باسم المعدان في الجنوب الشرقي من قرية الخوير شمال قطر .

من أدب الخوارج في العصر الجاهلي د / سهير القلماوي .

(١) دولاب : قرية على مقربة من الأهواز دارت فيها معركة ضارية بين الخوارج وأهل البصرة .

وأخيرًا يلجأ المهلب إلى الحيلة وهنا تبدأ مأساة هذا الشاعر الفارس يلقى فيها قطري شر ما يلقاه قائد حربي ، إذ تنجح دسائس المهلب فينفصل الجيش عنه إلا قلة ، وتتوالى عليه من القدر القسوة تلو القسوة حتى يموت وحيدًا في قفر سحيق في قلة من أصحابه بعد أن إنحاز معظم جيشه إلى خصومه ، وبدأ القتال من جديد بين الحزبين ، المهلب واقف متربص ينتظر النتيجة كما أملت عليه فطنته الحربية ، وفي عام ٧٧هـ كان قطري الذي خط أنصع صفحات الجهاد الخارجي في فلول من جيشه في منطقة طبرستان تطارده جيوش الدولة ، وانجلت المعركة عن قتل قطري أو زلقت به فرسه فمات .

تلك كانت نهاية قطري الفارس الشاعر الذي كتب بدمه وجهاده أنصع صفحة لقواد الخوارج ، بل أنصع صفحة للمعارضة الحربية والسياسية في العصر الأموي ، لقد قُتل في ناحية نائية وحيدًا مطاردًا من أعوانه المنفضين من حوله ، أعوان حاربوه بعد أن كان يقودهم من نصرٍ إلى نصر ، ومن عز فتح إلى عز فتح [١] ومهما يكن من شيء فقد استطاع المهلب بن أبي صفرة استئصال شأفة الأزارقة ، الذين يمثل قطري أحد زعمائهم وذلك عام تسعة وسبعون هجرية (٦٧٨م) وكانوا قد بسطوا سيطرتهم على كرمان[٢] وفارس وغيرهما من الأقاليم الشرقية تحت زعامة قطري بن الفجاءة ، وبذلك أخذت قوة الأزارقة في التلاشي والضعف ، وهي جماعة اشتهرت بممارسة العنف ، وسفك الدماء ، وسلب الأموال وسبي النساء ، وقتل الأطفال ، وبذلك وضعوا مبادئهم موضع التنفيذ حيث حاولوا بكل شراسة وعنف تطبيقها .

* * *

(١) أدب الخوارج ، ص٥٩ : ٦١ ، د/ سهير القلماوي .

(٢) كرمان وفارس إقليمان يقعان على سواحل الخليج العربي في الجنوب الغربي من إيران .

ب : النجـــــدات :

لقد مر بنا فيما تقدم أن الخوارج حين خرجوا من سجن البصرة سنة أربعة وستون هجرية ، اتجهت جماعة منهم إلى اليمامة ، وأسندت إدارة شئونها لأبي طالوت كما قدم عليه النجدة بن عامر ، بعد اختلافه في الرأي مع نافع بن أزرق ، فأمد شرايين هذه الحركة بدماء جديدة من النشاط والحيوية فقد كان في الثلاثين من عمره آنذاك فقد شرع في تنظيم حركة الخوارج هناك ووضع نشاطها العسكري موضع التنفيذ ، وكانت اليمامة في تلك الفترة صعيدًا ملائمًا لهذا النشاط لعوامل منها :

وفرة المياه والزراعة بها وخصوبة أرضها وعزلتها وتذمر أهلها من سوء الإدارة ، وضعف السلطـــات الرسميـة ، ولعـل للشعور القبـلي وكونهم من قبائل اليمامة أثرًا في ذلك .

وقد بدأ نجدة العمل العسكري باعتراض قافلة لابن الزبير كانت متجهة من البصرة إلى الحجاز ، وذلك في الموضع المعروفة باسم (جبلة) فاستولى على ما بها من الأموال والأمتعة ، وحملها إلى أبي طالوت ، كما أشار على الخوارج برد العبيد الذين قسمها عليهم أبو طالوت للعمل بالأرض بغية استثمارها ، وبذلك أبقى على الرق ولم يلغه ، مدللا بذلك على أن المساواة التي ينادي بها الخوارج قاصرة على الأحرار دون العبيد ، كما إلتزم أيضًا بسياسة تثبيت ملكية الدولة دون الأفراد(١) فوافق عمله هذا استحسان الخوارج فقرروا مبايعته على ألا يخلع إلا بجور ظاهر ، وكان أبو طالوت في مقدمة مبايعيه وذلك في سنة ست وستين هجرية ، ومن ذلك اليوم أصبحت هذه الجماعة تعرف باسم النجدات أو النجدية نسبة إلى نجدة هذا .

وبعد عدة أشهر تكاثر أنصاره ومؤيدوه فبعث سرية مكونة من ٣٠٠ فرد إلى البحرين وذلك بقيادة نصر بن مالك الحنفي في محاولة لإثارة الفوضى والسطو على بعض الأراضي ، فتصدى لهم سعيد بن الحارث الأنصاري عامل البحرين وردهم على أعقابهم(٢) ، وكرر نجدة المحاولة مرة أخرى فأرسل سرية مكونة من ٣٠٠ رجل بقيادة قدامة بن المنذر بن النعمان إلى البحرين أيضًا ، ولكنه أضطر إلى إيقاف غاراته على

(١) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ص٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ص٧١ .

البحرين وتجميد نشاطه مؤقتًا لإنشغاله بأمور أخرى ، وفي سنة سبع وستين من الهجرة (٦٨٦م) سار نجدة من اليمامة إلى البحرين على رأس جيش كثيف ، وفيها عبد القيس وقوم من الأزد ، فانحاز الأزد إلى جانبه وانخرطوا في عسكره ، أما عبد القيس وسائر سكان البحرين فقد عقدوا العزم على قتاله [١] ، وقال جماعة لعبد القيس نجدة أقرب إليكم منا (أنه من ربيعة فلا تحاربوه). فقالت عبد القيس : لا ندع نجدة يتولى أمرنا وهو حروري مارق ، وفي القطيف دارت معركة ضارية كان فيها الظفر للخوارج فقتل نجدة وسبى ، وأرسل ابنه المطرح يتعقب المنهزمين والقضاء عليهم فلقى في الوضع المعروف باسم الثوير بجماعة من عبد القيس فاشتبك معهم في قتال عنيف خر فيه المطرح صريعًا على أيدي عبد القيس بعد أن قُتل من جماعته أيضًا عدد كبير ، وفي ذلك يقول جمال بن سلمة :

وإن تقتلون في القطيف فإننا ∴ قتلناكمو يوم الثوير وصحصحا
وإن تقتلوا منا وكيعًا وعاصمًا ∴ فإنا قتلنا طارقًا والمطرحا

وتابع نجدة نشاطه الحربي فأرسل إلى بعض نواحي الخط قوة بقيادة داود العكلي فاستولى عليها، وبذلك تعاظمت قوته وقويت شوكته، فساورت المخاوف منه على العراق ابن الزبير فكلف ابنه حمزة بالمسير إلى البحرين وإخراج نجدة منها، وعلى الفور بادر حمزة بإعداد جيش وإرساله إلى البحرين بقيادة عبد الله بن عمير الليثي، فسار إلى القطيف سنة سبع وستين هجرية فالتقى به نجدة وقبل بدء المعركة انصرف عن نجدة معظم أتباعه برئاسة داود العكلي [٢] .

في إثر خلاف نشب بينهما، ولكن ذلك لم يفت في عضد نجدة فثبت ومن معه، ودارت بينه وبين جيش ابن الزبير معركة حامية الوطيس، وعند حلول الظلام أمسك الطرفان عن القتال، وافترق الجيشان، وأصبح ابن عمير فهاله ما رأى من كثرة القتلى والجرحى في عسكره، وفي غمرة إنشغال الزبيريين بإخلاء أرض المعركة من القتلى والجرحى باغتهم نجدة بهجوم مكثف وأنزل بهم خسائر فادحة في الأرواح، فانهزموا وغنم ما في عسكرهم من الأموال والعتاد [٣] .

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج٣ ، ص٣٥٢ ، ابن الأثير .

(٢) البحرين في صدر الإسلام ، ص١٣٠ ، عبد الرحمن عبد الكريم النجم .

(٣) تاريخ هجر ، ج٢ ، عبد الرحمن عثمان آل ملا .

وبعد حروب نجدة في البحرين ورغبته في التوسع ، أعد جيشًا سيّره إلى عُمان بقيادة عطية بن الأسود الحنفي سنة سبع وستين هجرية (٦٨٦م) وكان يحكمها حينئذٍ عباد بن عبد الله الجلندي ، وكان ابناه سعيد وسليمان يجبيان البلاد ويعشران السفن ، فزحف عليها عطية بمن معه وفي هجوم ساحق استولى عليها وقتل حاكمها ، وأقام فيها عدة أشهر عاد بعدها إلى البحرين ، وأناب عنه في إدارة شئونها أبا القاسم ولكن سرعان ما انتفض العمانيون برئاسة سعيد وسليمان ابني عباد وقتلوا عامل الخوارج وخلصوا البلاد من دائرة نفوذهم .

وفي سنة ثمان وستين هجرية (٦٨٧م) واصل نجدة حملاته على قبائل البحرين فقاتل قبائل تميم في طويلع وكاظمة وأرغمهم على دفع الصدقات (١) .

كما بسط سيطرته على عدة أقاليم من شبه الجزيزة العربية ، وفي سنة تسع وستين هجرية (٦٨٨م) توجه نجدة على رأس ثمانمائة وخمسين وقيل ألف وخمسمائة من رجاله إلى مكة (٢) لقضاء فريضة الحج تحت سمع ابن الزبير وبصره ، دخل الحرم وكان قد اتفق مع ابن الزبير على أن يصلي كل مهما بأتباعه ، وبعد الفراغ من أداء مشاعر الحج ، عقد العزم على التوجه إلى المدينة ، فاستعد أهلها لصده ، وفي مقدمتهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، ولما بلغ نجدة أن ابن عمر لبس السلاح عدل عن مهاجمة المدينة خوفًا من عواقب الأمور ، ومن ثم بسط سيطرته على الطائف ومواضع أخرى ، وأقفل راجعًا إلى البحرين. فقطع الميرة منها ومن اليمامة عن الحجاز فأرسل إليه ابن عباس رضي الله عنهما يعظه ويسأله استئناف إرسال الميرة فأجابه إلى ذلك ، ويأبى الخلاف إلا أن يطل برأسه بين نجدة وأتباعه على الرغم من تلك المكاسب السياسية والعسكرية المهمة التي استطاع نجدة تحقيقها للخوارج ، فانشق عليه أولاً داود العكلي في خضم المعركة التي دارت بين نجدة وعساكر ابن الزبير كما انشق عليه بعد ذلك عطية بن الأسودالحنفي وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ إتهامه بعدم المساواة حين بعث للغزو بسريتين إحداهما عن طريق البحر والأخرى عن طريق البر ففضل في العطاء الثانية على الأولى .

---

(١) تاريخ هجر ، ج٢ ، عبد الرحمن عثمان آل ملا .

(٢) ابن خلدون تسعمائة وقيل ألفان .

٢ ـ وكلم نجدة في رجل فأعطاه فرسًا فاتهموه بأنه يعطي على الشفاعة .

٣ ـ وصادف أن مالك بن مسمع أحد وجهاء العرب نزل بثاج فكتب هميان بن عدي السدوسي إلى نجدة وكان عامله على البحرين « أنه قد ورد علينا قوم لهم شرف قديم لو قدموا على أبي بكر وعمر لعرفا مكانهم فإن رأيت أن أعطيهم من سهم المؤلفة قلوبهم فعلت فكتب إليه نجدة : ليس في عطية المؤلفة وقت معلوم فأعطهم ما ترى إن يحل أن يعطى مثلهم » .

فأعطاهم هميان كل ما كان في بيت المال ، ويقدر ما أعطى مالك بن مسمع بعشرة آلاف درهم فنقم عليه جماعة منهم عطية بن الأسود واتهموه بتبذير المال ومنعه عن ذوي الحاجة منهم .

٤ ـ وحدث أن عبد الملك بن مروان كتب إلى نجدة يدعوه إلى طاعته وبيعته على أن يهدر له ما أصاب من الدماء والأموال ويوليه اليمامة وما حولها ، ولكن نجدة رفض ذلك ، فنقم عليه عطية وفارقه ويمم شطر عُمان على رأس جماعة من الخوارج ولكن الأهالي هناك حالوا دونه ودون دخول بلادهم فانصرف عنها وتوجه إلى كرمان وهناك أحرز نجاحًا كبيرًا وضرب الدراهم .

لكن المهلب طارده وضيق عليه الخناق فهرب من كرمان إلى سجستان فتبعه رجال المهلب حتى تمكنوا من قتله .

وفي ذات الوقت كانت العلاقة بين نجدة وأتباعه قد دخلت في مرحلة جديدة من التوتر والاضطراب فقد نقم عليه بعض أصحابه أمور كثيرة منها أنه أعذر أهل الخطأ في الاجتهاد بالجهالات ، إذ أنه بعث جماعة إلى القطيف بقيادة ابنه المطرح فغنموا وسبوا ، وكان في السبايا عدة نساء قوموا كل واحدة منهن بقيمة على أنفسهم واتفقوا على أنه إذا صارت أقيامهن من حصتهم فذلك المراد وإلا فإنهم يؤدون الفضل ، فنكحوهن قبل أن يقسمن ، وأخذوامن الغنائم قبل أن تقسم ، فلما أطلعوا نجدة على ذلك بعد عودتهم أخبرهم أن ذلك لا يحق لهم فأجابوه بعدم علمهم بهذا الحكم فعذرهم نجدة بجهالتهم ، كما أخذوا عليه عدم معاقبته لأحد أتباعه لما شرب الخمر بحجة أنه شديد النكاية على العدو ، فاتهمه أتباعه بتعطيله الحد في شرب الخمر .

٥ ـ أخذهم عليه إعادته بنت لعبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان بعد أن كانت قد وقعت في أسرهم بإحدى الغارات وقد اشتراها نجدة من ابن بحدج ورغب في ردها لعبد الملك بن مروان .

ومما نقموا عليه أيضًا أن أبا سنان بن حيان بن وائل أشار على نجدة بقتل من أجابه تقية فشتمه نجدة ، فهمّ أبو سنان بالفتك به ، فقال له نجدة : هل كلف الله أحدًا علم الغيب؟ قال لا ، قال نجدة إنما علينا أن نحكم بالظاهر ، فرجع أبو سنان إلى نجدة .

ففي محاولة لتصفية الخلاف بين نجدة والناقمين عليه من الخوارج طلب منه بعض أصحابه أن يتوب مما نسب إليه من تهم فنزل على رغبتهم وأعلن توبته ، ولكن آخرين من أتباعه اعترضوا على هذا الإجراء وقالوا إن استتابته خطأ ، لأنه إمام وله حق الاجتهاد ، ولا يجوز لأحد استتابته ، وألزموه بالتوبة من توبته ، كما طلبوا منه أن يستتيب الذين استتابوه ، فدار الخلاف بين نجدة وأتباعه في حلقة مفرغة [(١)] انتهى بتفرق كلمة الخوارج وتصدع جبهتهم ، فتنامى شعور العداء لنجدة وانفض عنه كثير من أتباعه ، فوجد أعداء الخوارج في هذا الخلاف ـ وما نجم عنه من ضعف في صفوفهم ـ فرصة مواتية للتخلص منهم. فتوالت حركات التمرد عليهم في الجهات الخاضعة لهم كنجران ، والطائف [(٢)] .

قتل نجدة واستيلاء أبي فديك على مقاليد حركة الخوارج :

لقد أسفرت الخلافات الهامشية والجدل العقيم بين نجدة وكبار أتباعه عن تصميم الخوارج على خلع نجدة من إمرتهم واسنادها إلى أحد الموالي المعروف بثابت التمار ، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن ذلك فأعفوه من منصبه وعينوا بدلا منه زوج أخته أبي فديك (عبد الله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة) ، فتوارى نجدة عن الأنظار فأرسل أبو فديك في طلبه جماعة من أصحابه وقال إن ظفرتم به فأحضروه إليّ ، وذلك بعد أن قيل لأبي فديك إن لم تقتل نجدة تفرق عنك أصحابك فألح في طلبه ، وكان نجدة قد توارى بإحدى القرى لدى جماعة من خواصه ، وكان عند تلك الجماعة جارية يتردد عليها أحد رعاتهم ، وذات يوم أخذت الجارية شيئًا من طيب لنجدة فسألها الراعي عن

---

(١) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٧٦ .
(٢) معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٩٣ ، ياقوت الحموي .

ذلك الطيب فأخبرته أمر نجدة ، فبادر الراعي بإخبار أصحاب أبي فديك بمكان نجدة ، فهمّوا بالقبض عليه ولكن نجدة تمكن من التسلل إلى مكان آخر يقيم به أخواله من بني تميم فاستخفى عندهم ، ثم همّ بالمسير إلى عبد الملك بن مروان فذهب إلى بيته ليخبر زوجته بما عقد عليه العزم ، فعلم به أصحاب أبي فديك فجاءوا إليه وقد علم بأمر دنوهم من بيته فلم يهرب وخرج عليهم شاهرًا سيفه ، وبعد مقاومة شديدة خرّ صريعًا ، وذلك في سنة اثنتين وسبعين من الهجرة .

ولكن قتل نجدة لم يمر بسلام حيث تلقاه بعض أتباعه ممن إنحازوا لأبي فديك بغضب شديد فانبرى من بينهم مسلم بن جبير فطعن أبي فديك بسكين إثنتى عشرة طعنة لم تصب منه مقتلاً (١) .

وعلى الفور تم إعدام القاتل ، ونقل أبو فديك إلى منزله وظل به أيامًا حتى تماثل للشفاء ، وقد توجه بأصحابه إلى البحرين واتخذ من مدينة جواثا حاضرة لحكمه ، وبذل مصعب بن الزبير والي العراق من قبل أخيه عبد الله محاولات يائسة في القضاء على أبي فديك ، فأرسل إليه عدة حملات عسكرية لم تعد بطائل ، وحين نجح عبد الملك ابن مروان في القضاء على دولة الزبيريين ، شعُر بضرورة التصدي للخوارج في كل مكان ، وفي سنة ثلاث وسبعين هجرية ٦٩٢م ، أصدر عبد الملك أمرًا لوالي البصرة الأموي خالد بن عبد الله بن أسيد بالمسير إلى أبي فديك والقضاء عليه وعلى أتباعه في البحرين واليمامة ، فإمتثل عامل البصرة للأمر وأعد جيشًا من إثنى عشر ألف مقاتل جعل على قيادته أخاه أمية بن عبد الله وأمره بالمسير للبحرين ، فعلم أبو فديك بقدوم الجيش الأموي وأعد له كمينًا استطاع أن ينزل به هزيمة فادحة ، ثم أسند عبد الملك مهمة قتال خوارج البحرين واليمامة لعمر بن عبد الله بن معمر ، فقام على الفور بتجهيز جيش عظيم من أهل البصرة والكوفة قوامه واحد وعشرون ألف مقاتل ، وعلى مقربة من هجر إلتحم الطرفان ودار بينهما قتال شديد لاحت في بدايته بوادر النصر للخوارج ، ولكن الجيش الأموي استطاع في النهاية أن يحول ميزان المعركة لصالحه واقتحم معسكر الخوارج ، ولم يكن قد بقى مع أبي فديك من أتباعه سوى ألف مقاتل ، وفي اليوم الخامس من بدء المعركة وقع أبو فديك صريعًا فتراجع أتباعه إلى حصن

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص٩٠ ، عبد القادر بن طاهر البغدادي .

المشقر وتحصنوا به فضرب عليهم الجيش الأموي حصارًا شديدًا حتى أرغمهم على الاستسلام ، وحُمل رأس أبي فديك إلى عبد الملك بن مروان بالشام وذلك في سنة أربع وسبعين هجرية (٦٩٣م) ، وكانت خسارة الخوارج في هذه المعركة ستة آلاف قتيل وثمانمائة أسير وبنهاية هذه الحرب تمكن عبد الملك من بسط سيطرته على البحرين واليمامة ، وقد أسند إدارة شئون البحرين للأشعث بن عبد الله بن جارود العبدي ، كان القضاء على أبي فديك قد أنهى دور النجدات في البحرين ولكنه لم يضع حداً لحركات خارجية أخرى وظهرت على المسرح السياسي في هذه البلاد .

وقد تسلمت راية الخروج والتمرد على مركز الخلافة عناصر من عبد القيس لم تكن دوافعها الإنتصار لنظرية دينية أو سياسية معينة بل كانت دوافعها في المقام الأول الرغبة الجامحة في تخليص البلاد من سلطة الإدارة المركزية كسيطرة الخلفاء الذين لا تعنيهم هموم ومشاكل رعاياهم في الأقاليم البعيدة بقدر ما يهمهم مقدار المال الذي يصل إلى خزائنهم من الأموال المستنزفة من تلك الأقاليم بغض النظر عن الطرق التي تجبى بها تلك الأموال وما يرافقها في الغالب من مظالم وفظائع تعمل باستمرار على زرع الحقد والكراهية للسلطة في نفوس الناس ، وتكون سببًا حقيقيًا في اندلاع الثورات وحركات التمرد .

كما أن تلك الحركات إذا حدثت لم تكن تعالج بالأساليب السليمة التي تزيل أسباب قيامها وتمنع تكرر حدوثها ، وهي إزالة المظالم وإشاعة العدل وتوفير الحياة الكريمة لجميع الناس ، بل الذي كان يحدث عكس ذلك تمامًا فكانت الجيوش التي توجه لقمع حركات التمرد تعمد في حالة انتصارها على تلك الحركات إلى أفظع وسائل التنكيل والبطش والأعمال الانتقامية والتخريبية كالقتل بدون تمييز ، وأخذ البريء بجريرة المذنب ، وهدم المنازل وحرق المحاصيل الزراعية وطم الآبار إلى غير ذلك من الأساليب القمعية الوحشية التي تزيد مرارة الناس ، وتعمق جراحاتهم وتجعلهم جاهزين للقيام بالأعمال الانتقامية كلما وجدوا الفرصة المواتية لذلك ، وهذا ما سنراه في الانتفاضات التي قادتها عناصر من عبد القيس في البحرين حيث قاموا ضد السلطتين الأموية والعباسية بسلسلة من الانتفاضات العنيفة التي جاءت تعبيرًا عن معاناة سكان هذا الإقليم وما تنطوي عليه نفوسهم من تذمر وسخط على مركز الخلافة بسبب عدم مبالاته بالنظر في مظالمهم وتقصيره في رعاية مصالحهم وحماية حقوقهم ، وتطبيق ما يأمر به الشرع من العدل في الحكم والإنفاق، وتوفير حياة الأمن والاستقرار .

انتفاضات بني عبد القيس في البحرين :

انتفض في البحرين بني محارب بن عمرو بن وديعة ولكن عامل االأمويين محمد بن صعصعة تمكن من القضاء على تلك الإنتفاضة بمؤازرة من والى اليمامة الذي كلفه الخليفة بالاشتراك مع والي البحرين في تلك المهمة وفي سنة تسع وسبعين من الهجرة (٦٩٨م) انتفضت في الخط جماعة بقيادة رجل يُدعى ريان النكري وقويت شوكتها واشتد خطرها حين قدمت من عُمان جماعة أخرى بقيادة رجل يسمى ميمون ، ما كادت تستقر في دارين وتعلم بثورة الخط حتى بادرت بالإنضمام إليها ، فحاول مولى الأمويين محمد بن صعصعة القضاء على تلك الإنتفاضة ، واستنفر الأهالي للنهوض بتلك المهمة بيد أنه لم يجد أذنًا صاغية من عبد القيس فأعد جيشًا من الأزد ، بيد أنه لم ينجح في قمع حركة الريان ، فآثر النفاذ بجلده وغادر البحرين ، ولكن الخلاف لم يلبث أن ثار بين الريان وميمون فاضطر الأخير بترك البحرين والعودة لعُمان ، واستقر الريان بالزارة ، وفي سنة ثمانين من الهجرة (٦٩٩م) ، أرسل الحجاج جيشًا إلى البحرين بقيادة يزيد بن أبي كبشة في إثنى عشر ألف مقاتل ، والتقى بالريان وكان عدد أصحابه لا يزيد عن ألف وخمسمائة مقاتل ، فدارت بين الفريقين معركة بالغة العنف في ميدان الزارة أسفرت عن مصرع الريان وقتل عدد كبير من أتباعه ، وصلب يزيد بن أبي كبشة الريان وكبار أصحابه ليكونوا عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الخروج والتمرد مرة أخرى وعلى الرغم من شدة الإجراءات التي اتبعها يزيد بن أبي كبشة في قمع الخارجين على الطاعة والتنكيل بهم فقد ثار بالبحرين على إثر مصرع الريان داود بن محرز بن عبد القيس في جماعة من قومه فاستولى على القطيف وأقام بها وأمر بإنزال جثة الريان وغيره من المصلوبين ودفنهم ، وألحق الهزيمة بجيش أعده لقتاله البهاء صاحب شرطة القطيف ، كما ألحق الهزيمة أيضًا بجيش تشكل معظم أفراده من الأزد سار لقتاله بإمرة عبد الرحمن بن النعمان العوذي (١) .

وفي سنة ست وثمانين هجرية (٧٠٥م) ، انتفض في البحرين مسعود بن أبي زينب المحاربي بن عبد القيس في جماعة من قومه ، وطردوا عامل الأمويين الأشعث بن عبدالله بن الجارود العبدي ، كما تمكن من قمع مقاومة الأزديين له وقتل عبد الرحمن بن النعمان العوذي ، وأراد غزو اليمامة ، ولكن عامل الأمويين سفيان بن عمرو العقيلي أعد جيشًا كبيرًا من بني حنيفة للدفاع عن اليمامة ودارت في الموضع المعروف

(١) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ص٧٨ و٧٩ ، ج٢ .

بالخضرمة بين الجيشين معركة طاحنة سقط خلالها مسعود قتيلاً ، وحل محله في قيادة الخوارج هلال بن مدلج ، وتوافدت على أرض المعركة أعداد كبيرة من بني حنيفة وأحاطوا الخوارج إحاطة الأغلال بالمغلول وأكثروا فيهم القتل وكان من بين القتلى في ذلك اليوم زينب أخت مسعود ، ونادى هلال بمن فضل معه من أتباعه للاعتصام بقصر كان هناك ، وتسورت جماعة من بني حنيفة القصر وظفرت بهلال فقتلته بعد أن استأمن أصحابه لأنفسهم وكانت مدة حكم مسعود للبحرين تسع عشرة سنة (١). ولم يكد الأمويون يلتقطون الأنفاس بعد الفراغ من تلك الحوادث حتى انتفض في البحرين أيضًا سعيد المحاربي وهو أخو مسعود السالف الذكر ونجح في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد ، ولكن سرعان ما نشب الخلاف بينه وبين واحد من كبار أتباعه يدعى عون بن بشير أحد بني محارب بن عامر وأكفر كل منهما صاحبه ، فانقسمت الحركة على نفسها إلى جماعتين ، استقرت إحداهما في هجر مع سعيد وتوجهت الأخرى إلى القطيف برئاسة عون ، ولكن سعيد تمكن من القضاء عليه وإغتياله بغية الإنفراد بحكم البلاد .

خروج المهير بن سلمة أحد بني حنيفة في البحرين واليمامة :

قال ابن الأثير رحمه الله (٢) لما قتل الوليد بن يزيد كان على اليمامة علي بن المهاجر استعمله عليها يوسف بن عمر الثقفي ، وكان علي بن المهاجر يسكن في قصر له بهجر بموضع يسمى « القاع » فقال له المهير بن سلمى : اترك لنا بلادنا فأبى ، فجمع له المهير وسار إليه في هجر فخرج علي لقتاله فاقتتلوا ، فانهزم أصحاب علي ، فدخل حصنه ثم هرب إلى المدينة ، وقتل المهير أناسًا من أصحابه وكان يحيى بن أبي حفصة نهى ابن المهاجر عن القتال فعصاه فقال :

بذلت نصيحتي لبني كلاب ∴ فلم تقبل مشاورتي ونصحي
فداً لبني حنيفة من سواهم ∴ فإنهم فوارس كل فتح

وتأمر المهير على اليمامة ثم مات واستعمل على اليمامة عبد الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤول ثم قدم المثنى بن زيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري واليًا على اليمامة في عهد مروان بن محمد .

---

(١) الكامل في التاريخ ، ص١٩١ ، ابن الأثير .
(٢) ابن الأثير ، ج٤ ، ص٢٧٢ .

انتفاضة سليمان بن حكيم في البحرين :

في سنة مائة وإحدى وخمسين هجرية (٧٦٨م) ، انتفض في البحرين جماعة أعلنت التمرد والخروج على أبي جعفر المنصور بزعامة سليمان بن حكيم العبدي ، فبادر المنصور إلى إعداد جيش وجهه إلى البحرين بقيادة عقبة بن سلم الأزدي والي البصرة ، فالتقى الفريقان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس تمكن فيها الجيش العباسي من إلحاق الهزيمة بالمتمردين وقتل زعيمهم ، ولم يكتف القائد العباسي بإخماد تلك الإنتفاضة ، فقد ارتكب من أعمال العنف والوحشية مالا يجوز فعله مع أشد الأعداء ، فقد قتل كل من قدر على قتله من الرجال وسبى النساء والأطفال ، وأسر كثيرًا من أهل البلاد ونقلهم إلى بغداد وتركهم للمنصور يتحكم فيهم كما شاء له هواه فقتل بعضهم ووهب آخرين لرجال حاشيته كولي عهده المهدي الذي قام بإطلاق سراحهم وتكريمهم في محاولة للتخفيف من آثار الممارسات الفظيعة لجيش المنصور مع أهل البحرين ولكن مراجل الغيظ والغضب لتلك الأعمال ظلت تغلي في نفوس عبد القيس حتى قام أحد أفرادها بالإنتقام لها من ذلك القائد على باب ديوان الخلافة نفسها بجرأة عجيبة سرت مسرى المثل بين الناس فقيل «أجرأ من قاتل عقبة» فقد جاء في كتاب الأمثال للميداني ما نصه :

« قال أبو عمرو القوعيني : عقبة بن سلم من بني هُنَاءة من أهل اليمن صاحب دار عقبة بالبصرة ، وكان أبو جعفر وجهه إلى البحرين وأهل البحرين ربيعة فقتل ربيعة قتلاً فاحشًا ، قال فانضم إليه رجل من عبد القيس فلم يزل معه سنين وعُزل عقبة ، فرجع إلى بغداد ، ورحل العبدي معه وكان عقبة واقفًا على باب المهدي بعد موت أبي جعفر ، فشد عليه العبدي بسكين فوجأه في بطنه فمات عقبة ، وأخذ العبدي فأدخل على المهدي فقال ما حملك على ما فعلت ، فقال إنه قتل قومي ، وقد ظفرت به غير مرة ، إلا أني أحبب أن يكون أمره ظاهرًا ، حتى يعلم الناس أني أدركت ثأري منه ، فقال المهدي (إن مثلك لأهل أن يُستبقى ولكن أكره أن يجترأ الناس على القواد ، فأمر به فضربت عنقه) ويقال إن الوجأة وقعت في شرجة منطقة عقبة ، قال (فجعل المهدي يسائل العبدي ، والعبدي يبكي إلى أن دخل داخل فقال : يا أمير المؤمنين مات عقبة فضحك العبدي) ، فقال له المهدي مما كنت تبكي ، قال : « من خوفي أن يعيش ، فلما مات أيقنت أني أدركت ثأري » (١) .

(١) الأمثال ، ج٢ ، ص١٨٤ ، الميداني .

وفي سنة مائة وتسعين هجرية (٨٠٥م) انتفض في البحرين على مركز الخلافة سيف بن بكير أحد بني عبد القيس وتمكن من السيطرة على هجر فوجه إليه الرشيد جيشًا على رأسه محمد بن يزيد بن مزيد ، والتقى الطرفان في الموضع المعروف باسم (عين النورة) ودارت بينهما معركة بالغة العنف أسفرت عن قتل سيف بن بكير وهزيمة أتباعه (١) ، ولكن عبد القيس وسائر قبائل البحرين ظلت تمارس انتفاضاتها وضغوطها على السلطة العباسية ، حتى تمكنت في نهاية المطاف من رفع يد العباسيين عن بلادهم ، فتسلمت مقاليد السلطة فيها إمارات من عبد القيس ظلت تتوارث الحكم كابرًا عن كابر ، حتى تم القضاء عليها في العقد التاسع من القرن الثالث الهجري .

حركة صاحب الزنج :

بدأت هذه الحركة في سنة ٢٤٩ هـ (٨٦٣م) على يد رجل تضاربت الروايات في حقيقة نسبه لكثرة ما كان يرتديه من القمص في هذا الشأن ، وإن كانت تلك الروايات لا تخرج عن دائرة إعتباره إما من عبد القيس أو العلويين ، فقد جاء عن الطبري (٢) أن اسمه ونسبه فيما ذكر علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس وأمه قُرة بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة من ساكني قرية من قرى الري يقال لها ورزنين ، بها مولده ومنشؤه ، فذكر عنه أنه كان يقول : جدي محمد بن حكيم من أهل الكوفة ، أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين ، فلما قتل زيد هرب فلحق بالري فلجأ إلى ورزنين فأقام بها . وأن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس كان مولده بالطالقان ، وأنه قدم العراق فأقام بها ، واشترى جارية سندية ، فأولدها محمدًا أباه ، فهو علي بن محمد هذا . كما جاء عن الطبري أيضًا أن صاحب الزنج قد إدعى الانتساب لبيت علي بن أبي طالب ولكن دون الثبات على فرع واحد من فروع ذلك البيت ، فمرة يزعم أنه علي بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣) .

كما انتسب أيضًا إلى أحمد بن عيسى بن زيد ، وفي مناسبة أخرى انتسب إلى يحيى بن زيد بن علي .

---

(١) تحفة المستفيد ، ص٨١ ، محمد بن عبد الله آل عبد القادر .

(٢) الطبري ، ج٩ ، ص٤١٠ . (٣) المرجع السابق .

وذلك حين قدم البصرة وانحياز جماعة من العلوية إليه هناك ، فيهم علي بن أحمد بن عيسى بن زيد وعبد الله بن علي في جماعة من نسائهم وحرمهم ، فلما جاءوه ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى وانتسب إلى يحيى بن زيد .

قال محمد بن الحسن : سمعت الخبيث ، وقد حضره جماعة من النوفليين فقال القاسم بن الحسن النوفلي : إنه كان قد انتهى إلينا أنك من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى أنا من ولد يحيى بن زيد ، وهو في ذلك كاذب لأن الاجماع في يحيى أنه لم يعقب إلا بنتًا ماتت وهي ترضع .

مما سلف يتبين لنا عدم ثبات صاحب الزنج على نسب بعينه حيث كان يغيره من فرع إلى فرع وفقًا لما يقتضيه الحال .

ولعل نسبته لعبد القيس هي الأقرب إلى الصواب لما مرّ من عدم ثباته على فرع واحد من فروع العلويين ، وإنكار العلويين لنسبته فيهم ، ووجود دوافع معينة تدفعه للإنتماء إلى البيت العلوي وهي الرغبة في استغلال ما يكنه الناس لذلك البيت من مشاعر الود وما يبدونه من تعاطف معهم في المحن التي كانوا يتعرضون لها ، ليكتسب بذلك لحركته قوة جذب سريعة ومستمرة ، وقد نجح في هذا المضمار نجاحًا كبيرًا حيث تمكن من إقناع أناس كثيرين لصحة انتسابه للبيت العلوي بمن فيهم بعض العلويين أنفسهم. هذه القرائن واتخاذ صاحب الزنج موطن عبد القيس وهو البحرين نقطة البداية لدعوته تجعلنا نرجح صحة إدعاء إنتسابه لعبد القيس واستبعاد كل ما عداها من المزاعم في هذا الشأن. ومما يكن من شيء فإنه في سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣م) ، اتجه من سامراء إلى البحرين ، وإدعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب .

ومن ثم شرع في الترويج لدعوته زاعمًا أنه رسول العناية الإلهية إلى الناس ، ليخلصهم من المظالم التي يرزحون تحت نيرها ، وإعادة بناء المجتمع على أسس العدالة والمساواة ، ومنع الاستغلال والتمييز العنصري ، فانخدع بظاهر دعوته قوم من هجر وعارضه آخرون ، ورفضوا أفكاره ، واشتد الجدال في أمره بين مؤيديه ومعارضيه ونشبت بين الطرفين معارك ضارية في مواقع متعددة ذهب ضحيتها عدد كبير من الناس ، وأدرك صاحب الزنج أن الأمور في هجر لا تسير في صالحه فتحول عنها إلى أحساء بني سعد [1] ، وأقام بينهم فنجح إلى حد كبير وصار له أتباع

(١) تاريخ هجر ، ج٢ ، ص٨٨ و٨٩ .

ومريدين رفعوا مقامه وذبوا عنه بقوة السلاح وجبوا له الخراج ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين لأتباعه بطلان دعوته وحقيقة أمره فمقتوه ونفروا منه ، فانتقل إلى البادية وفي معيته عدد قليل من خلصائه بينهم كيال من أهل الأحساء يقال له يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالبحراني مولى لبني دارم ، ويحيى بن أبي ثعلب تاجر من أهل هجر ، وسليمان بن جامع من موالي بني حنظلة وقد جعله قائدًا لجيشه ، وما زال يتنقل في البادية من حي إلى حي وقد أوهم الأعراب أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة ، فانخدع بمزاعمه كثير من أهل البادية ، فأعد منهم جيشًا كبيرًا وسار به لمهاجمة حاضرة البحرين فتصدى له أهلها ودخلوا معه في معركة حامية الوطيس في موضع يدعى «الردم» أسفرت عن هزيمته وقتل عدد من أصحابه [(١)] ، فانفضت عنه العرب وكرهت صحبته فسار إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ (٨٦٧م) ، ونزل في بني ضبيعة واختار جماعة من أصحابه الذين حضروا معه من البحرين وهم محمد بن سلمة القصاب وبريش القريعي وعلي الضراب ، والحسين الصيداني لنشر دعوته فذهبوا لمسجد يعرف باسم مسجد عباد ، وبدءوا في استمالة الناس والتأثير عليهم بشتى وسائل الإقناع فانتهى خبر نشاطهم لوالي البصرة محمد بن رجاء الحضاري ، فاعتزم القبض عليهم وبلغهم ذلك فلاذوا بالفرار ، ولحقوا بزعيمهم وتحولوا من البصرة إلى موضع آخر أكثر أمنًا ، ولكن ابن رجاء تعقب أنصارهم في البصرة وزج بهم في السجن وكان من بين ما ألقي عليهم القبض يحيى بن أبي ثعلب ومحمد بن حسن الأيادي وابن صاحب الزنج علي بن محمد الأكبر وزوجته أم ابنه ومعها ابنتان له وجارية حامل منه .

أما زعيم هذه الحركة فقد توجه في جماعة من خلصائه إلى بغداد وفي طريقه إليها ظفر بهم في البطيحة عمير بن عمار ، فحملهم إلى محمد بن أبي عون عامل السلطان بواسط ، وبحيلة ماكرة تخلصوا من قبضته وساروا إلى مدينة السلام حيث أقام بها صاحب الزنج سنة كاملة انتسب فيها إلى أحمد بن عيسى بن زيد وكان [(٢)] يزعم أنه ظهر له أثناء مقامه في بغداد آيات ، وأنه يعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعل كل واحد منهم ، وفي مدينة السلام أحرز شيئًا من التقدم في دعوته ، فقد دخل في تبعيته عدد من أهلها ، كما كان على صلة بجماعة من آل المنتصر وبعض المقربين للخليفة

(١) تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، ص١٧٤ ، الرياض ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
(٢) الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص٣٤٧ ، ابن الأثير .

العباسي وكُتابه ، وفي شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، عاد إلى البصرة وكان أهله قد نجحوا في التخلص من السجن هناك فساروا جميعًا إلى موضع يعرف باسم (برنخل) ، وهناك نزل بقصر يدعى بقصر القرشي ، حينئذٍ إدعى أنه وكيل ولد الواثق في بيع السباخ ، وأمر أصحابه أن يدعوه بذلك ، وحينئذٍ دخلت دعوته مرحلة جديدة فقد وجد في ألوف الزنوج الكادحين في السباخ الممتد من البصرة إلى واسط [1] مجالاً خصبًا لزرع أفكاره وعقائده وتحقيق مقاصده السياسية والعسكرية .

فقد كان أولئك الزنوج يعيشون حياة مزرية بائسة فقد كانوا يعملون في كسح السباخ طيلة ساعات النهار تحت ظروف مناخية بالغة القسوة ، وكل ما يحصلون عليه من سادتهم مقابل تلك الأعمال المضنية وجبة ضئيلة من الدقيق والسويق والتمر ، وكان الجلد بالسياط الغليظة أدنى ما يتعرض له أحدهم متى أبدى شيئًا من التذمر أو التواني في القيام بواجبه ، لذا فعلت دعوة هذا الخارجي في نفوسهم فعل السحر حيث لاحت لهم فيها بارقة الأمل في الخلاص من حياة البؤس والهوان وهو ما لم يحلموا به في أي وقت مضى .

وسارعوا لإجابته والسير في ركابه ، فاجتمع له منهم خلق كثير فعظم أمره وقويت شوكته فاتخذ له لواء من الحرير نقش عليه بالأخضر والأحمر الآيات الكريمة من قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [2] .

كما كتب على اللواء اسمه واسم أبيه ، ثم جمع الزنج على ما يذكر ابن جرير[3] وقام فيهم خطيبًا فمناهم ووعدهم أن يقودهم ، وينقذهم ويملكهم الأموال ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ أن لا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى إليهم به ، ثم دعا مواليهم فقال : « قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم مالا يطيقون فكلمني أصحابي فيكم فرأيت إطلاقكم » ، فقالوا إن هؤلاء الغلمان أباق وهم يهربون منك ولا يبقون عليك ولا علينا فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا ، فأمر غلمانه فأحضروا عصيًا ثم بطح كل قوم مولاهم أو وكيلهم وضرب كل واحد منهم

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ، ص ٣٤٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١١١ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، ص١٧٧ ، أبي جعفر الطبري .

خمسمائة عصا وأحلفهم بطلاق نسائهم أن لا يعلم أحد بموضعه ولا بعدد أصحابه فأطلقهم فمضوا نحو البصرة » .

أما صاحب الزنج فقد سار بأصحابه حتى وصل دجيل فوجد هناك سفن استولى عليها واستقلها إلى نهر ميمون ثم غادرها إلى مسجد في وسط سوق البلدة فنزلو به ويقول ابن جرير (١) : وأقام هناك ولم يزل هذا دأبه يجتمع إليه السودان إلى يوم الفطر فلما أصبح نادي في أصحابه بالاجتماع لصلاة الفطر فاجتمعوا وركز المردي الذي عليه لواؤه وصلى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور ثم حلف لهم على ذلك ، فلما فرغ من صلاته وخطبته أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لا فهم له من عجمهم لتطيب بذلك أنفسهم ، وقد أثرت تلك الخطبة في جموع الزنج تأثيرًا عظيمًا فإزدادوا به ثقة وحوله التفافًا ، فبنى مدينة أطلق عليها اسم المختارة نزل بها مع أتباعه ، ومن ثم أخذ يبث الدعاة لمبادئه وينظم الحملات العسكرية لفرض تلك المبادئ ، والاستيلاء على المزيد من الأراضي ، والتصدي لكل من يفكر في التعرض له أو مهاجمته ، كما عكف على شرح أفكاره ، وبيان مقاصده ، في خطب ضافية يلقيها على أتباعه يكيل فيها أقذع الشتائم لعثمان وعلي وطلحة والزبير ومعاوية ، وعائشة رضي الله عنهم (٢) ، مظهرًا بذلك أنه كان يعتنق عقيدة الخوارج التي ربما ورثها عن جده محمد بن حكيم أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك ، كما دلل على أن إنتسابه لعلي بن أبي طالب في أول الأمر لم يكن إلا وسيلة لاستقطاب الناس واستمالتهم لمبادئه .

حروب صاحب الزنج ونهاية حركته :

حين تمكن صاحب الزنج من إرساء دعائم حركته على قاعدة عريضة من المؤيدين والأنصار ، وأتم تحصين مدينته بالخنادق والأسوار ونقل إليها من المؤن والعتاد ما يجعلها قادرة على الصمود والمقاومة أطول مدة ممكنة ، حينئذٍ شرع في نشر جيوشه في العراق وخوزستان والبحرين وانتهب القادسية وألحق الهزائم بأهالي البصرة ، فنشر بذلك الهلع والرعب في قلوب الناس ، فهبطت معنوياتهم وخارت قواهم أمام غاراته المتكررة عليهم ، فطالبوا من الخليفة المهتدي الإسراع في وضع حد لتلك

---

(١) االطبري ، جـ ٦ ، ص ١٧٧ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، ج٣ ، ص٢١١ ، حسن إبراهيم حسن .

الممارسات الإرهابية فوجه إليه جيشًا كبيرًا بقيادة أحد قواده الاتراك فلم يأت بطائل ، ولما آلت الخلافة للمعتمد جهز جيشًا بقيادة جعلان أحد كبار قواده الاتراك فزحف على البصرة (١) فاصطدم بالزنج في معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة عسكر الخلافة العباسية ومصرع قائدها ، من ثم زحف صاحب الزنج على مدينة (الأبلة) فوقعت في قبضته كما بسط سيطرته على الأهواز أيضًا ، فخشي أهل البصرة على أنفسهم فنزح أكثرهم إلى المناطق الأخرى ، وفي سنة ٢٥٧هـ اقتحم الزنج البصرة وأضرموا فيها النار وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها (٢) كما واصلوا زحفهم على مدينة واسط ، ورامهرز واستولوا عليهما فأخذ الخليفة المعتمد يرسل لقتالهم الجيوش تلو الجيوش ولكن دون جدوى ، في حين كانت شوكة الزنج تزداد في كل يوم قوة وصلابة لما تحقق من انتصارات ومكاسب حربية في قتالها مع العباسيين فبادر الخليفة المعتمد بإسناد مهمة مطاردة الزنج والقضاء عليهم لأخيه أبي أحمد الموفق ، ولم يفت ذلك في عضد صاحب الزنج فتوالت غاراته الإرهابية على البحرين والعراق وخوزستان فآل الموفق على نفسه على أن يضع حدًا نهائيًا لتلك الحركة ويخلص الناس من شرها ، في شهر صفر سنة ٢٦٧هـ (٨٨٠م) جهز جيشًا جرارًا تولى قيادته بنفسه فزحف على واسط والتحم مع الزنج في معركة ضارية دارت فيها الدائرة عليهم ، فذهب أكثرهم بين قتيل وجريح وأسير ، كما كانت تلك المعركة بداية النهاية لحركة الزنج حيث تتابعت عليهم الهزائم وتم تحرير الأهواز ، وضرب الموفق حول مدينتهم المختارة حصارًا شديدًا (٣) ، كما تمكن العباس بن الموفق بعد إحكام حصار المختارة من قطع الميرة والمدد عن الزنج بصورة فعالة حتى اضطروا بسبب الجوع ونضوب الموارد والمؤن إلى أكل لحوم موتاهم ، وبعد مدة نجح الموفق في الاستيلاء على الجزء الغربي من المدينة فخاب رجاء الزنج في الخلاص من تلك المحنة فانحاز أكثرهم إلى الموفق وطلبوا منه الأمان فأمنهم وأحسن معاملتهم فعجل ذلك بسقوط كامل المدينة في قبضته وتم قتل يحيى بن محمد الأزرق من أمراء الزنج كما أسر سلمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمزاني المهلبي وانكلاي بن صاحب الزنج .

وفي الثاني من صفر سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م) تم قتل صاحب الزنج (٤) بعد أن دوّخ الدولة العباسية وبث الرعب والهلع في نفوس الناس مدة أربع عشرة سنة وستة أيام ، وعاد الناس إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، ج٣ ، ص٢١١ ، حسن إبراهيم حسن .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٣٦٢ ، ابن الأثير .

(٣) المرجع السابق .   (٤) ابن الأثير .

وصفوة القول :

إن من أصعب الأمور وأكثرها مشقة وعناء أن يجد الباحث نفسه أمام حركة يخطف بريق شعاراتها ومبادئها الأبصار ، بما تعنيه من الإصلاح الاقتصادي ، والعدالة الاجتماعية ، في حين تحاول تطبيق تلك الشعارات والمبادئ بأكثر الممارسات قسوة وبعدًا عن القيم والأخلاق ، وهذا ما نجده في حركة الزنج فقد قامت هذه الحركة أساسًا في مواجهة الظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تعاني منه الفئات البائسة في مجتمع الدولة العباسية (١).

وحين أخفق صاحبها في جمع الناس حول هذه الأهداف لم يجد لغرس أفكاره أرضًا أكثر خصوبة من جماعة الزنوج العاملة في كسح السباخ في منطقة فرات البصرة وكانت أحوالهم البائسة والحياة الشاقة التي يعيشون تحت وطأتها تجعلهم جاهزين للتشبث بأي أمل يحقق لهم الحد الأدنى من الحياة الكريمة التي افتقدوها منذ جيئ بهم من بلدانهم للعمل بهذه المستنقعات .

لذا جرت هذه الدعوة في نفوسهم مجرى الدم في الشرايين فسارعوا لتبنيها والانضواء تحت رايتها. لما لا ؟ وهي الدعوة التي تريد أن ترفع أقدارهم ، وتملكهم العبيد والأموال والمنازل ، وتبلغ بهم أعلى الأمور ، ويرى بعض الباحثين (٢) أن صاحب الزنج كان في بداية أمره مخلصًا للمبادئ التي دعا إليها مستندين في رأيهم هذا إلى ما أظهره من صلابة في مواجهة الإغراءات التي حاول بها بعض أتباع الدولة العباسية أن يغروه بها ، بغية القضاء على حركته ، فقد أرسل إليه رميس أحد قواد الدولة العباسية يقول له : أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض ولا يعرض لك أحد ، وأردد هؤلاء العبيد إلى مواليهم وآخذ لك عن كل رأس خمسة دنانير ، ولو لم يكن مخلصًا لتلك المبادئ على حد قول د/حامد غنيم أبو سعيد(٣) لكان لهذه المساومة تأثيرها عليه ، وخاصة أنها كانت ستدر عليه بمبالغ طائلة من الأموال ، ولكنه على العكس من ذلك إزداد صلابة وتمسكًا بمبادئه ، يقول الطبري (٤) : « فغضب من ذلك ، وآلى ليرجعن فليبقرن بطن إمرأة رميس ، وليحرقن داره ، وليخوضن الدماء هنالك » وقد اتضحت صلابة هذا الزعيم وإيمانه العميق بالمبادئ التي كان يعمل من أجلها في مناسبة أخرى ، فقد خيل لبعض العبيد أنه أخذ يحتال عليهم ليردهم إلى مواليهم ،

---

(١) عصر الدول الإقليمية ، ج١ ، ص٢١٥ ، و٢١٦ ، د/ حامد غنيم . (٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٨ . (٤) الطبري ، ج٩ ، ص٤١٨ ، و٤١٩ .

فهرب بعضهم ، واضطرب الآخرون ، ولما علم هو بما حدث أمر أحد أصحابه أن يؤكد لهم أنه لا يرد أحد منهم إلى مواليهم ، وحلف لهم على ذلك بأغلظ الأيمان ، وقال : ليحط بي منكم جماعة ، فإن أحسو مني غدرًا فتكوا بي ، ولم يكتف بهذا القول بل إنه جمع باقي أتباعه ممن يتكلمون العربية ، فحلف لهم على مثل ذلك وضمن ووثق من نفسه[1] وأعلمهم أنه لم يخرج لعرض من أعراض الدنيا ، وما خرج إلا غضبًا لله ، ولما رأى ما عليه الناس من الفساد في الدين ، وقال : « هاأناذا معكم في كل حرب أشرككم فيها بيدي وأخاطر معكم فيها بنفسي »[2] .

تلك هي المبادئ التي كان ينادي بها زعيم الزنوج ، وهي في جملتها مبادئ مغرية ، تضع المستقبل الاقتصادي والاجتماعي لهذه الفئة المطحونة في إطار مشرق بالأمل في الخلاص من الفاقة والفقر والانعتاق من الرق والمكانة المتدنية التي وضعهم فيها ساداتهم ، ولكن هذه المبادئ تفقد بريقها حين تقفز إلى الأذهان صور الفظائع والممارسات الشنعاء التي أحدثها الزنج في المناطق التي تمكنوا من الاستيلاء عليها ، والمتمثلة في إشعال الحرائق في البيوت والمحاصيل الزراعية وإزهاق أرواح الأبرياء إلى غير ذلك من الجرائم الوحشية ، والممارسات التي قلبت الأوضاع الاجتماعية بدلاً من إصلاحها ، ولم تزد على أن أعادت توزيع الأدوار على المسرح الاجتماعي بأن جعلت المظلوم ظالمًا والسيد عبدًا .

من هنا يمكن القول إن هذه الحركة فشلت تمامًا في تحقيق أهم أهدافها وهو تنقية المجتمع الإسلامي من مظاهر الفساد التي تسربت إليه عن طريق القائمين على شئون الدولة العباسية ، والذين ابتعدوا بسلوكهم عن حقيقة التعاليم الإسلامية ، والتي من أجل مقاصدها بناء المجتمع الفاضل ، القائم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ، ونشر التآخي والتكافل بين جميع أفراد المجتمع. أجل لقد فشلت هذه الحركة في تحقيق أسمى أهدافها التي نادت بها ، وإن كانت قد أصابت من النجاح السياسي والعسكري حدًا جعلها تتخذ طابع الدولة ، بما كان لها من سمات ومقومات الدول .

فقد كانت لها عاصمة خاصة عُرفت باسم المختارة ، كما كان لها جيش وشعار وعلم ، وعلاقات خارجية ، علاوة على تبنيها منهجًا فكريًا معينًا ، قام على أساسه نظام اجتماعي واقتصادي استهدف إرساء أسس وقواعد إصلاحية معينة وهذه السمات هي التي تشكل الهيكل العام للدولة عادة .

(١) الطبري ، جـ ٩ ، ص ٤١٨ ، و٤١٩ .   (٢) عصر الدول الإقليمية ، ص٢١٨ ، و٢١٩ ، د/ حامد غنيم .

نلاحظ فيما مضى أن حركة الخوارج في عمومها قد اصطبغت بصبغة دينية ، كما جاءت معارضتها للسلطة القائمة ضمن مفاهيم ومبادئ وأهداف من داخل الإطار الإسلامي ، وإن صدرت في أحايين كثيرة عن فهم عقيم لنصوص الكتاب والسنة .

لذا فقد انضوى تحت رايتها عدد كبير من القبائل العربية كان من أهمها بنو حنيفة ، وبكر بن وائل ، وعشائر الأزد ، وعبد القيس ، فقد لعبت كل من هذه القبائل دورًا بارزًا في تلك الحركة من أول نشأتها ، وإن اختلفت تلك الأدوار من حيث القوة والضعف والاستمرار وسرعة الزوال من مكان إلى مكان ومن وقت إلى وقت ، فقد لاحظنا مما مضى أن حركة الخوارج ، بدأت من اليمامة معتمدة على قبائل بكر وبني حنيفة المنتشرة هناك ، وقد كانت مواقف قبائل البحرين من حركة اليمامة هذه مواقف متباينة ، فقد رفضت عبد القيس دعوة نجدة بن عامر لهم بالإنخراط في تلك الحركة ، ودخلوا معه في صراع مرير انتهى بهزيمتهم ، وذلك لأسباب منها : حرص عبد القيس على احتفاظ بلادهم بشخصيتها المستقلة حيث كانت تشكل بموقعها الجغرافي وطبيعة اقتصادها ، وخصائصها الحضارية وحدة قائمة بذاتها يفصلها عن سائر جزيرة العرب رمال الصمان والدهناء كما أن للعصبية القبلية دورًا ملحوظًا في تبني ذلك الموقف ، إذ كانت حركة الخوارج آنذاك قد اعتمدت بصورة أساسية على قبائل بكر وحنيفة ، أما الأزد فلكونهم أقلية في البحرين فقد رأوا أن إنضمامهم إلى هذه الحركة سيقوي مركزهم ويحقق لهم الكثير من المصالح التي تنافسهم عليها عشائر عبد القيس ، فانحازوا إلى جانب الخوارج متذرعين بدعوة إنكار نجدة للجور .

بيد أن عبد القيس التي قاومت الخوارج «النجدات» أصبحت فيما بعد تتصدر حركة الخروج والتمرد على مركز الخلافة. ولكن بدوافع غير دوافع النجدات ، ومقاصد غير مقاصدهم لأن النجدات كانت تتحرك ضمن الإطار العام للإتجاه الخارجي الذي برز بعد قضية التحكيم بين علي ومعاوية أما حركات خروج بني عبد القيس في البحرين ، فقد جاءت بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم ، جراء إنحراف مسار سياسة الخلفاء الأمويين والعباسيين لأقاليم شبه الجزيرة العربية ، وإهمال شئونها وتحويلها إلى أرض خصبة لزرع شتى الدعوات والعقائد والأفكار المتنوعة ، وبدافع الرغبة في تصحيح مسار تلك السياسة كإصلاح الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم ، قامت انتفاضات متعددة فشلت في إطفاء جذوتها جميع الوسائل القمعية التي مارستها معها سلطة الخلافة ، فقد ظل مسلسل العنف المتبادل

بين عبد القيس والسلطة القائمة حتى إنحسر في نهاية المطاف ظل تلك السلطة عن بلاد البحرين لتحل محلها زعامات محلية خالصة من بني عبد القيس الذين قويت شوكتهم وتعاظمت قوتهم ، حتى تم لهم الاستيلاء على مقاليد الحكم في بلادهم ، ولم يتركوا فيها للدولة العباسية موضع قدم ، كما تؤيد ذلك شواهد التاريخ (١). غير أن تلك الزعامات لم تنجح في توحيد صفوفها تحت لواء واحد بسبب التنافس على الشرف والرياسة الذي لم يهدأ أواره بين شيوخها فصارت بالتالي غرضًا لطمع الطامعين ، وبحلول عام ٢٨٧هـ توارت تلك الزعامات تمامًا عن المسرح السياسي على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي.

ومن أشهر تلك الإمارات مملكة آل مسمار من عبد القيس في القطيف ، وزعامة بني مالك بن عامر في هجر ، وزعامة عياش بن سعيد بن محارب من عبد القيس ، وكان يقيم بجبل الشبعان ، وقد أورد ابن لعبون نصًا واضح الدلالة على تسلم بني عبد القيس مقاليد الحكم في البحرين وانبثاق ممالك بزعامتهم فهو يقول عند الكلام عن بطون عبد القيس ، ومن ربيعة بنو عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة وولد عبد القيس أفصى واللبؤ ، وولد أفصى شنًا ولكيزا وأما اللبؤ وإخوته لأمه بكر وتغلب وعنز (وكانوا أحد رجال العرب الستة) فكانت مملكتهم هجر والبحرين والقطيف ونواحيها ، ولم يزالوا يتداولون الولاية حتى كان آخرهم بني العياش بن سعيد رئيس بني محارب ابن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ، والعريان رئيس بني مالك بن عامر وهوالعريان بن إبراهيم بن الزحاف بن العريان بن مورق بن رجاء بن بشر بن صهبان بن الحارث بن وهب بن ضبة بن كعب بن عامر بن معاوية بن عبد الله بن مالك عامر البطن المشهور الذي نسب إليه عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة وذلك أن عبد القيس حين اختلفت كلمتهم ووهن أمرهم بالبحرين فوثب القرمطي أبو سعيد الحسن بن بهرام على القطيف وهو يومئذ ضامن مكوسها وفرضتها وقد جمع مالاً عظيمًا استمال به قلوب الناس وكانت رئاسة القطيف يومئذ لبني جذيمة بن عوف بن بكر بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة ، فجمع أبو سعيد جيشًا عظيمًا من أهلها ومن البادية ومن أهل عمان وحاربهم حتى ملكها بعد أن أحرق الزارة (٢) وهي دار مملكتها، ثم سار إلى الأحساء بجموع عظيمة وفيها آل العياش وآل العريان ومن يتعلق بهم وحاربهم حتى هزمهم وملك الأحساء .

---

(١) تاريخ هجر ، ج٢ ط٢ ، ص٨٦ .

(٢) في الأصل (اللزازة) والصواب الزارة .

جـ : الإباضيـــــة :

الإباضية بفتح الهمزة أو كسرها إحدى الفرق الرئيسية في الفكر الخارجي ، وترجع أصول هذه الفرقة إلى عدد من التابعين وتابعيهم (كجابر بن زيد) (١) ، (وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة) (٢) ، (والربيع بن حبيب) (٣) ، وغيرهم إلى جانب عبد الله بن أباض (٤) ، ويعد الأباضية جابر بن زيد المؤسس الحقيقي لمذهبهم ، لقد كان مفتيهم وفقيههم وصاحب اليد الطولي في نشر الاتجاه الإباضي وإعطاءه صبغة الإعتدال التي ميزته عن سائر الاتجاهات في الفكر الخارجي .

أما ابن إباض فقد كان المسئول الرئيسي عن الدعوة والدعاة في مختلف البلاد (٥) .

ولأن هذه الفرقة قد اتخذت منحا سريا في نشر مبادئها ، فقد فضلت أن تُعرف بنسبتها إلى عبد الله بن أباض لكونه الوحيد المعروف في الساحة الإعلامية لدى

---

(١) هو أبو الشعثاء ولد سنة ٢١هـ وتوفى في سنة ٩٣هـ، روى عن عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وابن الزبير ، والحكم بن عمرو الغفاري ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم ، وروي له البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأخذ عنه عمرو بن دينار وقتادة ويعلي بن مسلم وعمرو بن هرم وغيرهم ، وقال فيه إياس بن معاوية : أدركت الناس ومالهم مفت غير جابر بن زيد ، وكان لا يعترف بصلته بجماعة الأباضية، رغم أن يحيى بن معين يذكر انتسابه إلى هذه الفئة، يروى ابن حجر عن داود ابن أبي هند عن عسرة قوله : دخلت على جابر بن زيد فقلت إن هؤلاء القوم ينتحلونك يعني الأباضية قال أبرئ إلى الله من ذلك ، أنظر الخوارج والشيعة ، ص٧٦، و٧٧ .

(٢) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ، أخذ االعلم عن جابر بن زيد وصحار العبدي وجعفر السماك، تولى رئاسة الأباضية بعد جابر ، وقد أدرك جابر بن زيد والصحابة الذين كان جابر قد أدركهم وروى عن أنس بن مالك، وجابر بن مالك وسواهم، وتوفى في ولاية أبي جعفر المنصور من ١٣٦ : ١٥٨هـ، وبإشارة من جابر بن زيد أسس الأباضية دول مستقلة في كل من المغرب وحضرموت وعلى يديه تخرج رجال من بلدان شتى عُرفوا بحملة العلم ، عملوا على نشر المذهب الأباضي في مختلف البلاد الإسلامية. ترجم له خليفة بن خياط في كتاب الطبقات باعتباره أحد أئمة الحديث .

(٣) الربيع بن حبيب الفراهيدي أصله من قدفان من نواحي عُمان قصد البصرة وأدرك جابر وأخذ عنه، وآلت إليه رئاسة المذهب بعد أبي عبيدة وتخرج عليه حملة العلم إلى عُمان وخراسان وحضرموت وفي آخر عمره رحل إلى عُمان وتوفى بها في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وجاء في بعض الروايات أنه توفى عام ١٧٠هـ .

(٤) عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس ، أنظر العقود الفضية ، ص١٢١ .

(٥) أنظر الأصول التاريخية للفرقة الأباضية ، ص٢٩ ، عوض محمد خليفات .

السلطة الأموية ، في حين تظل الأدمغة المفكرة والمخططة لهذ الفرقة تعمل في الخفاء ، وفي مأمن من أعين الرقباء ، لذا فإن الإباضية لم تستعمل هذا الاسم إلا في أواخر القرن الثالث الهجري ، وكانوا قبل ذلك يعبرون عن أنفسهم باسم أهل الدعوة أو جماعة المسلمين (١) ، وقد مرّ بك فيما سبق من الحديث إن نافع بن الأزرق كان قد كتب إلى عبد الله بن أباض وابن صفار صاحب الصفرية ، وغيرهما يدعوهما ومن معهما إلى معتقده الفاسد وآرائه المتطرفة في تكفير القعدة والقول بشرك مخالفيهم واستباحة دمائهم وقتل أطفالهم وسبى نسائهم وغنيمة أموالهم ، وكيف أن عبد الله بن أباض حين قرأ كتاب نافع أظهر استنكاره لما جاء فيه قائلاً عن نافع : قاتله الله أي رأي رأى ! صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين ، إن القوم برءاء من الشرك ، ولكنهم كفار بالنعم والأحكام ، ولا يحل لنا إلا دماؤهم وما سوي ذلك من أموالهم فهو حرام علينا (٢) .

كما تحدثت المصادر بأن جماعة من الخوارج فيهم نافع بن الأزرق وعبد الله بن أباض قد عقدوا العزم على مغادرة البصرة في إثر مصرع أبي بلال الخارجي (٣) ، وفي الليلة التي قرروا الخروج فيها لفت انتباه ابن أباض دوى القراء ورنين المؤذنين وحنين المسبحين فقال لأصحابه : أعن هؤلاء أخرج معهم ، فرجع وكتم أمره وتوارى عن الأنظار .

وقد اختلف المؤرخون في أصل الأباضية ، فبعضهم يعتبر جابر بن زيد المؤسس الحقيقي لها ، في حين يرى آخرون نسبتها إلى عبد الله بن أباض ويرجح الرأي الأول ما ذهب إليه الشماخي من القول بأن ابن أباض يصدر في أمره عن رأي جابر بن

---

(١) النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية ، ص١٥ ، عوض محمد خليفات .

(٢) العقود الفضية ، ص١٢٣ ، سالم بن حمد بن سليمان بن حميد العماني .

(٣) أبو بلال مرداس بن عمر التميمي من أبرز أئمة المحكمة الأولى، وجميع فرق الخوارج تعتبره إمامًا من أئمتها، بيد أن الأباضية هي أكثر تلك الفرق تأثرًا بسيرته ، فقد اشتهر بالزهد والتقوى وحسن السيرة ، وقد خرج في سنة ٦١هـ على عبيد الله بن زياد حين ضيق على خوارج البصرة ، وكان عدد ممن خرج معه ٤٠ رجلاً نزلوا بقرية آسك من الأحواز ، ولم يكن يدّعى هجرة ولم ينتحلها، كما أنه لم يخف أمنًا ولم يستحل استعراضًا، ولا يغنم أموالاً ، ولم يسب ذرية، وكان يقبل أخذ العطاء من السلطان الجائر وهو يلقي الحجة في الحرب على المخالف المسلم ، ولا يقاتل إلا من قاتله ، وكان لسيرته هذه أثرًا واضحاً في تصرفات الأباضية. كما كان لآرائه بصمات جلية في فقههم ، قُتل على يد عبّاد بن الأخضر في موقعة آسك سنة ٦١هـ .

زيد ، وكذلك قول الرقيشي (أن أبا بلال مرداس بن جابر وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم جابر بن زيد العُماني رحمه الله ومشورته ، ويحبون ستره عن الحرب ، كي لا تموت دعوتهم وليكن رداء لهم) (١) .

من هنا يمكن القول أن ابن أباض لم يكن سوى شخصية تعتبر في منطق العصر الناطق الرسمي باسم الأباضية ، لذا نُسب المذهب إليه لكونه الواضح في الدوائر الإعلامية ، والمعروف الوحيد لدى السلطة الأموية باعتباره أحد قادة المحكمة المعتدلين من الخوارج الأول .

النشاط السري للحركة الإباضية :

تتحدث المصادر عن مرحلة الكتمان والمجالس السرية لنشاط الدعوة الإباضية كما أن الفقه الأباضي قد تأثر إلى حد ما بالظروف التي مرت الدعوة بها في مرحلة الكتمان ، بحيث أصبح للمسألة الواحدة في مرحلة الكتمان حكم وفي مرحلة الظهور حكم آخر ، ولاشك أن هذا الأسلوب الحركي الدقيق قد أسهم بشكل كبير في انتشار الدعوة الأباضية ونجاحها في تأسيس عدة دول كان أهمها وأطولها عمرًا الدولة الأباضية الإمامية في عُمان كما ضمن لهذا المذهب الاستمرار والبقاء على خارطة الحياة الفكرية حتى العصر الحاضر .

وتشير بعض النصوص إلى أن الإمام جابر بن زيد كان المسئول عن التنظيم السري للنشاط الإباضي ، ومن ذلك ما رواه جابر نفسه حين أُعتقل شيخ الدعوة الأباضية المدعو أبو سفيان قنبر وكان شيخًا كبيرًا أُخذ وجُلد أربعمائة سوط على أن يدل على أحد من المسلمين فلم يفعل . قال جابر بن زيد : (وكنت قريبًا منه وما كنت أنظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله) (٢) .

ولعل من أهم الأسباب التي ساعدت على نجاح التنظيم الإباضي وإتساعه ما أظهره الدعاة في تلك الفترة من قوة وثبات أمام السلطات الأموية والحيطة والحذر في تحركاتهم وإجتماعاتهم . الأمر التي جعل السلطة الأموية في البصرة عاجزة عن معرفة رؤساء هذا التنظيم ومجالسهم السرية أو امتلاك الدلائل المادية التي تبرر القبض على من تشتبه فيه منهم .

---

(١) مصباح الظلام للرقيشي ، ورقة ٢٠ .
(٢) السير للشماخي ، ص٩٣ .

قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل : [وما بلغنا أنهم ظفروا بهم في مجلس قط ، إلا أنهم كانوا ذات مرة في عهد زياد ، وإنه أتاهم الخبر بأن الخيل تريدهم فخرجوا مسرعين وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه فجاء الشُرط فنظروا إلى النعال فقالوا للعجوز صاحبة البيت ما هذه النعال فقالت مُكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها .

فقالوا : بالله ما ذلك ما ذكرتيه إن هذا موضع ريبة فقال بعضهم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلا فلعلها أن تكون صادقة ، قال فعافاها الله منهم] (١).

كما كانوا يحضرون إلى تلك المجالس أيام زياد وابنه في هيئة النساء بالنقاب ، تشبهًا بالنساء إمعانًا في التخفي ، حتى أن بعضهم كان يحمل على ظهره جرة ماء أو بعض الأمتعة ليبدو وكأنه أحد الباعة إلى أن يدخل المجلس الذي فيه تعقد اجتماعاتهم السرية .

وفي ذلك دلالة واضحة على دقة التنظيم وسريته وحماية الاجتماعات التي تتم في ظله بنشر العيون حول تلك المجالس لتنقل لهم في أقصى سرعة ممكنة أخبار الجهات الرسمية التي تسعى لتعقب آثارهم .

أما من ينشق عن الدعوة الأباضية فإنهم يوجبون بغضه وعداوته ويدعونه وشأنه ولا يمسونه بسوء إذا اكتفى بالإنشقاق عنهم ولم يحاول الإرشاد إليهم ، أو إفشاء شيء من أسرارهم .

أما إذا فعل ما يعرضهم للخطر فإن قتله عندهم أفضل أنواع الجهاد ، سُئل جابر ابن زيد ذات يوم عن أي الجهاد أفضل ، فأجاب السائل بقوله : أفضل الجهاد قتل (خردلة) ، فأخذ أحد الغلمان الأباضية خنجر كان مع رجل منهم وطلب منه أن يدله على خردلة ففعل فقتله الغلام في المسجد ، وكان خردلة هذا أحد الأباضية وقد انشق عنهم وأخذ يطعن فيهم ويدل على عوراتهم .

ومن هنا استحل جابر قتله معتبرًا ذلك أفضل أنواع الجهاد (٢) .

---

(١) تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى ، ص١١٥ ، د/ فاروق عمر .

(٢) تاريخ الخليج العربي ، ص١١٥ ، د/ فاروق عمر .

إن هذه النصوص والإجراءات التي مرت بنا تعكس بوضوح مدى ما كان يعترض رجال هذه الدعوة من الخطر الجسيم ، الذي كان يتهدد دعوتهم من السلطات الأموية ، وما كان يتعرض له هؤلاء الدعاة من تعقب ومضايقة من قبل السلطة القائمة ، كما تبين مقدرة قادة هذا التنظيم الفائقة ودقة الإجراءات التي دأبوا على ممارستها في تعزيز دعوتهم ، والعمل على بلورتها ، وتحقيق أهدافها ، إلا أن الحجاج بن يوسف الثقفي وجد في النشاط المتنامي لدى جابر بن زيد وأتباعه خطرًا يهدد سلطته فبادر بنفيه إلى عُمان ومعه داع آخر يُدعى هبيرة (١) .

وقد كان هذا النفي نقطة الإنطلاق نحو مرحلة الظهور كما سنرى ذلك فيما بعد .

وإذا كان جابر بن زيد قد أسهم إسهامًا كبيرًا في النشاط السري للدعوة في العقد السادس من القرن الأول الهجري ، فإن هذا التنظيم قد بلغ قمة نشاطه على يد أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الملقب بالقفاف ، حيث كان يتخذ من صنع القفاف ستارًا يخفي ورائه نشاطه السري في مجال الدعوة (٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا اللقب من أعلى الألقاب التكريمية في النشاط الإباضي. وقد ألقى الحجاج القبض عليه وعلى أحد أصحابه من رجال الدعوة المدعو (ضمام بن السائد) وزج بهما في السجن (٣) ، وقد ظل رهن الاعتقال حتى مات الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ (٧١٣م) ، إلا أن أمرهما لم يكتشف رغم ما تعرضا له من تنكيل واضطهاد مما يدل على صلابة موقفهما وإخلاصهما للدعوة التي نهضا بأعبائها .

ومات أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة فقام مقامه في رئاسة التنظيم السري للأباضية في البصرة الربيع بن حبيب الفرهودي ، وفي أيامه أخذ نشاط الدعوة الأباضية في البصرة في التلاشي والضعف ، حيث بدء الدعاة يغادرون البصرة متجهين إلى الأماكن التي تمكنوا من إقامة الدول الأباضية بها ، ومنها عُمان على وجه الخصوص لينعموا بالعيش في ظل النظم والتعاليم التي ناضلوا طويلاً في سبيل إبرازها إلى حيز الوجود (٤) .

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص١١٦ ، د/ فاروق عمر . (٢) المرجع السابق ، ص١١٧ .
(٣) المرجع السابق . (٤) تاريخ الخليج العربي ، ص١١٩ ، د/ فاروق عمر .

ولعل من أهم نجاح هذه الحركة في إقامة عدد من الدول الإباضية في نواح شتى من البلاد الإسلامية وإخفاق غيرها من الحركات في تحقيق مثل هذه المكاسب يرجع للأسباب الآتية :

المؤهلات القيادية الفائقة لإدارة الحركة وتنظيمها ، وسياستها الدقيقة في إظهار المهادنة للسلطة الحاكمة مع الاستعداد المستمر لاقتناص الفرص في تحقيق الأهداف ، الأمر الذي جعل رجال هذه الدعوة في منأى عن الوقوع في قبضة الجهات المعنية بمراقبة سلوكهم ومحاولة كشف نشاطهم (١) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هؤلاء الدعاة ظلوا ملتزمين بإسلوب المهادنة والمسالمة في التعامل مع السلطات الحاكمة في الدولتين الأموية والعباسية ، حتى بعد نجاحهم في تأسيس دول أباضية خاصة بهم على أجزاء من ممتلكات هاتين الدولتين .

يؤكد ذلك اكتفاء الحجاج بن يوسف الثقفي بسجن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة المرجع الأعلى للأباضية ، إبان ثورة اليمن وعُمان وثوراتهم بالمغرب (٢) ، دون قتله حيث لم تتوفر لديه المعلومات الكافية عن مدى صلته بهذه الثورات .

علمًا بأن اتجاهه الأباضي لم يكن خافيًا عن الحجاج أو غيره من رجال الدولة الأموية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، عدم تدخل الخلفاء في شئون الدويلات الأباضية ، والإحجام عن القضاء عليها والاصطدام بها إلا في بعض الظروف الخاصة .

النشاط الإباضي في عُمان :

ظلت الشئون العمانية خلال العصر الأموي تدار من البصرة ولم يعين الأمويون عليها ولاة مباشرين بصورة مستمرة ، وفي الحالات القليلة التي يتم فيها تعيين والٍ مباشر عليها فإن سلطته الفعلية تظل قاصرة على المدن والمراكز الساحلية ، أما سلطته على القبائل الداخلية فهي محدودة إلى حد كبير ، ولكن ثورة أزد عُمان بقيادة سعيد

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص١١٩ ، د/ فاروق عمر .   (٢) المرجع السابق ، ص١١٩، و١٢٠ .

وسليمان ابنا عبّاد الجلندي حملت الحجاج بن يوسف الثقفي على إرسال حملة عسكرية إلى عُمان بقيادة قاسم المازني (١) ، ولكنها لم تعد بطائل. فوضع الحجاج الأزد في البصرة تحت المراقبة وأرسل إلى عُمان جيشًا كبيرًا من فرقتين بعث بإحداها عن طريق البحر ، والأخرى عن طريق البر ، وذلك بقيادة مجاعة المازني ، فاشتبك الأسطول البحري بعساكر سعيد وهزمها فرجعت القهقري إلى الداخل ، في حين إلتحم سليمان بالفريق البري فتغلب عليه ثم عاد فانضم إلى أخيه وأعادا الكرة على الجيش الأموي فأنزلا به هزيمة كبيرة وحتى يقطعا على المنهزمين خط الرجعة قاما بإحراق سفنهم (٢) .

فتراجع مجاعة المازني بمن بقي معه فنزل جلفار واعتصم بها وكتب إلى الحجاج مستنجدًا فأرسل الحجاج جيشًا آخر بقيادة عبد الرحمن بن سليمان تمكن من إنزال الهزيمة بأهل عمان ودحرهم والتنكيل بالأزد ولم يكتف الحجاج بما قام به قائده من أعمال انتقامية ضد الأزد في عمان فقام هو الآخر بمضايقة الأزد في البصرة ، وممارسة الضغط عليهم كما أقنع الخليفة بالحد من التعامل مع الأزديين وعزل يزيد بن المهلب من ولاية خراسان ، وسجنه مع بعض أفراد أسرته ، ونفى العديد من زعماء الأزد من البصرة وكان بينهم جابر بن زيد إلى عمان (٣) ، فكانت فرصة إهتبلها جابر للدعوة لمذهبه في وطنه عمان . وقد فرّ سعيد وسليمان ابنا عباد الجلندي إلى بلاد الزنج في شرق إفريقية ، أو إلى الجبل الأخضر ، حيث كانا على معرفة تامة بها بسبب الروابط القديمة التجارية معها.

وكانت سياسة الوالي الأموي الخيار بن صبرة المجاشعي على عمان بالغة القسوة ، وبمجيء سليمان بن عبد الملك إلى الخلافة تغيرت سياسة الأمويين تجاه آل مهلب والأزد بصورة عامة ، فعين يزيد بن المهلب واليًا على العراق ، وعين أخاه واليًا على عُمان (٤) .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة إعتقل يزيد بن المهلب وأبقاه في السجن طيلة أيام خلافته . كما أعتقل أيضًا أخوته وأقاربه ، وأودعوا السجن في البصرة (٥) .

---

(١) تاريخ الخليج العربي ، ص ١٢٠ ، د/ فاروق عمر . (٢) المرجع السابق ، ص١٢٠ .
(٣) تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى ، ص١٢٠ ، د/ فاروق عمر .
(٤) المرجع السابق ، ص١٢٠ . (٥) المرجع السابق ، ص١٢١ .

ونظرًا لما تميزت به سياسة هذا الخليفة من مرونة وتسامح مع المعارضة فقد استقبل وفدًا خارجيًا ضم عددًا من أباضية عمان ، ويلاحظ الباحثون أن زعماء الأباضية في البصرة قد انتهزوا هذه الفرصة لتنظيم حركتهم ونشرها لأجل تأسيس إمامة الظهور ، وانتخاب خليفة للمسلمين من بين أتباع الدعوة ، ويشير الدكتور خليفات إلى دور الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في تطوير المجالس السرية وأثر ذلك في سرعة انتشار الدعوة على أسس متينة ، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك ثار يزيد ابن المهلب واستولى على البصرة وأطلق سراح إخوته وأتباعه من سجنها ، وبسط نفوذه على الأحواز وكرمان وفارس وعمان التي أسند إدارتها إلى أخيه مرة أخرى ، وفي سنة ١٠٢هـ (٧٢٠م) ، ألقى الأمويون القبض على يزيد بن المهلب وأعدموه ، وبالرغم من تدهور الأوضاع السياسية والأمنية في الدولة الأموية إبان تلك الفترة واستياء الأزد الشديد مما يحل بالمهالبة على يد الأمويين ، ومحاولة الضغط على أبي عبيدة كي يعلن الثورة بالخروج على السلطة ، فإنه كان بالغ الحذر فلم يستجب لهذه الضغوط ، وآثر الانتظار وعدم التسرع تفاديًا لأي انتكاسة قد يتعرض لها التنظيم الأباضي في طريق انتقاله من مرحلة الكتمان إلى مرحلة الظهور .

لقد كانت عمان على صلة بحركات الخوارج وآرائهم منذ الأيام الأولى لظهور تلك الحركات ، ونتيجة لمتانة تلك الصلات وعمقها فقد أصبحت عمان صعيدًا ملائمًا لظهور الإمامة الأباضية سنة ١٣٢هـ ، إذ وجد الدعاة في تدهور الأوضاع السياسية والأمنية أثناء زوال الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية في ذلك العام فرصة مواتية للانتقال بالتنظيم الإباضي من مرحلة الكتمان إلى مرحلة الظهور ، فبايعوا بالإمامة لجلندي بن مسعود في عُمان ، وحثوا المسلمين على الانضواء تحت راية ذلك الإمام [١] .

ومن هنا نلاحظ أن التنظيم الأباضي الذي تم زرع بذوره في البصرة قد ازدهر وآتى أكله في عمان بقيام إمامة إباضية استمرت معظم المدة الممتدة من أواخر القرن الثامن الميلادي إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

باستثناء فترة بلغت زهاء مائتين وستين عامًا من (٥٤٩هـ) حينما حصل بنو نبهان على السلطة وأسسوا دولة في سلالة الملوك [٢] الذين حكموا معظم الجزء الداخلي من عمان .

(١) تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى ، ص١٤٢ ، د/ فاروق عمر .
(٢) الخليج العربي ، ص١٥٤ ، السير ويلسون .

باستثناء هذه الفترة ظلت عمان تحت حكم سلسلة طويلة من الأئمة المنتخبين الذين جمعوا بين السلطتين الدينية والإدارية ، وكانوا يختارون في الغالب من قبائل الأزد الهناويين ، والكنديين ، أو اليعاربة وكانت عواصمهم في المدن الداخلية (١) .

فهم إما نزوى ، أو أزكى ، أو بهلة ، أو رستاق ، أو يبرن ، وتاريخ هذه الفترة مدون بالتفصيل في كشف الغُمة ، وهو عبارة عن قصة خصومات ما بين القبائل ومؤامرات من أجل السلطة مما لا طائل تحت سرده على القارئ .

وقد بدأت تلك الصراعات العرقية والقبلية حين خمدت جذوة الحماس لمبادئ الدعوة في نفوس أتباعها ، وطفت على السطح المصالح والأطماع الشخصية ، وكانت الشرارة الأولى في ذلك الصراع المرير قد انطلقت من مسألة عزل (الصلت بن مالك) عن الإمامة ، حيث كانت محور جميع الانشقاقات والفتن التالية ، التي أسهمت في إشعال الحروب الأهلية وإحياء العصبيات ، وإحلال الطموح للرئاسة والاستئثار بالسلطة محل القيم والمبادئ التي ضحى رجال الدعوة الأباضية الأوائل في سبيل إرساء دعائمها .

فقد كان من نتائج تلك المسألة المباشرة زوال الإمامة الأباضية سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣م) ، في إثر صراع قبلي محموم لم يتورع بعض أطراف النزاع فيه عن طلب تدخل قوى خارجية أسفر تدخلها عن تخضيب شوكة جميع الأطراف وحسم الأمر لحسابها .

فقد جاء في المصادر التاريخية أن النزارية قد أوفدت محمد بن القاسم ، وبشير بن المنذر إلى والي الخلافة العباسية على البحرين محمد بن نور (٢) ، فشكيا إليه ما تقاسيه عشائرهما من ظروف قاسية على أيدي الحميرية وسألاه النجدة والمؤازرة ، وأغرياه بأشياء كثيرة في عمان ، فطلب منهما الاتصال بالخليفة العباسي المعتضد والحصول منه على الإذن بذلك وذلك في ٢٧٩هـ (٧٩٢م) ، وصدرت أوامر الخليفة العباسي إلى والي البحرين لتجهيز حملة عسكرية وإرسالها إلى عمان فجهز جيشًا من ٢٥ ألف مقاتل كان معظم أفراده من عشائر طيء ونزار ، فسار إلى عمان ، وبعد معارك طاحنة تمكن جيش البحرين من دحر عساكر الإمام وقتله وإرسال رأسه إلى الخليفة في بغداد (٣) .

---

(١) الخليج العربي ، ص١٥٤ ، السير ويلسون .

(٢) الخليج العربي ، ص١٥٥ ، السير ويلسون ، تاريخ الخليج العربي ، ص٢٠٤ ، د/ فاروق عمر .

(٣) المرجع السابق ، ص١٥٥ ، تاريخ الخليج العربي ، ص٢٠٥ ، د/ فاروق عمر .

وقد غادرت عدة عائلات من عُمان إلى هرمز والبصرة وشيراز وحكم نور في نزوى بيد من حديد ، فصمل الآذان ، وسبل العيون وقطع الأيدي ، وأنزل بالسكان مالم يسمع بمثله من الإهانات ، ودمر الممرات المائية ، وأحرق الكتب ، وعمل عامدًا على إقفار البلاد وتدميرها (١) .

وحينما رجع نور إلى البحرين أقام وكيلاً عنه لإدارة شئون عمان ، ولكن ذلك الوكيل ذهب ضحية ثأر الشعب الساخط الهائج وبعد هذه الحادثة انتخب مالا يقل عن سبعة أئمة على التوالي خلال ثلاثين عامًا (٢) .

وقد كان شعب عمان عرضة خلال فترات متقطعة لدفع أتاوة للخلفاء ومن ثم وفي أكثر من مناسبة غزت قوات الخلفاء عُمان ، وفي بعض الأحيان يتم ذلك بطلب من أهلها للمساعدة في إنهاء الصراعات والخصومات الداخلية (٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخلافة العباسية رغم قوتها وبخاصة في عهد الرعيل الأول من حكامها ، فإن سلطتها على عُمان ظلت إسمية فحسب ، وفي أفضل الأحوال لا تتجاوز السيطرة على المناطق الساحلية لتأمين سبل الملاحة والتجارة المارة عبر الخليج ، وضمان تدفق السلع القادمة من الهند والصين على بغداد للحاجة الماسة إليها من جهة ، ولما تدر به على خزانة الدولة من أموال الأتاوات والمكوس من جهة أخرى (٤) ، وقد حاول البويهيون فرض السيطرة المباشرة على عمان فوجهوا إليها حملة عسكرية قوية بذل حاكم عمان (يوسف بن وجيه) كل ما في وسعه في التصدي لها فاستنفر القرامطة ، وناشدهم النجدة والمساعدة ولكنهم خذلوه ، ونجح البويهيون في التغلب عليه ، وإنزال الهزيمة بعساكره (٥) .

وفي سنة ٣٥٥هـ (٩٦٦م) ، تمكن البويهيون من اخضاع السواحل العمانية لسيطرتهم وأسندوا إدارة شئونها إلى والي من قبلهم ظل يمارس سلطته علي تلك السواحل حتى تمكن أهل عمان من البطش به واغتياله سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م) فعادت الأوضاع في عمان إلى ما كانت عليه قبل السيطرة البويهية ، إلا أن البويهين لم يصرفوا النظر عن هذه السواحل فقام عضد الدولة البويهي بإخضاعها لنفوذه وأقام مع القرامطة علاقات اقتصادية كان من نتائجها الاتفاق على اقتسام عائدات صيد

(١) الخليج العربي ، ص ١٥٥ ، السير ويلسون . (٢) تاريخ الخليج العربي ، ص٢٠٥ ، د/ فاروق عمر .

(٣) الخليج العربي ، ص١٥٦ ، السير ويلسون . (٤) تاريخ الخليج العربي ، ص١٩٥ ، د/ فاروق عمر .

(٥) المرجع السابق .

اللؤلؤ ومكوس التجارة المارة عبر الخليج . كما منح بعض وجهاء القرامطة إقطاعات واسعة في أراضي السواد من العراق (١) ، وظلت السيطرة البويهية على سواحل عمان تتذبذب بين القوة والضعف ودون أن تمس بحال عمان الداخل الذي ظل زمام الحكم فيه بقبضة الأئمة الأباضيين وأتباعهم .

وفي حوالي منتصف القرن الثاني عشر حصلت قبيلة نبهان على السلطة وحكمت معظم أجزاء المنطقة الداخلية من البلاد إلى أن أعيدت الإمامة سنة ٨٣٢هـ (٢) ، ومع ذلك فقد استمرت تلك القبيلة تمارس نفوذًا كبيرًا فترة قرنين آخريين إلى أن بدأ خيط الأئمة من اليعاربة سنة ١٠٣٣هـ ، حينذاك انتهى نفوذ النبهانيين ، وفي أثناء حكم ملوك نبهان يروي كشف الغمة أن عمان غُزيت مرتين من جانب فارس مرة على يد أهل شيراز سنة ١٢٦٥هـ ، ومرة أخرى بعد هذه بقليل على يد الأمير محمود بن أحمد الكوسي من هرمز (٣) التي كانت آنذاك إمارة صغيرة من أصل عربي على بر كرمان ، وكان الغزاة من المغوليين الذين كانوا آنذاك سادت أغلب أجزاء بلاد فارس ، وما لبثت الغزاة أن رُدوا في الحادثة الثانية ولكن من كانوا يدّعون بملوك هرمز استمروا يدعون السيادة على المجلس البحري لعمان حتى بداية القرن السادس عشر (٤) ، ويسجل هذا القرن حقيقة هي ظهور البرتغاليين في الخليج .

وصفوة القول أن الحركة الأباضية قد مثلت مسارًا خاصًا في تاريخ الحركات الخارجية لثلاثة أسباب أساسية :

١ ـ النأي عن التطرف والغلو . ٢ ـ إلتزام جانب الاعتدال في الآراء .

٣ ـ الواقعية في المواقف السياسية .

---

(١) التاريخ الإسلامي بالإنجليزية ، ج٢ ، ص١٥٢، و١٦٦، و١٦٧، أنظر أيضًا تاريخ الخليج العربي ، ص١٩٥ ، د/ فاروق عمر .

(٢) الخليج العربي ، ص١٥٦ ، السير ويلسون .

(٣) دمرت إمارة هرمز مؤقتاً على يد المغول ولكنها ما لبثت أن استعادت كيانها على جزيرة جيرون التي تدعى حاليًا باسم هرمز ـ أنظر : الخليج العربي ، ص١٥٦ ، السير ويلسون .

(٤) الخليج العربي ، ص١٥٦ ، السير ويلسون .

العقائد والأحكام في الفكر الإباضي :

يستمد المذهب الإباضي نظرته في العقائد والأحكام الفقهية من آراء علماء الأباضية الأول كجابر بن زيد ، وعبد الله بن أباض ، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، والربيع بن حبيب ، وكذلك من اجتهادات بعض فقهائهم المعاصرين ، ممن كونوا آراءً فقهية ، تتفق في عمومها مع مذهب أو آخر من المذاهب الفقهية ، وإن بدا على بعضها الضعف الذي يمكن تبينه من خلال النظر والتمحيص في مصادره واستدلالاته وإخضاعه للمقارنة والتحليل .

أ ـ عقائد الأباضية :

تلتقي الأباضية مع فرق إسلامية أخرى في كثير من المعتقدات ، بيد أن معظم عقائد الأباضية تشبه إلى حد كبير عقائد المعتزلة ، فهم يذهبون مذهب المعتزلة في تأويل الصفات ، والاستواء ، وإنكار الرؤية يوم القيامة والقول بخلود الفسقة في النار.

بيد أنهم لم يأخذوا بقول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين (١) ، وكان رأيهم في الشفاعة قريبًا من آراء المعتزلة ، حيث قالوا : إن الشفاعة لمن مات على صغيرة أو مات وقد ارتكب ذنبًا نسى أن يتوب منه ، أو لزيادة درجة في الجنة والثواب ، وتشريفاً للمسلمين المنازل أو لتخفيف شدة الموقف على المؤمنين ، وإراحتهم منه إلى الجنة (٢) ، ولا تكون الشفاعة لمن مات مصرًا على الكبيرة غير تائب منها (٣) ، وفيما يتصل بالقرآن تبنى بعض الأباضية في المغرب آراء المعتزلة في القول بخلقه ، في حين ذهبت الأغلبية من الأباضية وبخاصة في المشرق إلى القول بقدمه ، ونفوا القول بخلقه ومن هؤلاء البسيوي الذي قدم العديد من الحجج والبراهين في مجال الرد على من قال بخلق القرآن (٤) .

وذهب الإباضية خلافًا للمعتزلة إلى أن العقل لا يوجب شيئًا من الدين . بل إن الشرع مدار الإيجاب والمنع ، يقول أحد علماء الأباضية بهذا الصدد : وذهب الجمهور

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٩٦ ، د/ الجلي . (٢) المصدر السابق ، ص٩٧ .

(٣) مسند الربيع بن حبيب ، ج٤ ، ص٢٢ ، و٢٣ ، نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٩٧ .

(٤) جامع أبي الحسن البسيوي ، ج١، ص٥٥ : ٦٠ ، نقلاً عن الخوارج والشيعة ، ص٩٧ .

منا إلى أن العقل لا حكم له في شيء من الوجوب الشرعي ، والمراد بالوجوب الشرعي عندنا ، هو ما يترتب عليه الثواب والعقاب ، فلا وجوب عندنا قبل الشرع في شيء من الأصوليات والفرعيات ، لا فرق في ذاك بين التوحيد وغيره ، فإن العقل وإن أدرك بالضرورة أن له صانع لا يوجب أن عليه لذلك الصانع شيئًا من العبادات ، فلا وجوب قبل الشرع لقوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (١) ، وفي مسألة القدر تبنى الأباضية آراء الأشاعرة ، حيث قالوا : إن العالم بأسره جواهره وأعراضه ، وما فيه من خير وشر ، وطاعة ومعصية خلقه الله ودبره ، وإن الله مقدر كل ذلك وصانعه ، ولا شيء من ذلك بخارج عن قدرته وإرادته وعلمه وتقديره سواءً في ذلك ما يضاف إلى العباد ، وما لا يضاف إليهم .

وأن أفعال الإنسان مضافة إليه عن طريق الكسب ، وأثبتوا للإنسان استطاعة على الفعل ، وقالوا كما قال الأشاعرة بأن هذه الاستطاعة تحدث مع الفعل لا قبله ، وأنها موجهة للفعل بعينه ، ومن ثم قالوا إن الله خالق لأفعال الإنسان ، والإنسان مكتسب لها، وبسبب هذا الاكتساب تقع مسئولية الإنسان عن أفعاله (٢) ، كما لا يرون القرشية في الإمامة شرطًا كما يقول صاحب أصدق المناهج ، لأن ذلك يخالف المعقول ، ولم يجعل الله النبوة في قوم خاصين ، فكيف يجعل الإمامة كذلك ، مع أن القرآن لا يدل على ذلك بل يدل على أن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ولم يذهب الأباضية مذهب النجدات في عدم اشتراط الإمامة بل ذهبوا إلى أن الإمامة واجبة وأن عدم نصب الإمام يؤدي إلى إماتة الدين ، ويرون أنه إذا بلغ عدد المسلمين نصف عدد المخالفين في القوة والعلم ، فإن نصب الإمامة الأباضية واجب ، وإذا لم يبلغوا نصف عدد المخالفين قوة ومالا وعلمًا ، فإن أحب الأمور وأولاها عند الأباضية البقاء في حال الكتمان ، اللهم إلا أذا قام أهل الدعوة بما يسمى بحال الشراء (٣) ، ولكن الشراء غير واجب وجوب الظهور وإقامة الدولة (٤) .

(١) الخوارج والشيعة ، ص٩٥ ، د/ الجلي ، بنقله عن مشارق أنوار العقول ، ج١، ص٤٢ أبو محمد بن عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي .

(٢) كتاب الموجز ، ج٢ ، ص١٩٠ ، أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي .

(٣) عمل فدائي يقوم به مالا يقل عن أربعين فرداً بمحض اختيارهم .

(٤) أنظر : الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف ج٢، ص٢٣٦ : ٢٣٨ ، أبوعمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي ، نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٩٧ .

وإذا أقيمت الإمامة فلا يحل الخروج على الإمام العادل ، أما الإمام الجائر فالخروج عليه ليس واجبًا كما يقول الخوارج ، وليس ممنوعًا كما يقول الأشاعرة ومن معها ، وإنما هو جائز يترجح استحسان الخروج إذا غلب على الظن إمكانية نجاحه ويستحسن البقاء تحت الحكم الظالم إذا غلب على الظن عدم نجاح الخروج ، أو خيف أن يؤدي إلى مضرة تلحق المسلمين أو تضعف قوتهم على الأعداء في أي مكان من بلاد الإسلام (١) .

وفي مسألة الفتنة والحكم على من خاضوا فيها يميل الأباضية المعاصرون إلى عدم الخوض في النزاع الذي وقع في صدر الإسلام ، ويقولون إن الموقف الذي ينبغي إتخاذه هو التوقف .

يقول صاحب أصدق المناهج بهذا الخصوص : [إن مما يميز الإباضية حبهم لأبي بكر وعمر ، وكفهم ألسنتهم عن عثمان وعلي لما ألم به من الفتن ، وتقلب الأحوال ، وقبولهم لعمر بن عبد العزيز وتركهم ما سواه من بني أمية وإعراضهم عنهم ، وعن بني العباس معًا] ، وقالوا عن الصحابة أنهم كغيرهم في الأعمال لا في درجة الصحبة والمنزلة الأخروية ، فالعاص منهم كغيره من بعدهم ، واستشهدوا في هذا القول بقوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ ، وأن رسول الله ﷺ قد رجم الزاني منهم ، وجلد الشارب وقطع يد السارق ، وهجر عاصيهم(٢) ، ولهم في عدالة الصحابة ثلاثة أقوال :

القـــول الأول : الصحابة كلهم عدول إلا من فسقه القرآن كالوليد بن عقبة وغيره .

القـــول الثاني : الصحابة كلهم عدول ، ورواياتهم كلها مقبولة إلا في الأحادث المتعلقة بالفتن ممن خاض في الفتنة .

القـــول الثالث : الصحابة كغيرهم من الناس من اشتهر بالعدالة فكذلك ، ومن لم يُعرف حاله بُحث عنه (٣) .

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص٩٨ ، بنقله عن الأباضية مذهب إسلامي معتدل ، ص٢٥ ، و٢٦ .

(٢) العقود الفضية ، ص٢٨٨ ، و٢٨٩ ، نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٩٨ .

(٣) الأباضية مذهب إسلامي معتدل ، ص٣١ ، نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٩٨ .

ب ـ فقـــه الإباضـــية :

أما في الفقه فقد نوّه الشيخ محمد أبو زهرة بجهـــود الأباضيـــة في الفقـه وقال : [ولهم فقه جيد وفيه علماء ممتازون ، ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية ، في المواريث بعض آرائهم ، وذلك في الميراث بولاء العتاقة ، فإن القانون المصري أخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحد الزوجين مع أن المذاهب الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ويسبق الرد على أصحاب الفروض الأقارب] (١) .

ويذهب الأباضية المعاصرون إلى القول بأن مذهبهم الفقهي من أقدم المذاهب الفقهية نشأة وتأسيسًا ، وأنه يمثل في واقعه أقرب الصور إلى حقيقة الإسلام الأصيل بعقائده وفقـهه ومسلك أتباعه ، ويتميز تاريخه الطويل بذلك الصراع المتصل بإقامة وجود سياسي للعقيدة الإسلامية ممثلاً في الإمامة العادلة في حالة الظهور أو في السعي المتصل لإقامتها في مسالك الدين الأخرى في أطوار الدفاع أو الشراء أو الكتمان(٢) .

وتشير هذه المصطلحات عند الأباضية إلى المراحل التي يمكن أن يمر بها المجتمع الإسلامي بالنسبة لتطبيق الشريعة .

فإن كانت الغلبة في المجتمع للمسلمين وكانت أحكام الدين فيه تطبق فهذه مرحلة الظهور وهي أكمل الحالات والتي ينبغي أن تكون عليها الأمة الإسلامية والتي يجب أن تسعى دائمًا لتحقيقها ، ومتى ملك المسلمون القوة والمال والمعرفة بطريقة يستطيعون بها تنفيذ أوامر الله وزاد عددهم عن نصف خصومهم فعليهم إعلان الإمامة واختيار إمام من بينهم ، فإذا إنحط المجتمع عن هذه المرحلة وسيطر على المسلمين أعدائهم فلا ينبغي الاستكانة والخضوع بل ينبغي الثورة ومقاومة الطغيان والخروج على الظلم والفساد والإنحراف عن الدين بكل مظاهره وأشكاله وتمثل هذه المرحلة مسلك الدفاع ومن يقود الناس فيها يسمى إمام الدفاع ، وتجب له الطاعة والإمتثال .

فإذا لم تقم الأمة بهذ الدور وضعفت عن القيام بواجب الدفاع ولم يستجب أفرادها للثورة ، وركنوا إلى الدعة والاستراحة فيمكن أن تقوم طائفة من الأمة بالمسلك الثالث وهو الشراء وهو مسلك طوعي يقوم به جماعة من الأمة لا تقل عن أربعين شخصًا

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص١٢٧ ، محمد أبو زهرة نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٩٩ .

(٢) الخوارج والشيعة ، ص٩٠ ، للجلي بنقله عن أجوبة بن فرخون المقدمة ، ص١٠ : ١٢ .

يضحون بأنفسهم في سبيل الله ، ويعلنون الثورة على الظلم ، ويكون في مسلكهم هذا تشجيعًا للأمة بأسرها على الثورة ورد الظلم .

وإذا لم يتحقق مسلك الشراء دخلت الجماعة بكاملها في مرحلة الكتمان وفي هذه المرحلة يجب على المؤمنين أن يبتعدوا عن مساعدة الظالمين بالامتناع عن تولي وظائفهم وإعانتهم في أعمالهم ، بحيث تقوم مجالس العزابة بإدارة شئون المجتمع بقصد الحفاظ على وحدة الجماعة ونشر تعاليم الدين بين أفرادها ، وتبث فيهم روح الإيمان بالله ، بحيث تكون العلاقة بين المؤمنين والظالمين في أضيق نطاق ، وبقدر ما تمليه الضرورة القصوى (١) .

يقول (الجلي) بأن مرحلة الكتمان تتميز بعدم إنفاذ الواجبات الشرعية التي لا يقوم بها إلا الإمام كالحدود ، وصلاة الجمعة ، وجمع الزكاة والجزية ، وحرب المشركين والطغاة ، وتقسيم الغنائم والزكاة ، لكون هذه الواجبات لا يمكن القيام بها بغير الإمام .

ويمثل الإباضية لمسلك الظهور بخلافة أبي بكر وعمر لمسلك الدفاع بإمامة عبد الله ابن وهب الراسبي ، ولمسلك الشراء بخروج أبي بلال مرداس ومن معه ، ولمسلك الكتمان بالفترة التي كان يعيش فيها جابر بن زيد أبي الشعثاء ، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (٢) .

وقد استمد الأباضية فقههم من نفس المصادر التي استمدت منها المذاهب الفقهية مستخدمين نفس طرق الفقهاء في استنباط الأحكام .

فمصادر أدلة التشريع عندهم هي القرآن والسنة ، والإجماع والقياس والاستدلال ، وينضوي تحت الاستدلال عندهم الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة ، وقد يطلقون على القياس والإجماع والاستدلال كلمة (الرأي) فيقولون بصدد الحديث عن مصادر التشريع هي الكتاب والسنة والرأي ، ويقولون كذلك بأن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم ينسخ ، وقصه الله أو رسوله ﷺ علينا على جهة التشريع إلى غير ذلك من المبادئ الأصولية التي لا تخرج عمومها عما هو مقرر عند علماء الأصول (٣) .

---

(١) الخوارج والشيعة ، د/ الجلي ، ص٩٠ ، بنقله عن الأباضية في موكب التاريخ ، ص٩٣ : ٩٦، والتاريخ الإسلامي، وفكرة القرن العشرين ، ص٢٣ : ٤٢ ، فاروق عمر .

(٢) أنظر الخوارج والشيعة ، ص١٠٠ ، بنقله عن مقدمة التوحيد أبو جعفر عمر بن جميع .

(٣) المصدر السابق ، ص١٠٠ .

وتوجد بعض الإختلافات بين الأباضية وبين المذاهب الفقهية الأخرى في بعض المسائل الفقهية الفرعية ، ويرجع معظم ذلك الخلاف إلى استناد الأباضية في بعض آرائهم إلى بعض الأحاديث الواردة عن أئمتهم والتي لم تثبت عند علماء الحديث .

أو أنهم لم يأخذوا ببعض الأحاديث التي ثبتت صحتها عند غيرهم من الفقهاء ، كما يرجع الخلاف أحيانًا إلى الاختلاف حول تفسير الأباضية للقرآن وفهمهم للسنة .

ومن الأمثلة على ذلك مسألة المسح على الخفين ، فالأباضية أنكروا جواز المسح على الخفين وذهبوا إلى أن الصلاة لا تجوز إلا بغسل الرجلين ، كما ذهبوا إلى القول في التحريم من الرضاع بأن المصة الواحدة كافية للتحريم ، وقد إنفرد الأباضية بالقول أن الركعتين الأولتين من الظهر والعصر يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب فحسب بدون قراءة سورة أخرى .

بينما تجمع المذاهب الأخرى على القول بأن قراءة شيء من القرآن بعد الفاتحة من السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ .

ويبين أحد الإباضية هذا الخلاف واحتجاجهم برأيهم فيقول : وقد اختلفوا (أي المسلمون) في قراءة السورة في الركعتين الأولتين في الظهر وفي العصر ، فقال قوم يقرأ مع فاتحة الكتاب سورة ، وقال آخرون (الحمد) وحدها ، وهو قول أصحابنا وبه أخذنا .

وفي جميع هذه المسائل خالف الأباضية آراء فقهاء جمهور المسلمين الذين اعتبروا هذه المسائل من السنن التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها ، كما خالفوا الأصل الذي بنوا عليه آرائهم حيث اعتبروا كل ما فعله الرسول ﷺ سنة ينبغي الإقتداء به فيها ، وأن عدم مواظبة الرسول على الأمر أو تركه له أحيانًا ما هو إلا للدلالة على عدم وجوبه وحتميته ، ولا يدل على أن الفعل ليس بسنة [1] . بهذا الصدد يشير (الجلي) بأن للأباضية منهجًا محدد في استنباط الأحكام من أدلتها ، ولا يختلفون مع أهل السنة في مسائل جوهرية ، بل حتى فيما خالفوا فيه استندوا إلى أقوال الصحابة ، وإن كان فهمهم واستنباطهم في بعض المسائل التي خالفوا فيها أهل السنة غير مسلم به .

---

(١) الخوارج والشيعة ، ص١٠٣ ، و١٠٤ .

أما الإمام عندهم فيتم إنتخابه في مهرجان كبير يتقاطر للمشاركة فيه العمانيون من مختلف النواحي ، فيجتمع أربعة من زعمائهم بالمرشح في بيته ويعرضون عليه شروطًا معينة فإذا قبل بها خرج هؤلاء من عنده وأعلنوا نتيجة ما توصلوا إليه على الملأ ، ثم يتقدم كبيرهم لمبايعته .

ومن ثم يباشر الإمام مهام عمله المتمثلة في إدارة الشئون المدنية وإقامة الصلاة [(١)].

الأباضية والخوارج :

يحاول كُتّاب الأباضية المعاصرون إخراج الأباضية من دائرة الخوارج ، ولا يرون أن ثمة أي صلة بين الفئتين [(٢)]. مستندين في هذه الدعوة إلى مواقف الأباضية العدائية الصارخة من الأزارقة والصفرية وغيرهما من أصحاب الآراء المتشددة .

ولكن إقرار الأباضية بإنتمائهم إلى المحكّمة الأولى كابن إباض ، وأبي بلال مرداس ابن جبير ، وإلتقائهم مع سائر الخوارج في إنكار التحكيم وعدم إقرارهم بشرعية الحكم الأموي أمور تؤكد صلة الأباضية بالخوارج منذ الأيام الأولى لظهورهم في حركة المعارضة الإسلامية ولكن مبادئ الطائفتين فيما سوى الأمور السالفة الذكر متباينة ، فالأباضية مثلا لا يرون ما تنادي به الأزارقة من الحكم بالشرك على مخالفيهم واستباحة دمائهم وأموالهم ، وقتل ذراريهم وسبى نسائهم ، كما لا يجيزون قتال من لم يقاتلهم ، ولا يستبيحون دماؤهم ، وأخذ أموالهم كغنائم ولا قتل نسائهم وأطفالهم ولا سبيهم ، ولا يعتبرون الخروج فرضًا لازما ، حيث أباحوا لأفراد جماعتهم العيش في ظل حكم الطغاة تقية للضرورة ، كما يرون أن الشراء وبذل النفس أمر طوعيّ إذا فرضه الخارجون على أنفسهم ، وهي آراء تبنى معظمها النجدات من الخوارج .

ويعد الدكتور (الجلي) [(٣)] من التناقض البين إعلان الأباضية براءتهم من الخوارج مع الإقرار بالإنتماء أصلا إلى المحكمة منهم ، اللهم إلا إذا كان الأباضية يقولون بأن الأزارقة والنجدات والصفرية لا تعود أصولهم إلى المحكمة ، وهذا مالا سبيل إلى القول به بأن أحدًا لم يدع وجود خوارج غير الفرقة التي انشقت عن علي برفض التحكيم .

---

(١) الخليج العربي ، ١٥٤ ، البير ويلسون .

(٢) أنظر الجامع الصحيح ، ج١ ، ص٥٩ ، الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي .

(٣) الخوارج والشيعة ، ص٨٥ ، و٨٦ ، د/ الجلي .

خروجًا من هذا المأزق حاول الأباضية المعاصرون أن يثبتوا أن المحكمة أنفسهم لم يكونوا خوارج بالمفهوم المتطرف الذي عُرف به الخوارج الغلاة فيما بعد .

ومن ثم صوّروا خروجهم بأنه خروج من أجل إقرار الحق والتمسك به في البداية ، ثم سعيًا لإزالة الظلم والجور ، وأنهم إنحازوا إلى النهروان من أجل إقامة الخلافة الإسلامية الصحيحة وأنهم بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي على ما بويعت عليه الأئمة من قبله ، ورأوا أنهم الحجة في ذلك العهد ، وأن لهم الحق في ذلك (١) .

كما نفوا عنهم استعراض الناس ، وقتل المسلمين والحكم بكفرهم وغير ذلك من الأفعال والأحكام المنسوبة لحركة الخوارج الأولى في عمومها ، وهذه كما يقول (الجلي) صورة عن المحكمة مخالفة تمامًا بكل ما ورد في كتب التاريخ عنهم ، ولما ذكره كُتاب الفرق عن مبادئهم ولا أعتقد والكلام (للجلي) أن الأباضية الآن يستطيعون أن ينفوا أن المحكمة خرجوا على علي واتهمته طائفة منهم على الأقل بالكفر ، وأنهم قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، أو حموا قاتليه وأنهم قتلوا رسول علي إليهم إبان هذه الحادثة ، وأنهم حكموا بالكفر على عثمان وأصحاب الجمل ، ومعاوية وعمرو بن العاص وأبى موسى الأشعري ، وكل من قبل التحكيم وشارك فيه ، وإذا كان الأمر كذلك فسيكون من الصعب على الأباضية إثبات أن المحكمة لا صلة لها بالخوارج الغلاة ، كما أنه من الصعب أيضًا أن ينفوا انتماء الأباضية إلى الخوارج في الوقت الذي يثبتون فيه أن المحكمة الأولى أصل لهم .

ويرى (الجلي) من الأفضل أن يقول الأباضية إن حركة الخوارج كانت تضم تيارات متعددة وأن سلفهم الأول كانوا يمثلون تيارًا معتدلاً داخل تلك الحركة ، وأن ذلك التيار كان يمثله رجال من أمثال مرداس بن أودية الذي عبّر في أكثر من موقف أنه لم يخرج لفساد في الأرض ، أو يروع الناس كما فعل طوائف من الخوارج ، ولكنه خرج هروبًا من الظلم ، ومن ثم لا يقاتل إلا من يقاتله ، كما كان يمثله أيضًا عبد الله بن أباض الذي اشتهر وعبر بصورة واضحة عن هذا الاتجاه ، ومن ثم حمل المعتدلون اسمه

(١) أصدق المناهج في تمييز الأباضية عن الخوارج ، ص٢٥ ، سالم بن حمود السمائلي نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٨٦ .

وعُرفوا به [1] ومن ثم فإن من الإنصاف أن لا نحمّل هذا التيار تبعة ما قام به الخوارج المتطرفون من أعمال ، وألا نحاكم الأباضية المعاصرين بتاريخ حركة الخوارج بأسرها ، بل يحكم عليهم بما يحكم على غيرهم من المسلمين بمقدار تمسكهم بالإسلام وقيمه واتفاق مبادئهم مع ما جاء في الكتاب الكريم وسنة الرسول ﷺ [2] .

* * *

(١) حركة الأباضية في المشرق العربي ، ص٥٣ : ٥٥ ، مهدي طالب هاشم ، نقلا عن الخوارج والشيعة ، ص٨٧، و٨٨ .

(٢) أنظر : الخوارج والشيعة ، ص٨٩ .

القسم الرابع

الشيعة والتشيع

مدلول التشيع :

تشكل الشيعة قطاعًا بشريًا واسعًا في العالم الإسلامي ، وهم أساسًا أنصار علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، المنادون بأحقيته في إمارة المؤمنين فور إنتقال الرسول الكريم محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ولعل أبرز ما يميز الشيعة عن سواهم من الطوائف نظريتهم في الإمامة فقد كان الشيعة ولا يزالون يعتبرون مسألة الإمامة قاعدة الإسلام الأساسية التي تعتبر تقرير مصيرها من أهم واجبات النبي وذلك بتعين الإمام للمسلمين من قبله ، ودون تفويض الأمر لهم ، باعتبار الإمامة ليست من المصالح العامة التي يفوض أمر البت فيها للأمة لتقلدها من تشاء من أفرادها (١) .

ومن هنا ذهبت تلك الجماعة إلى القول أن النبي الكريم ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده لعلي بن أبي طالب ثم لذريته من بعده ، فخلافة علي في نظرهم تبدأ منذ الساعة الأولى لوفاة الرسول ﷺ ، وإن عدم تمكنه من ممارسة مهامها طيلة أيام الخلفاء الثلاثة قبله لا تغير من هذه الحقيقة شيئًا .

لذا يعرّف الشهرستاني الشيعة بالقول (أنهم الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية إما جليًا وإما خفيًا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم من غيره أو تقية من عنده) (٢) .

واعتقد الشيعة أن عليًا والأئمة من بعده ، هم مستودع العلم اللدني وإليهم تعود أحكام الشريعة وأسرارها وأنهم معصومون من الكبائر والصغائر ، وأن الإيمان بالأئمة أو الأوصياء جزء من العقيدة ومتمم للشهادتين ، وقد صارت هذه الآراء حول الإمام ووجوب تعينه وما يرتبط بذلك من إضفاء صفة العصمة على الأئمة والقول برجعتهم والتقية والمهدية مبادئ يلتقي حولها الشيعة ما عدا الزيدية منهم ، وتمثل أسس المذهب الشيعي ومقوماته (٣) .

---

(١) المقدمة لابن خلدون ، ص١٩٦ ، نقلاً عن كتاب الخوارج والشيعة ، للدكتور / الجلي ، ص١٥١ .
(٢) الملل والنحل ، ج١ ، ص١٤٦ ، للشهرستاني نقلاً عن الخوارج والشيعة ، د/ جلي ، ص١٥١ .
(٣) الخوارج والشيعة ، ص١٥٢ ، د/ جلي .

أولاً : « نشأة التشيع » :

ثمة آراء متعددة حول مصادر التشيع وبداية إنطلاقه .

أولاً : ذهب الباحثون من الشيعة ومن سايرهم إلى القول أن فكرة التشيع بدأت منذ الأيام الأولى للرسالة ، وإن الرسول الكريم قد نادى بها وأرشد إليها ، ويستدلون على ذلك بأحاديث ينسبونها إلى النبي ﷺ بالثناء على علي والتنويه بفضائله مما يعني جدارته للنهوض بأعباء الخلافة وأحقيته فيها ، وبهذا الصدد يذكر الخميني (أن مذهب الشيعة بدأ منذ اللحظة الأولى التي استهل بها الرسول ﷺ دعوة قومه إلى حظيرة الإسلام ، وذلك حين جمع قومه وأولم لهم وقال لهم فيما قال من يكون خليفتي ووصيي ووزيري على هذا الأمر ، فلم ينهض إلا علي عليه السلام ولم يبلغ الحلم حينذاك ، وعند إذن قال أحدهم لأبي طالب محرضًا إن ابن أخيك يريد أن تسمع لابنك وتطيع ، وفي غدير خم في حجة الوداع عينه النبي ﷺ حاكمًا من بعده) (١) ، ولكن دكتور الجلي يعتبر جهود الشيعة في إرجاع التشيع إلى عهد النبي ﷺ ما هي إلا محاولة من جانب متكلميهم لنقض دعوى خصومهم القائمة على رد اعتقادات الشيعة إلى أصول أجنبية كاليهودية أو ديانات الفرس القديمة . إذ أنه سبق أن أشار ابن حزم إلى مدى الارتباط بين نشأة التشيع والفرس ، وذهب إلى أن بعض الطوائف الفارسية الحاقدة على الإسلام رأوا أن يكيدوا لهذا الدين من الداخل ، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع لإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ، واستشناع ظلم علي رضي الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام (٢) ، وهناك من الباحثين من يرى أن للتشيع صلة وثيقة بالآراء التي أشاعها ابن سبأ في القول بالوصية والرجعة مما يشير إلى وجود جذور للتشيع في الديانة اليهودية (٣) .

---

(١) الحكومة الإسلامية ، ص١٣١ ، الخميني ، أنظر أيضًا : الشيعة في الميزان ، ص١٧ ، محمد جواد مغنية ، وكذلك أصل الشيعة وأصولها ، ص٥٣ ، و٥٤ ، محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، نقلاً عن كتاب الخوارج والشيعة ، ص١٥٢، و١٥٣ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج٢ ، ص١١٥ ، وكذلك فضائح الباطنية ، ص١٨، و١٩ الغزالي ، أنظر : الخوارج والشيعة ، ص١٥٣ .

(٣) المقالات والفرق ، ص٢٠ ، سعد القمي .

ثانيا : من الباحثين من يرى أن بداية التشيع نشأت في إثر وفاة الرسول ، وما نجم عن ذلك من الخلاف بين أصحابه فيمن الأولى بتولي إمامة المسلمين بعده ، فقد رأى الأنصار أن مبادرتهم بنصرة الرسول وإيوائه والذب عنه وبذل الأرواح والأموال في سبيل نشر دعوته يجعلهم الأحق بتولي منصب الخلافة .

في حين رأى المهاجرون أنهم الأولى بذلك لما لبعضهم من شرف السبق في إعتناق الإسلام ، وكون هذا الأمر لا يصلح إلا في قريش لقول الرسول الكريم ﷺ (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان) (١) .

ولما لهم من مكانة مميزة في نفوس العرب تجعل الإنقياد لهم أكثر يسرًا وسهولة. على أن بني هاشم كانوا يرون أن أمر الخلافة لا ينبغي أن يخرج من دائرتهم ، باعتبارهم رهط الرسول وأقرب الناس إليه ، فرشحوا من قبلهم للخلافة عليًا بن أبي طالب وقد جاراهم في ذلك بعض الصحابة .

وبهذا الصدد يقول أحمد أمين (كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ ، أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبي ﷺ وعلي ابن عمه وعلي أولى من العباس ، ويقولون أيضًا كان جمع من الصحابة يرى أن عليًا أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما ، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي عمّارًا ، وأبى ذر ، وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله ، والعباس وبنيه ، وأُبيّ بن كعب ، وحذيفة إلى كثير غيرهم) (٢) .

ويذهب إلى أن هؤلاء كانوا يكونون حزبًا وهذا الحزب ، وُجد من بعد وفاة الرسول ، ونما بمرور الزمان وبالمطاعن في عثمان ، ويرى أحمد أمين أن هذا التشيع أخذ صيغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية ، وإن كل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم ، فاليهود تصبغ التشيع بصبغة يهودية ، والنصارى تصبغه بصبغة نصرانية وهكذا .

(١) صحيح مسلم ، ج٦ ، ص٣ .

(٢) فجر الإسلام ، ص٢٦٦ ، أحمد أمين ، وكذلك شرح نهج البلاغة ، ج٢٠ ، ص٢٢١ ، و٢٢٢ ، لابن أبي الحديد ، نقلاً عن الخوارج والشيعة ، ص١٥٤ ، و١٥٥ .

وإذا كان أكبر عنصر دخل الإسلام هو العنصر الفارسي كان أكبر الأثر في التشيع إنما هو الفرس [1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التشيع في هذه المرحلة التي يتحدث عنها أحمد أمين لا يتجاوز رؤية الأفضلية لعلي ، وإعتباره الأولى بخلافة المسلمين بعد الرسول ﷺ فحسب دون تبني النظرية الشيعية الراهنة التي ظهرت فيما بعد ، وما تتضمنه من عقائد كتقديس الأئمة والقول بعصمتهم أو رجعتهم ، وعندما تم ترشيح أبي بكر للخلافة لم يبد أحد معارضة تذكر[2] ، وهناك من الباحثين من يربط بداية نشأة التشيع بالآراء التي روج لها ابن سبأ في السنوات المتأخرة لخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وبداية خلافة علي كرم الله وجهه ، يقول المقريزي بهذا الصدد : (وحدث أيضًا في زمن الصحابة رضي الله عنهم ، مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والغلو فيه ، فلما بلغه ذلك ، أنكره وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه وأنشد :

لما رأيت الأمـــر أمــــرًا منــكرًا   أججــت نــارًا ودعــوت قمبــرا

وقام في زمنه رضي الله عنه عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبأى ، وأحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بالإمامة من بعده فهو وصيّ رسول الله ﷺ وخليفته على أمته من بعده بالنص ، وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا ، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضًا ، وزعم أن عليًا لم يقتل ، وأن فيه الجزء الإلهي ، وأنه هو الذي يجيء في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما مُلئت جورًا) [3] .

وصار ابن سبأ يتنقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم ويذهب إلى هذا الرأي أيضًا بعض الدارسين المعاصرين الذين اعتبروا فرقة السبأية أول الفرق الغلاة في هذا المضمار ويذهب بعض هؤلاء إلى أن اليهود هم المؤسسون الحقيقيون للعقيدة الشيعية الغالية ، وقد دخل بعض أحبارهم وكهانهم الإسلام ، وانتهزوا إبعاد علي عن الخلافة لنشر أفكارهم وإستمالة الناس إليها [4] .

---

(١) فجر الإسلام ، ص٢٧٧، و٢٧٨ أحمد أمين .   (٢) الخوارج والشيعة ، ص١٥٦ ، د/ الجلي .

(٣) خطط المقريزي ، ج٢ ، ص٢٥٦ ، و٢٥٧ .   (٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج١، ص٦٨ .

ويستند الذين يرجعون أصل التشيع إلى ابن سبأ إلى ما يأتي :

(أ) أن ابن سبأ أول من هاجم الخلفاء الثلاثة الأولين واعتبرهم مغتصبين للخلافة .

(ب) أنه أول المنادين بقداسة علي وبفكرة وصايته عن النبي ﷺ .

(جـ) أنه أول القائلين بالرجعة (1) .

وقد أثار ربط التشيع بابن سبأ علماء الشيعة وباحثيهم ومن ثم حرصوا على إبعاد هذه الفئة عنهم ، وشنوا هجومًا عنيفًا على السبأية محاولين إخراجها من دائرتهم .

وهكذا ذهب الشيعة على ما يذكر الجلي إلى أن شخصية عبد الله بن سبأ من اختلاق خصوم الشيعة لإظهارهم بمظهر الخارجين على الإسلام والمارقين من الدين ، ويقولون أن شخصية ابن سبأ شخصية متوهمة لا أثر لها ولا وجود (2) .

ولكن إنكار شخصية ابن سبأ والقول باختلاقها لم يكن مقبولاً من قبل بعض الباحثين الذين محصوا الأخبار وحققوا الوقائع المحيطة بحركة السبأية ، وأثبتوا بما لا يدع مجال للريبة حقيقة وجود عبد الله بن سبأ ، والدور الذي قام به في تحريك الفتن وتدبير المؤامرات وهو دور لم يقم به ابن سبأ وحده ، بل إنه يعتبر حلقة في سلسلة طويلة من المؤامرات على الإسلام والكيد للمسلمين بإثارة الكثير من المشكلات العقائدية التي تسببت في إندلاع العديد من الفتن والأزمات في العصور المتعاقبة (3) .

لذا فإن محاولة إنكار وجود شخصية ابن سبأ لا تخدم الغرض الذي قصد إليه الشيعة ، وهو تأكيد عدم الصلة بين التشيع ومحاولات اليهود الرامية إلى الإساءة للإسلام ، ولعل الأولى في هذا المجال أن يقال أن السبأية تمثل في التشيع تيارًا دعيا متطرفًا ، إتخذ من التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه الخاصة التي استهدف من وراءها هدم الإسلام وتقويض أركانه ، وإن من غير الإنصاف تحميل جميع فرق الشيعة تبعات وأوزار هذا التيار ونحوه من التيارات المتطرفة .

(1) نظرية الإمامة لدى الشيعة لابن عشرية ، ص36 ، أحمد محمود صبحي نقلاً عن الخوارج والشيعة ، ص156 .
(2) أضواء على خطوط محب الدين الخطيب ، ص20 ، و21 ، هامش 2 ، عبد الواحد الأنصاري .
(3) عبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام ، (سليمان بن حمد العوده) ، رسالة ماجستير من منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض ، ط1، 1405 – 1985 .

ثالثًا : يرى بعض الباحثين أن التشيع جاء كرد فعل مباشر لموقف الخوارج من علي بعد التحكيم في الحرب بينه وبين معاوية وما أفرزه ذلك الحدث من أحداث جسام وقضايا بالغة التعقيد .

ففي الوقت الذي نادى فيه الخوارج باعتبار الإمامة حقًا عامًا للمسلمين ورأى بعضهم عدم وجوبها وإمكانية الاستغناء عنها متى تسنى للمجتمع الإسلامي نصب ميزان العدل والمساواة بين الناس ، ذهب الشيعة إلى القول بوجوب الإمامة ووجوب تعيين الإمام ، وإن الرسول ﷺ أوصى بجعل الإمامة في علي وذريته من بعده دون غيرهم ، وبناءً على هذا الرأي فإن الشيعة هم أتباع علي الذين لازموه وثبتوا على نصرته ولم يتخلّو عنه كغيرهم من بعض الجماعات .

يقول ابن النديم : (لما خالف طلحة والزبير علي رضي الله عنه وأبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان ، وقصدهما علي عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه ، تسمى من إتبعه على ذلك الشيعة ، وكان يقول شيعتي) (١).

ويعلق الدكتور الجلي على ذلك بقوله : (ولو صحت هذه الرواية التي يذكرها ابن النديم ، فإن الناظر إلى أتباع علي رضي الله عنه في هذه الفترة لا يجد أنه كانت تجمعهم مبادئ مشتركة فيه أو بواعث موحدة ، إذ كان بين أصحابه المخلصين له كابن عباس وعمار بن ياسر ، وحجر بن عدي رضي الله عنهم ، كما كان بينهم كثير من الأنصار الذين لا يشك في دينهم ولا في إخلاصهم .

وكان بين أتباعه طائفة من العلماء والفقهاء وحملة القرآن والعُباد وجميع هؤلاء لم تكن تبعيتهم لعلي رضي الله عنه تبعية عمياء ، بل كانوا مجتهدين في الدين ، رأوا أنه أكفأ من يقوم بتولي الخلافة وأنه الإمام الذي بُويع ، وينبغي مناصرته ، ولا يجوز الخروج عليه من غير سبب يدعو لذلك .

ولكن لم يروا له الطاعة في كل ما يرى من الأمور ، ومن ثم فإن بعضهم قبل التحكيم في حرب صفين رغم كراهية علي لذلك ، وإلى جانب هؤلاء كان هناك بعض الطامعين ومروجوا الفتنة ، وكثير ممن شاركوا في مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، وهكذا نجد أن هذه الجماعات التي ضمها معسكر الخليفة علي رضي الله عنه إبان حروبه مع خصومه ، لا تكون حزبًا منتظمًا يدين بالطاعة

(١) الفهرست ، ص٢٦٣ ، ابن النديم .

المطلقة لعلي ولا تجمعهم عقيدة مشتركة في آل البيت ، فإذا ما أطلقت كلمة شيعة على هذه الجماعات فإنها لا تخرج في دلالتها عن معناها اللغوي العام الذي يشير إلى الأتباع والأنصار ، ويؤيد هذا ما ورد في نص الصحيفة التي كانت في التحكيم حيث ذكر فيها شيعة علي إلى جانب شيعة معاوية ، مما يدل على أن شيعة علي لا تشير إلى المعنى الاصطلاحي لهذا اللفظ والذي اكتسب مدلولاً خاصًا فيما بعد) [1] .

رابعًا : هناك من الباحثين من يرجع بداية التشيع لمأساة كربلاء فإن استشهاد الحسين رضي الله عنه وما رافقه من فواجع مؤلمة قد أفرزت منعطفًا نوعيًا في حركة التشيع واتجاهاته حيث استحال التشيع بعد تلك الفاجعة وما تلاها من أحداث وحركات ، من آراء وشعارات سياسية ، ومجابهات قتالية مع السلطة القائمة إلى عقيدة دينية ومنهج فكري منظم ، اعتمد التخطيط الدقيق والسرية التامة أسلوبًا لنشره ووضعه موضع التنفيذ ، فكان من أهم مراكز إنطلاقه بعد كربلاء لمختلف الأقطار الإسلامية الكوفة ، وقُم ، ثم سامراء[2] ، فبعد مقتل الحسين بدأت تخرج على الساحة السياسية بعض الجماعات والحركات في طليعتها حركة التوابين وهي جماعة من أهل الكوفة هالها ما نزل بالحسين وأهله رضي الله عنهم ، وشعرت أن في تقصيرها عن نصرته مشاركة في ذلك المصير المؤلم الذي انتهى إليه ، وتعاهدوا فيما بينهم على الإنتقام له والقصاص من قتلته ، وأخذ الثأر منهم ويصور المسعودي دوافع هذه الجماعة فيقول :

(وفي سنة خمسة وستين تحركت الشيعة في الكوفة وتلاقوا بتلاوم والتنادم حين قُتل الحسين ولم يغيثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأً كبيرًا بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجُرم إلا قتل من قتله ، أو القتل فيه) .

وصمم هؤلاء على الأخذ بثأر الحسين وتحركوا بقيادة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعي ووصلوا إلى موضع في العراق يقال له عين الوردة ، مطالبين بدم الحسين بن علي فالتحموا مع الجيش الأموي وانتهى الأمر بقتل قائدهم سليمان بن صرد وغالبية أتباعه [3] .

---

(١) أنظر : الخوارج والشيعة ، ص١٥٨، و١٥٩ ، د/ الجلي .
(٢)
(٣) مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٠٠ : ١٠٣ ، المسعودي .

كما تحركت فيما بعد في الكوفة جماعة أخرى من الشيعة برئاسة مختار بن أبي عبيد الثقفي ، وبادرت بتتبع قتلة الحسين فاقتصت منهم ، وبعد إخفاق هذه الحركات في تحقيق أهدافها وذلك بقمعها ومطاردة أفرادها اتجه الشيعة إلى العمل السري المنظم ، كما برزت كفرقة كلامية تنظر للمذهب الشيعي وتضع له القواعد والأحكام وتعمل على نشرها في سائر الأقطار الإسلامية .

ثانيًا : ظهور التشيع في شرق الجزيرة العربية :

لم يكن سكان شرق الجزيرة العربية يعيشون بمعزل عن الخلافات والأحداث الجسام التي توقد أوارها بين فرسان الرعيل الأول من آل بيت الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم أجمعين ، وما نجم عن تلك الأحداث من أفكار وعقائد واتجاهات لاتزال بصماتها واضحة في حياة المسلمين حتى اليوم .

فقد كان لكل طرف من أطراف الصراع مؤيدون وأنصار من قبائل سكان شرق الجزيرة العربية ورجالاتها .

فقد إنحاز إلى حزب المطالبين بدم عثمان وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان جماعة من عبد القيس بقيادة صحار بن عياش العبدي ، كما انحاز إلى جانب علي بن أبي طالب عدد كبير من عبد القيس أيضًا ، فقد ذكرت المصادر أن أربعة آلاف من أهل البحرين (١) فيهم عمرو بن المرجوم العبدي ، وزيد بن صوحان العبدي ، وشيخان بن صوحان العبدي قاتلت إلى جانب علي بن أبي طالب في واقعة الجمل .

وكانت راية عبد القيس مع مصقلة بن كرب بن رقية الخطيب المشهور وقد قُتل في ذلك اليوم (٢) .

وكان من أشهر سادات عبد القيس الذين تحمسوا لعلي بن أبي طالب وتبنوا آرائه ودافعوا عنها خلاس بن عمر الهجري ، والحارث بن مرة العبدي(٣) ، الذي أوفده علي بن أبي طالب إلى الخوارج في آخر محاولة لإقناعهم بالعدول عن التمرد والعصيان والفيئ إلى أمر الله وملازمة الجماعة ، وصعصعة بن صوحان العبدي صاحب المواقف المشهورة مع معاوية ، إلى أن نفاه المغيرة من الكوفة بأمر معاوية إلى جزيرة أوال في البحرين فمات فيها ، ومن أنصار علي وأولاده أيضًا يزيد بن بنيط وإبناه عبد الله

---

(١) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ج٢ ، ط٢ ، ص٦٨ .
(٢) كنز الأنساب ، ص٣١ ، حمد الحقيل .
(٣) قتل على يد الخوارج في تلك المحاولة .

وعبيد الله ، فقد قُتلوا مع الحسين في كربلاء بعد أن قدموا إليه في مكة وساروا معه إلى هناك [١] ، ومن النساء مارية وهي من عبد القيس كان يجتمع في منزلها بالبصرة شيعة الحسين للتداول في أمورهم ، وكذلك يحيى بن بلال العبدي ، وسفيان بن مصعب العبدي ، وكان كثير النظم في فضائل أهل البيت والدعوة إليهم ، وقد كان يحضر حلقات العلم عند جعفر الصادق ويأخذ عنه الحديث في الفضائل وينشره بين الناس شعرًا ، حتى قال الصادق في حقه : (يا معشر الشيعة علموا أولادكم شعر العبدي فإنه على دين الله) .

ومن أشهر شعره في آل البيت قصيدته التي بدأها بقوله :

هل في سؤالك رسم المنزل الخرب ... برء لقلبك من داء الهوى الوصب

فعلى أيدي هؤلاء وفي الفترة التي ظهر التشيع فيها على ساحة الصراع الفكري والسياسي بالمدينة والكوفة أخذ التشيع طريقه إلى هذه البلاد ، وربما كان لعمال علي من أمثال قتادة ونعمان بن عجلان الزرقي الأنصاري [٢] نشاطًا رافدًا لنشر الفكر الشيعي بين سكان هذه المنطقة .

فلم يحل النصف الثاني من القرن الثالث حتى كان للتشيع أنصار وأتباع في سائر قرى البحرين ، ويؤكد ذلك أنه في سنة ٢٨١هـ ـ ٨٩٤م ، قصد القطيف رجل يُعرف بيحيى بن المهدي فنزل على رجل يُسمى علي بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين ، فأخبره يحيى أنه رسول المهدي إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره وأن ظهوره قد

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج٤ ، ص٢١ .

(٢) النعمان بن عجلان عامل علي على البحرين وكان لسان الأنصار وشاعرهم له شعر يفخر بقومه على قريش جاء فيه قوله :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ... ويوم حنين والفوارس في بدر
نصرنا وآوينا النبي ولم نخف ... صروف الليالي والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحبًا بكم ... وأهلا وسهلا قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا ... كقسمة أيسار الجذور على الشطر

ثم تعرض لموضوع الخلافة وقصة انتخاب سعدٍ لها، وتعين قريش أبا بكر خليفة، ثم تعرض لحق علي فيها ، وكان إبان إمارته على البحرين يعطي كل من جاء من بني زريق. فقال فيه أبو الأسود الدؤلي :

أرى فتنة قد ألهت الناس عنكمُ ... فندل زريق المال ندل الثعالب
فإن ابن عجلان الذي قد علمتمُ ... يبدد مال الله فعل المناهب

أنظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص٧٥١ ، د/ جواد علي .

قرب ، فجمع علي بن المعلى الشيعة من أهل القطيف وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى من المهدي إليهم فأجابوه أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره ، وأرسل إلى قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه أيضًا .

ففي هذه الرواية دلالة واضحة على أن القطيف كانت تمثل أحد مراكز التشيع إبان تلك الفترة ، ومن هنا اتخذ منها القرامطة نقطة بداية إنطلاق حركتهم في شرق الجزيرة العربية ، لأن الدعوة القرمطية كانت تعتمد في السعي لتحقيق أهدافها على استغلال عاطفة التشيع لأهل البيت ، وتعطش الشيعة لظهور المهدي المنتظر الذي يتوقعون خروجه بين الآونة والأخرى ويعقدون عليه الآمال الكبيرة في تحقيق العدالة والمساواة بين المسلمين ومحو الظلم واستئصال شأفة أهله ، وبالفعل استطاع القرامطة كما سنرى ذلك في الفصل القادم أن يصلوا إلى مقاصدهم ، فأسسوا لهم في البحرين دولة قوية استمرت زهاء مائة وثمانين عامًا من مائتين وسبعة وثمانين هجرية إلى أربعمائة وخمسة وستين هجرية ، وشمل نفوذها معظم أراضي شبه الجزيرة العربية ، وبالرغم من اعتمادها على الشيعة كعنصر أساسي في البنية الإدارية والأجهزة الرسمية في الدولة ، فإن التشيع لم يكتسب قوة أو سلطان إبان فترة حكم القرامطة لهذه المنطقة ، وذلك لأن التشيع في نظر هؤلاء لم يكن غاية يسعون لتحقيقها بل كانوا يعتبرونه وسيلة سهلة يمكنهم استغلالها من الوصول لتحقيق أهدافهم السياسية. وحين تم لهم ما أرادوا من إقامة الدولة وتوطيد أركانها ، عمدوا إلى إضعاف القيم الدينية بكافة ألوانها ، وتركز اهتمامهم في بناء دولة علمانية اتخذت من النظام الاشتراكي في الإدارة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية أساسًا لبناءها .

وهذا ما يفسر صمت المصادر عن الإشارة إلى ظهور أي مفكر ديني من الشيعة أو غيرهم طيلة فترة حكم القرامطة لهذه المنطقة باستثناء عالم شيعي واحد هو الشيخ أبوصالح السلولي وهو من أهل قرية ناظرة [١] .

وبعد زوال دولة القرامطة أخذت الحياة تدب في أوصال الحركة الفكرية الشيعية من جديد رويدًا رويدًا ، وفي القطيف على وجه التحديد ، ولكن ملامح نشاطها بدا أكثر وضوحًا واتساعًا منذ القرن الثامن الهجري وما بعده حيث تجاوز نشاطها منطقة القطيف إلى غيرها من مناطق شرق الجزيرة العربية كجزر أوال والأحساء .

---

(١) ناظرة : قرية شرق الأحساء درست وطمرتها الرمال .

فقد ذكر في القرن الخامس الهجري الشاعر مهذب الدين القطيفي الملقب بأسير الهوى ، وقد عاش في القرن الخامس الهجري ، وكذلك الشاعر أحمد بن منصور القطان القطيفي المتوفى سنة ٤٨٠هـ وأيضًا السكوني العبدي ، والحسن بن ثابت العبدي اللذان ترجما لهما العماد الأصفهاني في خريدة القصر ، وجريدة العصر (١) ، وهما من شعراء القطيف ، وقد عاشا في القرن السادس الهجري ، وفي القرن السابع الهجري طالعنا أمثال اسم الشيخ عبد المحسن بن خميس ، وفي القرن الثامن وما بعده تزداد الحركة الشيعية نشاطًا في مجال التعليم والتأليف والنشر ، وقد برز من شغل منصب المرجع الديني للشيعة تقليدًا وزعامة إلى جانب المتكلمين والفلاسفة والخطباء والشعراء (٢) ، وقد عرفت في هذا المضمار أسر شيعية بعينها .

فرقهم المذهبية في شرق الجزيرة :

أما فرقهم المذهبية فأكثرهم أصوليون ويقلدون في شئونهم الدينية مراجع التقليد ، أما الباقي فهم شيخية يسكن جُلهم مدينة الهفوف ، وقرى الحليلة ، والطريبيل ، والعقار والمزاوي ، وهم من الأمامية الاثنا عشرية ، والفرق بين الشيخية وبين سائر الفرقة الاثنا عشرية الأصولية أن الشيخية تبالغ في تقديس شيخهم أحمد بن زين الدين الأحسائي المتوفى عام ١٢٤٢هـ (٣) وتتبنى آرائه في آل البيت عليهم السلام التي تنطوي علي كثير من الغلو والمبالغة ، ولا تجيز لنفسها تقليد أحد من العلماء إلا من يشاركهم في تقديس ذلك الشيخ ويتقلد آرائه ومرجعهم في هذا العصر الميرزا حسن الحائري الإسكوئي ومقره الكويت ، وهذه الفرقة غير الفرقة المعروفة باسم الركنية التي تتبنى آراء الشيخ أحمد سالف الذكر وإليه نسبتها ويتواجد أفراد الركنية في إيران .

---

(١) تكملة الخريدة ، ص ٨٥١ ، نقلاً عن واحة على ضفاف القطيف ، محمد بن سعيد المسلم .
(٢) أعلام هجر ، ص ٢٣ ، هاشم محمد الشخص .
(٣) هو أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر بن إبراهيم بن داغر بن راشد الصقري المطيرفي ، متفلسف إمامي هو مؤسس مذهب (الكشفية) نسبة إلى الكشف والإلهام وكان يدعيهما وتبعه أتباع يعرفون باسم الشيخية وله شطحات كثيرة وهو شديد الإنكار على المتصوفة، ولد في الأحساء وتعلم في بلاد فارس وتنقل بينها وبين العراق، وسكن البحرين، ومات حاجًا بقرب المدينة ودفن بها، وله كتب ورسائل كثيرة منها : (جوامع الكلم) مجلدان ـ والفوائد في الحكمة والكلام ـ ومعرفة النفس ـ ورسالة في سيرته ... وغيرهم .

ومما تجدر الإشارة إليه عدم صحة ما ذهب إليه ياقوت الحموي في معجم البلدان (١) من اعتبار جميع أهل البحرين من الشيعة قاصدًا عموم المنطقة ، كما عُدّ من الوهم ما جاء في كتابي أحسن الوديعة وأعيان الشيعة من القول عند ذكر الأحساء وأهلها كلهم شيعة إمامية إلا أن غالبهم من الطبقة المعروفة بالشيخية (٢) ، ونظير ذلك ما جاء في كتاب تاريخ الأحساء السياسي حيث قال : والمميز الرئيسي لسكان الأحساء هو المذهب ، والأكثرية تتمذهب بمذهب أهل السنة والجماعة ، وإن كان عدد غير قليل من سكانها من الشيعة الإمامية والقرمطية (٣) ، والخطأ في كل من القولين السابقين ظاهر جلّي ، إذ أن أهل الأحساء ليس كلهم من الشيعة كما أن الشيخية فيها قليل ، ولا وجود لمن سماهم الأخير بالقرمطية ، إذ القرامطة ليست من الشيعة الإمامية (٤) بل نشأت وترعرعت في ظل المذهب الإسماعيلي ، وهذا المذهب ليس لأتباعه وجود في المنطقة ، وللشيعة في جميع المدن والقرى التي يتواجدون فيها مساجد وحسينيات يمارسون فيها شعائرهم ومراسيمهم الدينية والمذهبية كإقامة المآتم والمواكب الحسينية ولهم قضاة رسميون يرجعون إليهم في شئون القضاء والمرافعات متى شاءوا ، ومن العادات المرعية عندهم في شهري محرم وصفر من كل عام حظر مناسبات الأفراح كالزواج وغيره ، وإرتداء الزينة بكافة أنواعها والثياب الملونة كما تلبس النساء الملابس السوداء وهم في أول المحرم حتى العاشر منه يحتفلون بذكرى إعادة الرأس من الشام وفي ٢٥ منه يحتفل بذكرى وفاة زين العابدين بن علي ، وفي سابع صفر يحتفل بذكرى وفاة الحسن بن علي ، وفي السابع عشر منه بوفاة الرضا ، وفي عشرين منه يحتفل بذكرى شهداء كربلاء ، في ٢٨ منه يحتفلون بذكرى وفاة الرسول ﷺ وفي هذه الأيام يتم إغلاق المتاجر وتعطيل جميع الأعمال وكذلك في ذكرى وفيات بقية أئمتهم كالحسن العسكري في ثامن ربيع أول ، ووفاة الزهراء في ١٣ جمادى الأولى ، ووفاة الهادي في الثالث من رجب ، ووفاة جعفر الصادق في ١٥ رجب

(١) معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٥٠ ، ياقوت الحموي .
(٢) أحسن الوديعة ، ص٣٠٦ ، محمد مهدي الأصفهاني .
أعيان الشيعة ، ج١ ، ص٥٠٦ ، نقلاً عن أعلام هجر ، ص٣٩ ، و٤٠ ، ج١ ، هاشم الشخص .
(٣) تاريخ الأحساء السياسي ، ص٢٠ ، د/ محمد عرابي نخله . (٤) أعلام هجر ، ص٤٠ .

ووفاة موسى الكاظم في ٢٥ رجب ، ووفاة الإمام علي بن أبي طالب في ٢١ رمضان ، ووفاة محمد الجواد في السادس من ذي الحجة ، ووفاة محمد الباقر في سابع ذي الحجة [(١)] .

ثالثًا : مدلول التشيع عبر مراحل نشاطه الحركي :

من الملاحظ أن مدلول التشيع قد مر بمراحل عدة ، فقد أطلقت كلمة شيعة في بداية الأمر على أنصار علي بن أبي طالب الذين رأوا في درجة قرابته من الرسول وما يتحلى به من كفاءة وعلم مبررات كافية لجعله الأولى بإمارة المؤمنين بعد وفاة الرسول فكان الكلام يدور بين شيعة علي ومعارضيهم في نطاق التفضيل ومن هو الأولى بالإمامة ونحوه ، وبهذا الصدد يقول نشوان الحميري : كانت الشيعة الذين شايعوا عليًا عليه السلام على قتال طلحة والزبير وعائشة ومعاوية والخوارج في حياة علي عليه السلام ثلاث فرق :

١ ـ فرقة منهم وهم الجمهور الأعظم الكثير يرون إمامة أبي بكر وعمر وعثمان إلى أن غيّر السيرة وأحدث الأحداث .

٢ ـ وفرقة منهم أقل من أولئك عددًا يرون الإمام بعد رسول الله ﷺ أبا بكر ثم عمر ثم عليًا ولا يرون لعثمان إمامة ، وحكى الجاحظ أنه كان في الصدر الأول لا يسمى شيعيًا إلا من قدم عليًا على عثمان ، ولذلك قيل شيعي وعثماني ، فالشيعي من قدم عليًا على عثمان ، والعثماني من قدم عثمان على علي وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان لأنه كان يقدم عليًا على عثمان .

٣ ـ وفرقة منهم يسيرة العدد جدًا يرون عليًا أولى بالإمامة بعد رسول الله ﷺ ويرون إمامة أبي بكر وعمر كانت من الناس على وجه الرأي والمشورة ويصوبونهم في رأيهم ولا يخطئونهم إلا أنهم يقولون ، إن إمامة علي كانت أصوب وأصلح ، وكان الشيعة كذلك حتى مقتل الحسين [(٢)] ، ولم تلبث ظاهرة التشيع حتى أخذت في النمو والانتشار واتخذت أنماطًا متعددة بلغ الغلو ببعضها حد الإدعاء بألوهية علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، وفي عهد جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨هـ بدأ

---

(١) يتفاوت إحياء هذه المناسبات بالحزن والحداد في الأوساط الشيعية من مكان إلى آخر ، ففي القطيف وقراها يتم الاهتمام بجميع هذه المناسبات في حين يكتفي الشيعة في الأحساء بإحياء بعضها فحسب وهي في نظر السنة من البدع التي لا تستند إلى أي أساس شرعي .

(٢) الحور العين ، ص١٨٠، و١٨١ ، أبو سعيد نشوان الحميري ، تحقيق كمال مصطفى ، مطبعة السعادة ـ مصر .

التنظير للمذهب الشيعي ، فقد كانت تنسب أغلب الروايات في النص والوصية وعصمة الأئمة ورجعتهم إليه وإلى والده أبي جعفر محمد بن علي وعلي الرضا كذلك ، فكان هشام بن الحكم أحد متكلمي الشيعة المتوفى سنة ١٩٠هـ على قول ابن النديم من أوائل من فتق الكلام في الإمامة وهذب المذهب والنظر ، وألف في هذا المقام كتاب الإمامة ، وكتاب الرد على من قال بإمامة المفضول وكتاب الوصية والرد على من أنكرها ، بيد أن المذهب الشيعي لم يتخذ اتجاها فكريًا واحدًا بل تعدد إلى عدة اتجاهات عكس كل منها أفكار وثقافة الجماعة التي تبنته ودانت به ، ومن ثم تعددت الطوائف المنتسبة لهذا الاتجاه من أشهرها الإمامية الإثنا عشرية والزيدية ، والإسماعيلية ، وغيرها .

رابعًا : الفرق العامة للشيعة :

(أ) غلاة الشيعة :

تفيأت بمظلة التشيع عدة فرق بلغ غلّو بعضها في علي وذريته لحد رفعهم إلى مرتبة التأليه أو النبوة ، وإعتدل بعضها فلم يصل لهذا الحد من الإنحراف والغلو ، وبذلك أصبح التشيع على حد قول أحمد أمين (مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية ، وهندية ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حُب أهل البيت ستارًا يضعون ورائه كل ما شاءت أهوائهم) (١) ، ومن تلك الفرق المنحرفة نذكر على سبيل المثال السبأية والبيانية ، والهاشمية ، والكيسانية ، والمغيرية والغرابية ، والنعمانية ، والنصيرية ، واليونسية والخطابية ، والكاملية ، والعلبائية ، والركنية وغيرها (٢) ، ويصف الشهرستاني هؤلاء الغلاة بأنهم هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقية وحكموا فيهم بأحكام الإلوهية ، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغلو

---

(١) فجر الإسلام ، ص٢٧٦ ، أحمد أمين .

(٢) لمعرفة آراء هذه الفرق يمكن الرجوع للكتب التالية :

١ ـ مقالات الأشعري ، ص٦٦ ، وما بعدها . ٢ ـ الملل النحل ، ج١ ، ص١٧٣ ، ما بعدها .

٣ ـ الفرق بين الفرق ، ص١٢٣ ، وما بعدها ، ومن المعلوم أن هذه الفرق انتسبت إلى الإسلام والاسلام منها براء ـ أنظر : كتاب الخوارج والشيعة للجلي الفصل الخاص بالشيعة .

والتقصير ، ويشير الشهرستاني كما يذكر الجلي إلى أنهم استمدوا آرائهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى وتلقوا أقوالهم بالتناسخ من المجوس المزدكية والهند البراهمية ومن الفلاسفة والصابئة .

وقد عبر الشيعة في أكثر من مجال عن برائتهم التامة من تلك الفرق الضالة والحكم عليهم بالكفر والخروج عن الإسلام (١) .

يقول سعد القمي وهو من الإمامية فهذه فرق أهل الغلو ممن انتحل التشيع وإلى الخرمدنية والمزدكية ، والزنديقية والدهرية مرجعهم جميعًا . لعنهم الله وكلهم متفقون على نفي الربوبية عن الله الجليل الخالق تبارك وتعالى عما يصفون علوًا كبيرًا وإثباتها في بدن مخلوق (٢) .

وأهداف هذه الفرق ومقاصدها في محاولة هدم الإسلام وإبطال الشرع وتعطيل أحكامه لا تخفى على كل من له بصر بمنشأ هذه الفرق وخططها وتحركاتها . وهو هدف تشاركهم فيه الحركات الباطنية التي نشأت وترعرعت في أحضان الفكر الإسماعيلي ، وليس أدل على مقاصد هؤلاء الغلاة الرامية لهدم الإسلام من دعوتها إلى ألوهية الأئمة والقول بنبوة بعضهم وإدعاء أصحاب الحركات أنفسهم أحيانًا أحد هذين المقامين ، وإبطال الفرائض وإباحة المحظورات والمنكرات (٣) .

(ب) الشـــيعة الإماميـــة :

تمثل الشيعة الإمامية القطاع الأوسع من عموم الشيعة وقد أطلق عليهم هذا الاسم لإتخاذهم مسألة الإمامة أساسًا لمنهجهم الفكري ، وقد اتفقوا جميعًا على اعتبار علي الأحق والأولى بخلافة المسلمين بعد رسول الله ﷺ مباشرة ، بيد أنهم اختلفوا في بعض القضايا ذات الصلة بالإمامة ، والأئمة ، فأفضى ذلك الخلاف إلى ظهور عدد من الفرق هي :

١ ـ الكيسانية : وهم الذين يدينون بالولاء لمحمد بن الحنفية ويعتبرون من أكثر الفرق الشيعية غلوًا وتطرفًا وقد ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن إمامهم سالف الذكر لايزال على قيد الحياة مختبئًا في مكان ما من جبل رضوى على نهرين من الماء والعسل .

---

(١) الشيعة في الميزان ، ص٢٩١ : ٢٩٤ ، محمد جواد مغنيه .
(٢) المقالات والفرق ، ص٦٤ .
(٣) الخوارج والشيعة ، ص١٧٦ : ١٧٩ ، الجلي .

٢ ـ الزيدية : وهم أتباع زيد بن علي ويميزهم عن بقية الفرق الإمامية إعتدال موقفهم من الشيخين أبي بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، والقول بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد استحق منصب الإمامة عن طريق ما جاء عن النبي من أوصاف وإشارات لا تصدق إلا عليه دون النص الصريح بذلك.

٣ ـ شيعة الأئمة من ذرية علي وفاطمة ، وقد ذهبوا إلى القول بأن النبي الكريم قد نص على تعيين علي بن أبي طالب في منصب الخلافة بعده نصاصريحاً بأمر من الله جل وعلا ، بيد أن هؤلاء بدورهم اختلفوا على منتهى المطاف لسلسلة الأئمة ، فمنهم من جعل إسماعيل بن جعفر آخر الأئمة وخاتمهم وهم من عُرفوا بالإسماعيلية ، ومنهم من جعل الإمامة في موسى الكاظم بن جعفر ، وساق الإمامة فيمن بعده حتى الإمام الثاني عشر وهو محمد بن حسن العسكري وهم الإثنا عشرية ، وبهذا الصدد يورد القمي حديثًا ينسبه للرسول ﷺ ، وفيه يقول : الأئمة بعدي إثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم ، وهم خلفائي وأوصيائي وأوليائي ، وحجج الله على أمتي بعدي ، المقر بهم مؤمن ، والمنكر لهم كافر (١) .

وقد جاء ترتيب أئمتهم على النحو التالي :

الإمام	التاريخ
علي بن أبي طالب	٢٣ هـ ـ ٤٠ هـ
الحسن بن علي	٣ هـ ـ ٥٠ هـ
الحسين بن علي	٤ هـ ـ ٦١ هـ
علي زين العابدين بن الحسين	٣٨ هـ ـ ٩٥ هـ
محمد الباقر بن علي	٥٧ هـ ـ ١١٤ هـ
جعفر الصادق بن محمد	٨٣ هـ ـ ١٤٨ هـ
موسى الكاظم بن جعفر	١٢٨ هـ ـ ١٨٣ هـ
علي الرضا بن موسى	١٤٨ هـ ـ ٢٠٣ هـ
محمد الجواد بن علي	١٩٥ هـ ـ ٢٢٠ هـ
علي الهادي بن محمد	٢١٢ هـ ـ ٢٥٤ هـ
الحسن العسكري بن علي	٢٣٢ هـ ـ ٢٦٠ هـ
محمد المهدي بن حسن	٢٥٦ هـ ـ مجهولة

(١) من لا يحضره الفقيه ، ج٤ ، ص١٧٩، و١٨٠ ، بن بابويه القمي .

ومما يقوله الإثنا عشرية أن الإمام الثاني عشر قد غاب غيبة صغرى بدأت سنة ٢٥٦هـ وانتهت سنة ٣٢٩هـ ، حيث بدأت غيبته الكبرى التي ينتظرون عودته منها .

كما تعرف الإثنا عشرية أيضًا باسم الجعفرية نسبة للإمام جعفر بن محمد لما له من مكانة علمية وأثر واضح في توجيه الحركة الشيعية وقد أفرزت هذه الفرقة فرقة عُرفت بالشيخية وهم طائفة من الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، اكتسبت هذا اللقب بسبب إنتسابها لشيخها ومعلمها أحمد بن زين الدين الأحسائى ، وذلك أن هذا الشيخ ظهر في مطلع القرن الثالث عشر الهجري بآراء ومعتقدات غريبة قابلها بالرفض والاستنكار جميع العلماء حتى من بعض أبناء الطائفة الإثنا عشرية ، باستثناء تلاميذه ومريديه الذين انبهروا بها وتبنوها فكانوا بذلك النواة الأولى لظهور فرقة جديدة عُرفت فيما بعد باسم الشيخية ، أدت إلى ظهورها المواجهة الشديدة الحادة بين الشيخ المذكور ومعارضيه ، واستمرار تلك المواجهة بين أنصاره ومخالفيهم حيث تحيز عدد من علماء الشيعة لآرائه ، وتحمسوا للدفاع عنه والدعوة إليه وبشكل تدريجي تحول هؤلاء وأتباعهم إلى جماعة مستقلة عُرفت بنسبتها إليه ، حيث ظلت تتبنى أفكاره وتنشر كُتبه وتدعو إلى منهجه ، ويضيف الباحث الشخص (إلى ما ذكر عاملاً آخر له أكبر الأثر في بلورة فكرة الشيخية وتطويرها وتثبيت وجودها ، وهو أن عدد من العلماء النفعيين وآخرين من محبي الجاه والزعامة اقتضت مصالحهم تصعيد الاختلاف بين الشيعة وتمزيق كلمتهم ليبرز في المجتمع جماعة باسم الشيخية منفصلة عن غيرها تدين لهم بالولاء وتؤمن لهم بالزعامة ، ولولا هذه العوامل وأمثالها لما كان هناك وجود للشيخية ولما استمر وجودها إلى اليوم ، ذلك لأن اختلاف الرؤى في كثير من المسائل المهمة موجود بين العلماء من القديم ولم يؤد إلى تأسيس فرق وجماعات اللهم إلا في ظروف مشابهة .

ويستطرد الشخص قائلاً : وعلى أي حال بعد وفاة الشيخ اتسعت رقعة الشيخية وإزداد أتباعها ومريدوها وكان الزعيم الأكبر لهم بعد الشيخ خليفته السيد كاظم بن السيد قاسم الحسيني الرشتي الذي يتخذ من كربلاء مقرًا لزعامته حتى توفى فيها سنة ١٢٥٩هـ) [(١)] ، وقد حدثت خلال الفترة من ١٢٤١هـ إلى ١٢٥٩هـ تطورات وأمور مهمة داخل الطائفة الشيخية ، تخللتها مواجهات ومصادمات حادة بين الشيخية ومعارضيهم يمكن الرجوع لها في مصادرها .

---

(١) أنظر : أعلام هجر ، ج١، ص١٩٤، و١٩٥ ، هاشم محمد الشخص .

وكان الشيخية جميعًا في حياة السيد الرشتي متفقين على زعامته ومرجعتيه ، ولكنهم بعد وفاته انقسموا إلى فرقتين ، إحداهما تبعت الحاج محمد كريم خان الكرماني المتوفى سنة ١٢٨٨هـ ، عُرفت فيما بعد باسم الركنية ، والأخرى تبعت الميرزا حسن كوهر الحائري ثم آل الاسكوئي من بعده فعرفوا بالكشفية .

وهم لا يختلفون في أصول الدين وأمهات المسائل الشرعية عن سائر الشيعة الإمامية ، وإن كان لهم بعض الآراء والمعتقدات الخاصة التي سنشير إليها في مواضعها ، على أن أهم مبادئ الطائفة الإثنا عشرية الأصولية منها والشيخية على السواء تتركز في القول بضرورة الإمامة ولزومها وما يتصل بها من المسائل كمكانة الأئمة وعلمهم وعصمتهم وورود النص على إمامتهم ، وإتباع التقية في إعتناق هذه التعاليم (١) ، فإقامة الإمامة في معتقدهم ضرورة لا غنى عنها لبيان الشرع وإتمام تعاليمه وتطبيق أحكامه وحفظ مصالح الأمة وحمايتها والدفاع عنها ، لأن الشريعة على حد قول الطوسي المعروف لدى الشيعة بشيخ الطائفة مؤبدة وإن المصلحة ثابتة إلى قيام الساعة لجميع المكلفين ، وعلى هذا لابد لها من حافظ ، وليس يخلو الحافظ من أن يكون جميع الأمة أو بعضها وليس يجوز أن يكون الحافظ لها الأمة لأن الأمة يجوز عليها السهو والنسيان ، وارتكاب الفساد ، والعدول عما علمت ، فإذن لابد لها من حافظ معصوم يؤمن من جهته التغيير والتبديل والسهو ، ليتمكن المكلفون من المصير إلى قوله وهذا هو الإمام الذي نذهب إليه (٢) ، فالإمامة إذن في نظرهم منصب إلهي كمنصب النبوة ، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه ، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إمامًا للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي ، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي (٣) ، أما الركنية : وهي إحدى فرق الشيخية فتذهب في مسألة أهمية الإمامة إلى أبعد من ذلك فتعتبرها ركنًا رابعًا في الدين ، لأن الدين في نظرهم قائم على أربعة أركان هي :

١ ـ معرفة الله . ٢ ـ معرفة الرسول . ٣ ـ معرفة الإمام .

٤ ـ معرفة الفقيه الجامع للشرائط الذي يقوم مقام الإمام في زمن الغيبة ، جاء عن مؤسس هذا المذهب كريم خان في كتابه (هداية الأطفال) ما ترجمته : إن الشيعة

---

(١) عقائد الإمامية ، ص٦٦ ، محمد رضا المظفر . (٢) تلخيص الشافي ، ج١، ص١٣٣ ، الطوسي .

(٣) أنظر : أصل الشيعة وأصولها ، ص١٠٢ ، محمد الحسين آل كاشف الغطاء .

يحتاجون إلى عالم يرونه ويأخذون عنه أحكام الشرع في حال غيبة الإمام عليه السلام وهو الركن الرابع وكان هذا مختفيًا بسبب جور الحكام ، حتى اقتضت المصلحة الإلهية ظهور الركن الرابع بوجود الشيخ أحمد الأحسائي ، وبعده السيد كاظم الرشتي ، وبعدهما أيضًا لا تخلو الأرض من حجة وهو الركن الرابع إلى حين ظهور الإمام الحجة عليه السلام (١) .

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن بعض الشيعة ينكرون أن تكون الإمامة ركنًا من أركان الدين ، ويقول أحدهم في ذلك : إن الإمامة كما عليه محققو الشيعة الإمامية ليست من أصول الدين ، أي أركان الإيمان ، ولا من أصول الإسلام إنما هي أصل مذهبي من أصول مذهب التشيع ، بمعنى أن من أنكرها لا يكون شيعيًا لأنه لا يكون مؤمنًا أو مسلمًا (٢) .

قال صاحب الذريعة : ولما شدد عليهم الأصحاب النكير بعدم ما يسمى الركن الرابع في الإسلام ألف الكرماني رسالة سنة ١٢٧٩هـ أثبت فيها أن الركن الرابع هم رواة الأئمة عليهم السلام والعلماء جميعًا ، ولا تختص الركنية بشخص معين كالأحسائي والرشتي ، بل هي صفة عامة لجميع العلماء في حال الغيبة (٣) .

يقول الشخص : ومن الناحية العملية أصبح الركن الرابع منصب زعامة تتوارثه سلالة الكرماني حتى اليوم باعتبارهم المصداق الحقيقي لهذا الركن ، وكان مقر زعامتهم مدينة كرمان في إيران حيث يتواجد أحفاد الكرماني والأكثرية من أتباعه ، ولما قُتل مرشدهم الحاج عبد الرضا بن أبي القاسم بن زين العابدين بن كريم خان ـ في حدود سنة ١٤٠٠هـ ـ انتقل مقر زعامتهم إلى مدينة البصرة بالعراق أهم معقل لهم بعد كرمان ، والركنية أكثر أتباعًا من منافسيهم الكشفية ، ويتمركز وجودهم في مدينة (كرمان) بإيران ثم مدينة (البصرة) ويوجد قليل منهم في الكويت وبعض مناطق إيران الأخرى .

---

(١) أعلام هجر، ص١٩٥ ، ج١، هاشم محمد الشخص ، بنقله عن كتاب الذريعة ١٦٩/٢٥، وقد عرفت فرقة الركنية هذه باسم (الكرمانية) نسبة إلى زعيمهم الحاج محمد كريم خان الكرماني .

(٢) أصول الدين الإسلامي ، ص٢٥ ، محمد علي ناصر .

(٣) أعلام هجر ، ص١٩٦ ، ج١ ، هاشم الشخص بنقله عن كتاب الذريعة ١٦٩/٢٥، و١٧٠ .

ويمكن التعرف أكثر على عقائد الركنية وأفكارهم من خلال كتبهم الكثيرة المطبوعة في إيران مثل (رجوم الشياطين) (وكشف المراد في علم المعاد) (وهداية الأطفال) (وهداية الصبيان) (وإرشاد العوام) ، (والفطرة السليمة) وغيرها .

ولعل ما ذكره الكرماني من حاجة الشيعة إلى عالم يرونه ويأخذون عنه أحكام الشرع في حالة غيبة الإمام ، وإمكانية قيام العلماء ورواة الأئمة بهذا الدور قد مهّد لظهور ما عُرف مؤخرًا بالفكر الشيعي بولاية الفقيه ، وإنه لم يتبنى أصحاب هذا الاتجاه مذهب الكرماني في الاعتقاد في وجود ركن رابع هو معرفة الإمام على حد قول الكرماني .

فهم يرون أن غيبة الإمام لا تعني تعطيل الأحكام وعدم إقامة الدين والإسلام في الدولة والمجتمع ، وقد دعا هذا الفريق إلى ما يُعبر عنه الشيعة بولاية الفقيه التي تعني أن الفقيه عندهم له الولاية العامة في إقامة الأحكام وتنفيذها وإدارة شئون الدولة في كافة مرافقها ، في حين يرى آخرون أن الفقهاء محصورة مهامهم في شئون الإفتاء والقضاء دون التعرض لاختصاصات الإمام أو صلاحيات الحاكم ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فقالوا : إن العمل كجماعة وإقامة الأحكام وتنفيذها كصلاة الجمعة والجهاد وتنظيم شئون الدولة والمجتمع لا يكون إلا بالتعاون مع الإمام وعلى يديه (١) ، وقد عارض أصحاب هذا الرأي الدعوة إلى تولي الفقيه ولاية الإمام الغائب ، فتلك الولاية في نظرهم خاصة بالإمام ومقصورة عليه ، وليست ولاية عامة (٢) .

فقد احتج من قال بضرورة ولاية الفقيه في غيبة الإمام بأمور منها إن هذا الدين يسعى إلى تنظيم شئون المجتمع وحفظ حقوق الناس والدفاع عنهم ، وتحقيق مصالحهم ، وهذا لا يتأتي بدون أن يقوم به زعيم وسائس ، ويقول البرجدوري وهو أحد علماء الشيعة : (لا يبقى شك إن من تتبع قوانين الإسلام وضوابطه في أنه دين سياسي واجتماعي ، وليست أحكامه مقصورة على العبادات المحضة المشروعة لتكميل الأفراد وتأمين السعادة في الآخرة ، بل إن أكثر أحكامه مربوطة بسياسة المدن ، وتنظيم الاجتماع وتأمين سعادة هذه النشأة أو جامعة للحسنيين ومرتبطة بالنشأتين

---

(١) أثر الإمامة في الفكر الجعفري وأصوله ، ص٣٨٢ ، و٣٨٣ ، علي أحمد السانوس .

(٢) الخميني والدولة الإسلامية ، ص٤٢ : ٦٤ ، محمد جواد مغنيه ، نقلاً عن الخوارج والشيعة ، ص٢١٠ وما بعدها .

وذلك كأحكام المعاملات والسياسات من الحدود والقصاص والديات ، والأحكام القضائية المشروعة لفصل الخصومات أو الأحكام الكثيرة الواردة لتأمين الماليات التي يتوقف عليها حفظ دولة الإسلام كالأخماس والزكاوات ونحوها) [١] ، لذا رأى بعض مفكري الشيعة أن الفقهاء لهم الحق بالنيابة عن الإمام في النهوض بأمور الدولة وشئون المجتمع والسياسة في غيبته ، وبهذا الصدد يقول الفيض الكاشاني : (وكذا إقامة الحدود والتعزيرات وسائر السياسات الدينية فإن للفقهاء المؤمنين إقامتها في الغيبة بحق النيابة عنه) [٢] ، وقد تم التنظير لتلك الآراء فيما عُرف مؤخرًا بولاية الفقيه التي دخلت حيز التطبيق والتنفيذ باستيلاء الفقهاء في إيران على مقاليد السلطة هناك .

ومن هنا يمكن القول أن الشيخية الركنية قد أسهمت في فتح المجال للجدل الفكري حول قيام الفقهاء بممارسة السلطتين الروحية والزمانية نيابة عن الإمام الغائب إلى حين خروجه ، أما الشيخية الكشفية فإن خلافهم مع سائر الإثنا عشرية ينصب في مسألتين .

أولاهما : اعتقاد الشيخية أن دم الإمام وجميع فضولاته طاهرة إلى جانب اعتقادهم واهتمامهم الخاص بكثير مما ينسبونه لأهل البيت من فضائل التي قد يرفضها أو يناقش فيها بعض علماء الطائفة الإثنا عشرية [٣] .

أما الأخرى : فإن الشيخية تختلف مع ما عداها من الإثنا عشرية في كيفية علم الأئمة ، بالرغم من أن الفريقين يشتركان في الاعتقاد بأن أئمتهم أوتوا علم ما كان وما يكون وما هو كائن بالوراثة عن النبي ﷺ ، فإنهما يختلفان في كيفية حصول الأئمة على ذلك العلم ، فقد قال عموم الإثنا عشرية بأن علم الأئمة بالمغيبات لا يكون حاضرًا لديهم على الدوام والاستمرار ولكن يحصل لهم العلم بالشيء حين تدعو الحاجة إليه بمشيئة الله تعالي ، في حين ذهب الكشفية إلى القول بأن علم الإمام حضوري وليس حصوليًا ، بمعنى أنه يعلم بما كان وما سيكون إلى يوم القيامة بإرادة الله تعالى بحيث تكون جميع هذه المعلومات حاضرة في ذهنه دائمًا كمن يشاهد بالعيان [٤] .

---

(١) البدر الزاهر في صلاة الجمعة والمسافر ، ص٥٢ ، الحاج أغا حسين الطوباطوبائي ، نقلاً عن في إنتظار الإمام ، ص٧٦ ، و٧٧ .

(٢) البدر الزاهر ، نقلاً عن في إنتظار الإمام ، ص٩٣ .

(٣) الشخص ، ص١٩٦ .　　(٤) المرجع السابق ، ص١٩٧ .

وبناءً على هذا الاعتقاد وما سبقت الإشارة إليه من اعتقادهم بطهارة دم الإمام فقد قسمت الكشفية الشيعة الإمامية إلى قسمين كاملي العقيدة ، وناقصي العقيدة. والمراد بكاملي العقيدة هم الكشفية أنفسهم ومن يعتقد بعقيدتهم في أهل البيت ، وأما ناقصي العقيدة فهم معظم الشيعة الإمامية. هذا بالإضافة إلى اعتقادهم واهتمامهم الخاص بكثير مما ينسب لأهل البيت من فضائل ، التي لم يسلم بها على إطلاقها بعض علماء الشيعة .

وعلى أساس هذا التقسيم للشيعة أصدر علماء الكشفية أحكامًا فقهية خاصة منها : أنه لا يجوز لمن كان كامل العقيدة أن يقلد مرجعًا ناقص العقيدة أو يصلي خلف إمام ناقص العقيدة ، أو من كان يعتقد بطهارة دم الإمام وإن علمه حضوري لا يجوز له أن يقلد أو يصلي خلف من لا يرى ذلك ، فكمال العقيدة بهذا المعنى شرط في مرجع تقليد وإمام الجماعة ويذكر الشخص : أن تسميتهم بالكشفية لإدعاء علمائهم أن خفايا بعض الأمور تكشف لهم ببركات الأئمة المعصومين ويتواجد الكشفية في الوقت الحاضر بصورة رئيسة في الكويت حيث يوجد هناك مقر زعامتهم ، كما لهم وجود في مدينة الهفوف ، وبعض قرى الأحساء ، وبعض المدن الجنوبية في العراق وتبريز ، وتعتمد الطائفة الشيعية الإثنا عشرية في استنباط الأحكام من الأدلة على أربعة أصول هي :

١ ـ القرآن . ٢ ـ السنة . ٣ ـ الإجماع . ٤ ـ العقل .

بيد أن من هذه الطائفة من ذهب إلى القول إن المعول عليه في أخذ الأحكام الشرعية هو أخبار الأئمة فحسب ، وحتى القرآن عندهم لا يمكن أن يفهم ويؤخذ به بغير الرجوع إلى هذه الأخبار .

وقد عُرف أصحاب هذا الاتجاه في الأوساط الشيعية بالاخباريين وفي اعتقاد هؤلاء أن الكتب الأربعة المعروفة عند الشيعة وهي :

١ ـ الكافي للكليني الرازي .

٢ ـ وما لا يحضره الفقيه لمحمد بن بابويه القمي .

٣ ـ والاستبصار .

٤ ـ التهذيب للأحكام للشيخ الطوسي قطعية الثبوت عن أهل البيت ، ولا داعي للبحث في السند .

أما الأصوليون فإنهم قالوا : إن كل رواية سواءً كانت في الكتب الأربعة أو غيرها لابد من التثبت من صحتها ، حتى قيل أن عدد الأحاديث الضعيفة في الكافي بلغت تسعة آلاف حديث من أصل ستة عشر ألف حديث ، هذا غير الآحاد والمراسيل ، كما يقول الأخباريون بجواز تقليد الميت إبتداءً ، ووجوب صلاة الجمعة عينًا في زمن الغيبة ومسائل أخرى ، وفيما عدا الخلاف بين هاتين الفئتين على مسألة استنباط الأحكام فإن كثيرًا من الأصوليين يرون بعض ما يراه الأخباريون ، كما أن كثيرًا من الأخباريين يوافقون الأصوليين في بعض آرائهم .

لذا يظل الفرق بين الاتجاهين فرقًا غير ذي بال (١) ، وكان أول من انتهج الإتجاه الأخباري أو غالى في الدعوة إليه أمين الدين الاستربادي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ ، أما أهم من نادى بهذا الاتجاه بعده في شرق الجزيرة الشيخ يوسف بن أحمد آل عصفور صاحب كتاب الحدائق وهو أكثر إعتدالاً من الأول ، باستثناء ما تقدمت الإشارة إليه من مسائل الخلاف بين الشيخية والأصولية الاثنا عشرية من ناحية وبين الأصولية والاخبارية من ناحية أخرى فإن الجميع يشتركون في كافة المبادئ الأساسية التي تدين بها الشيعة الاثنا عشرية والمتمثلة في القول بوجوب الإمامة وحصرها في إثنا عشر إمام ابتداءً من علي بن أبي طالب وانتهاء بمحمد بن حسن العسكري وذلك فيما يقولون بالنص الصريح من الله على لسان رسوله إلى غير ذلك مما ينسبونه إلى الأئمة من الصفات والقداسات إلى غير ذلك من القضايا ذات الصلة بأصول عقيدة التشيع المعروفة والتي يمكن البحث عنها في مضانها .

* * *

(١) أعلام الشخص ، ج١ ، ص٣١٩ .

القسم الخامس

القرامطة

أولا : نشأة الحركة القرمطية :

جاءت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كي تنسف جميع الأسس التي كان المجتمع يقوم عليها من عقائد دينية ، وقيم إجتماعية ، ونظم اقتصادية ، وأوضاع سياسية ، وإعادة بناء المجتمع من جديد على أسس أخرى استمدت عناصرها ومقوماتها من تجارب وحركات سابقة كالزرادشتية (١) ، والمزدكية (٢) ، وبعض النظريات الموروثة عن الفلسفة الهندية ، واليونانية ، والفارسية ، ولأن القرمطية نشأت وترعرعت في كنف الفكر الإسماعيلي فإن بعض الباحثين يذهبون إلى اعتبار الحركات الثلاث القرمطية ، والإسماعيلية ، والفاطمية حركة واحدة ، نبعت من نبع واحد ، وصدرت عن أصل واحد ، ومن هؤلاء عارف تامر ، ودوزي ، وهامر ، كاترمير وغيويارد ، وبلوشه ، ودي خويه (٣) .

كما يعتبر بعض الباحثين ميمون بن ديصان بن عبد الله الغضبان النيسابوري الملقب بميمون القداح المؤسس الأول لهذه الحركة ، ولكن آخرين يذهبون إلى القول أن صاحب الفكر الإسماعيلي وواضع اللبنة الأولى في بناءه هو إسماعيل بن جعفر وممن تبنى هذا الرأي عارف تامر (٤) ، وماسينيون ، كما ذهب برسنس مامور إلى ما هو أبعد من ذلك حيث أنكر أصلا وجود ميمون القداح مؤكدًا أنه لقب اتخذه الإمام محمد بن إسماعيل تقية .

وهذا الاختلاف بين الباحثين يعود بصورة أساسية إلى الغموض الشديد الذي يكتنف شخصيات عصر (الستر) وأساليبهم في التخفي والاستتار ، فشغلت شخصية ميمون القداح وأولاده دائرة الضوء لدى الباحثين عبر الأجيال ، باعتبارهم المؤسسون الأول للدعوة الإسماعيلية القرمطية ، وقد حاول بعض كتاب الإسماعيلية ومن سار في ركابهم إزاحة سُجف العُتمة والغموض عن شخصيات عهد (الستر) فزعموا أن ميمون القداح لقب استعاره محمد بن إسماعيل لنفسه إمعانًا في التخفي والاستتار عن طائلة السلطة العباسية التي لم تدخر وسعًا في إحباط مخططات العلويين للوصول للسلطة والقضاء

---

(١) نسبة إلى زرادشت مصلح الديانة الفارسية الأولى ، ولد في منديا بإيران ، ظهر في القرن السابع قبل الميلاد ، نشر دعوته أولاً في بلخ ثم في فارس ، حتى قضى عليها الإسكندر ، ثم اتخذها أردشير مذهبًا للدولة الساسانية حتى الفتح الإسلامي ، المنجد ، قسم الأعلام ، ص ٣٢٠ .

(٢) نسبة إلى مزدك وهو داع إيراني اتبع في تعليمه ماني وأيّد النزعة الفنوسية، أراد الاشتراكية في الأموال والنساء ، أيد مذهبه الملك قباذًا (٤٨٨) حتى خلع فأعاد كسرى أنو شروان الزرادشية ، المنجد ، قسم الإعلام ، ص ٦٥٧ .

(٣) القرامطة ، ص ١٠٨ ، عارف تامر .
(٤) أخبار القرامطة ، ص ٤٥٧ ، سهيل زكار .

على الرؤوس المدبرة لتلك الحملات بمختلف الوسائل ، ولكي يتمكن محمد بن إسماعيل من الحفاظ على حياته وممارسة نشاطه في شيء من الحرية والبعد عن أعين الرقباء المنبثين في كل مكان أقام من نفسه لنفسه داعية فطفق في الآفاق تحت اسم ميمون يشتغل بقداحة العيون ويدعو لإمام مستور هو محمد بن إسماعيل ، وبالتالي عُرف باسم ميمون القداح ، كما تابعه في ذلك الأئمة المستورون من ذريته ، فكما عُرف محمد بن إسماعيل باسم ميمون القداح عُرف ابنه عبد الله باسم عبد الله بن ميمون ثم حفيده أحمد باسم أحمد بن عبد الله بن ميمون وهلم جرا ، فالأسرة الميمونية القداحية في نظر من تبنى هذا الرأي أسرة وهمية ابتدعتها مخيلة أئمة الإسماعيلية واستترت خلفها بغية تحقيق مقاصد وأهداف معينة (١) .

ويعترف هؤلاء الباحثون بأن أسلوب الإستتار هذا وإن مكن أئمة الإسماعيلية من بلوغ مقاصدهم الفكرية والسياسية إلا أنه جلب عليهم فيما بعد الكثير من المشاكل والأزمات كتعرض بعض وجوه هذه الدعوة ورؤسها للاغتيال أو القتل إما بسبب خروج بعضهم عن هذه الدعوة وإعلان براءتهم منها أو أسباب أخرى معروفة أو غير معروفة .

من ذلك ما حدث للدعاه حمدان وعبدان وعبد الله الشيعي وغيرهم ، بل إن هناك من المشاكل والأزمات ما هو أخطر من ذلك ، فقد قامت قرامطة سواد العراق وسورية وفي مقدمتهم آل زُكراوية بالثورة على أقطاب هذه الدعوة واستهدفوا القضاء عليهم في عُقر دارهم ، فاجتاحوا قصرهم في السلمية وقتلوا جميع من فيه وأحرقوه ، كما تمرد في اليمن علي بن الفضل على زميله في هذه الدعوة عبد الله من حوشب بعد أن نجح كل منهما في تأسيس دولة قرمطية باليمن تحت مظلة هذه الدعوة (٢) .

أما الدولة الجنابية القرمطية في البحرين وإن احتفظت في أول أمرها بعلاقة عادية بالدولة العبيدية المنتسبة للإسماعيلية إلا أنها فيما بعد أصبحت شوكة شجًا في حلق تلك الدولة ، حيث إندلعت بين الطرفين حروب طاحنة ، كادت تشطب اسم الدولة العبيدية من سجل الدول والممالك ، هذه المشاكل وغيرها مما سنجد تفصيله في الصفحات الآتية كان السبب في ظهورها مبالغة الأئمة في التخفي والاستتار حتى عن أقرب المقربين إليهم .

(١) القرامطة ، ص١٠٨ ، عارف تامر .

(٢) القرامطة ، ص١٨٦ ، عارف تامر .

أما كيف خفي الأمر على الدعاة الذين كانوا يبشرون بالفكر الإسماعيلي ويسيرون في الأرجاء ، فإن صلاحيتهم لا تمكنهم من معرفة هذه القضية (١) ، لأن الداعي لم يكن مكلفًا أن يعلم عن مراتب الدعوة شيئًا سوى مرتبة وصلاحيات الحد الذي فوقه ، فهو يعتبره ممدًا بالأوامر والنواهي .

أما الإمام فالحجة وحده هو صاحب الحق في الاتصال به ومعرفة وجوده (٢) .

لذا فإن ظهور عبيد الله بن الحسين على مسرح الحركة ، وإدعائه الانتساب لمحمد بن إسماعيل ، وأنه الإمام والمهدي ، جاء صدمة عنيفة للدعاة زلزلت قناعتهم بمصداقية الدعوة والثقة بها وبمن وراءها ، فكانت ردود الفعل عندهم متباينة بحيث اكتفى بعضهم بإعلان البراءة منها وعبّر بعضهم عن مشاعر الإحباط والسخط بإشعال الثورات وارتكاب أفدح الأعمال الوحشية الإرهابية ، ورأي آخرون استثمارها لحسابهم الخاص ، أو إقامة دول وممالك خاصة على أسس من مفاهيم الدعوة ومبادئها دون السير في فلك أقطابها الأساسيين .

إن دعوى عبيد الله هذه وما شابها من الملابسات والأحداث الغامضة المثيرة للشك والريبة ، جعلت أكثر الباحثين على قناعة كاملة بأن ميمون القداح وأولاده من بعده هم أصحاب الحركة الإسماعيلية ـ القرمطية ـ الحقيقيون ومؤسسوها الأول ، وإن شاركهم أشخاص مثل محمد الوراق ومحمد بن الحسين بن جهار بختار المعروف ببندار ، وإن فكرة الدعوة لإمام مستور من ذرية محمد بن إسماعيل لم تكن إلا مظلة تفيأ القداحيون في ظلها ، ووسيلة استعملوها ببراعة وإتقان لاستمالة الناس إليهم وضمهم لصفوف حركتهم (٣) ، ومهما يكن نوع الحقيقة الغافية في كهوف الاستتار ، فإن القرمطة أخذت طريقها إلى الوجود بظهور عبد الله بن ميمون القداح الذي قدم من نيسابور إلى السلمية بسوريا ، وفيها أخذ يبشر بظهور إمام من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه حجة ذلك الإمام ، وذلك تحت مظلة العمل بالتجارة ، وعلى يده إزداد النشاط الإسماعيلي في سواد الكوفة وسوريا والبحرين ونعت حاملو الفكر الإسماعيلي بالقرامطة ، وهي كلمة استمدت من تقارب الخطو أو الخط ، وفي إطلاقها على هذه الفئة عدة أقوال أهمها :

---

(١) القرامطة ، ص١١١، و١١٢ ، عارف تامر .　　(٢) المرجع السابق ، ص١١٢ .
(٣) أخبار القرامطة ، ص٤٥٨ ، كتاب ٢ ، سهيل زكار .

١ ـ إنها مستمدة من لفظ قرمط وهو اسم لأحد خدم جعفر الصادق ، كان أول من ابتدع فكرة هذه الدعوة .

٢ ـ أن قرمط كان اسمًا لحمدان بن الأشعث كبير دعاة هذه الحركة في أرض السواد.

٣ ـ من اسم رجل أحمر العينين من خوزستان يدعى كرمية وهي بالنبطية حار العين ، أقام عنده أحد الدعاة وتسمى باسمه لما فارقه وقد خفف الاسم فصار قرمط ، ثم عُرفت الحركة بنسبتها إليه لما بذله فيها من جهود (١) ، وبعد وفاة عبد الله بن ميمون السالف الذكر تسلم راية هذه الدعوة ابنه أحمد بن عبد الله ، وفي عهده أخذت الأشجار التي غرسها أجداده تؤتي ثمارها ، وبدأت طلائع الدعوة الإسماعيلية تظهر على مسرح الوجود ، ثم جاء ابنه الحسين بن أحمد (٢) ، واتخذ من السلمية (٣) مقرًا لإقامته وكان عظيم الثراء ، وعلى يد الحسين هذا وأبيه دخلت الدعوة القرمطية في مرحلة العمل الجاد ، ونشر الدعاه ووضع الأسس لإقامة الدول المنضوية تحت لواء هذه الحركة .

ثانيًا : المبادئ العامة للحركة القرمطية وأساليبها في الدعوة :

لعل من المفيد قبل الشروع في الحديث عن تجربة هذه الحركة ووضعها موضوع التنفيذ وما رافق ذلك من نشاطات عسكرية واسعة أن نستعرض مبادئ هذه الدعوة ، وما تبنته من العقائد الدينية والنظم الاقتصادية ، فمن الثابت أن هذه الحركة قد تبنت في الظاهر آراء الشيعة في مسألة الإمامة والقول بالنص عليها والوصية بها ، وكل ما يتصل بهذه القضية من القول بعصمة الأئمة ورجعتهم وانتظار ظهور المهدي منهم ، وهو في نظر أصحاب هذه الدعوة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق فله تؤخذ البيعة وتُجبى الأموال ، وباسمه تُسيّر الجيوش ، وتُسن الأنظمة وتصدر التعاليم ، ولكن العلماء من خارج هذه الطائفة يقولون : إنه إذا كان ظاهر مذهب الحركة الإسماعيلية القرمطية التشيع فإن باطنه الكفر بجميع الشرائع والأديان .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص٣٨٨ ، ك٢ ، سهيل زكار .   (٢) القرامطة ، ص٤٥ ، عارف تامر .

(٣) السلمية من أقدم المواضع التاريخية كما توحي بذلك المعثورات التاريخية بها، عُرفت منذ عهد السومريين عام (٢٤٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) ، وقد تعاقبت على عمارتها عدة أمم، كانت تعرف في العهدين اليوناني والروماني باسم سلاميس، وفي العهد البيزنطي صارت مقرًا لأبرشية مسيحية كبرى، وقيل إن سبب تسميتها بسلمية تخليدًا لمعركة سلاميس التي إنتصر فيها اليونان على الفرس، وقيل أيضًا أنها سميت بذلك، اشتقاقًا من (سيل مياه) لغزارة مياهها، فيها جرت المعركة الفاصلة التي كانت فيها نهاية الدولة الأموية، كمانشأت فيها الحركة الإسماعيلية القرمطية، كان أول من عمّرها في العهد الإسلامي عبد الله ابن صالح العباسي الهاشمي وهي كما يذكر أبو الفداء من أعمال حمص .

فهم يمهدون لذلك بحصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم وعزل العقول أن تكون مدركة للحق لما يعترضها من الشُبهات ، والمعصوم يطلع من جهة الله تعالى على جميع أسرار الشرائع ولابد في كل زمان من إمام معصوم يُرجع إليه ، متخذين من ذلك سُلّمًا ينتهون منه إلى إبطال جميع الشرائع [1] .

لقد ثبت عنهم كما يذكر ابن الجوزي والغزالي [2] أنهم يقولون بإلهين قديمين ، لا أول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني واسم العلة (السابق) واسم المعلول (التالي) ، وإن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه ، وقد يسمون الأول «عقلاً» والثاني «نفسًا» والأول «تامًا» والثاني «ناقصًا» والأول لا يوصف بوجود ولا عدم ولا موصوف ولا غير موصوف ، فهم يومون إلى النفي لأنهم لو قالوا معدوم ما قُبل منهم ، وقد سّموا هذا النفي تنزيها ، ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة وهو أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالي قوة قدسية صافية ، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا أنه شخص ، وأن القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل فسُمي كلام الله مجازًا ، لأنه مُركب من جهته ، وهذه القوة الفائضة على النبي لا تفيض عليه في أول أمره بل تنمو بنموه ، واتفقوا على أنه لابد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يُرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكال في القرآن والأخبار ، وأنه يساوي النبي في العصمة ، ولا يتصور في زمان واحد إمامان ، بل يستظهر الإمام بالدعاة وهم الحجج. ولابد للإمام من إثنا عشر حجة أربعة منهم لا يفارقونه ، كما أنكروا القيامة ، وقالوا هذا النظام متعاقب الليل والنهار ، وتوالد الحيوانات لا ينقضي أبدًا ، وأوّلوا القيامة بأنها رمز لخروج الإمام ، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار ، ومعنى الميعاد عندهم عود كل شيء إلى أصله ، وفي نظرهم أن جسم الآدمي يبلى والروح إن صفت بمجافاة الهوى والمواظبة على العبادات ، وغُذيت بالعلم استعدت بالعودة إلى وطنها الأصلي كمالها بموتها . إذ به خلاصها من ضيق الجسد .

وأما النفوس المنكوسة المغموسة في عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها من الأئمة المعصومين فإنها أبدًا في النار ، على معنى أنها تتناسخ مع الأبدان الجسمانية ، فكلما فارقت جسدًا تلقاها آخر، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ﴾ [3]. وغرضهم من هذه التأويلات إنتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الناس حتى تبطل الرغبة والرهبة ، ثم إنهم يعتقدون باستباحة المحظورات ، ورفع الحجر ولو ذكر لهم هذا لأنكروه وقالوا لابد من الانقياد للشرع على ما يفعله الإمام ، فإذا أحاطوا بحقائق الأمور إنحلت عندهم القيود

---

(١) أخبار القرامطة ، ص٣٩٣ ، ك٢ ، سهيل زكار . (٢) فضائح الباطنية ، ص٥٦ ، الغزالي .
(٣) سورة النساء ، آية (٥٦) .

والتكاليف العملية ، إذ المقصود عندهم من أعمال الجوارح تنبيه القلب وإنما تكليف الجوارح للغُمر الذين لا يروضون إلا باسياقة ، وغرضهم هدم قوانين الشرع ، فعندهم أن هذه التكاليف ترمز إلى باطن ، فمعنى الجنابة عندهم مبادرة المستجيب إفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق لذلك ، ومعنى الغُسل تجديد العهد على من فعل ذلك ، والاحتلام أن يسبق اللسان إلى إفشاء السر في غير محله ، والصيام الإمساك عن كشف السر ، والحرمات عبارة عن ذوي الشر من الرجال وهم يتعبدون بإجتنابهم (١) ، ويقولون للذكر مثل حظ الانثيين ، الذكر ـ الإمام ـ والحجة ـ الأنثى ـ وقالوا : يوم يأتي تأويله أي يظهر محمد بن إسماعيل ، وفي قوله : حرمت عليكم الميتة ، قالوا الميتة الحامل على الظاهر الذي لا يلتفت إلى التأويل ، وقالوا إن الشاة والبقر هم الذين حضروا محاربة الأنبياء ، والأئمة يترددون في هذه الصور ، ويجب على الذابح أن يقول عند الذبح اللهم إني أبرأ إليك من روحه وبدنه وأشهد له بالضلالة ، اللهم لا تجعلني من المذبوحين ، يقول ابن الجوزي : (ولهم من هذا الهذيان ما ينبغي تنزيه الوقت عن ذكره) (٢) .

وقد ارتبطت آرائهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتلك الآراء والمعتقدات ، فقد انتهجوا في نظامهم الاقتصادي مبادئ الاشتراكية المطلقة المتمثلة في الحد من الملكية الفردية ، وجعل موارد البلاد ومصادر الدخل فيها ووسائل الإنتاج حقًا عامًا تقوم الدولة بحفظه وتنميته والإشراف عليه وإدارة مؤسساته ، وتوزيع الأموال على أفراد الجماعة بصورة توفر لكل فرد فرصة الحصول على العمل وجميع ما يحتاج إليه من شئون معاشه (٣) ، وقد عمدوا إلى نشر أفكارهم في صورة خطوات تتدرج من معلومات بسيطة حتى تصل بالمستجيب إلى أقصى ما ترمى إليه مبادئ فلسفتهم ومعتقداتهم ، وقد كان ذلك المجتمع يتألف من طبقات أربع (٤) :

١ ـ الطبقة الأولى : وتشمل الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشرة سنة وثلاثين سنة ، الذين يجري تلقينهم أفكار الدعوة الإسماعيليةالقرمطية في صورتها العامة وتطلق عليهم رسائل إخوان الصفا اسم الإخوان الأبراء الرحماء .

٢ ـ الطبقة الثانية : تشمل الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين المؤهلين لتلقي فلسفة الدعوة وتسميهم رسائل إخوان الصفا « الأخيار الفضلاء » وهم الرؤساء ذوو السياسات. ومن مهامهم رعاية الإخوان وإظهار العطف عليهم ومساعدتهم .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص٣٩٤ ، ك٢ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص٣٩٥ .
(٣) القرامطـــة ، من ص٧٦ : ٩٣ ، عارف تامر .
(٤) المرجع السابق ، ص٩٧ .

٣ ـ الطبقة الثالثة : تشمل من كانت أعمارهم بين الأربعين والخمسين الذين يعرفون الناموس الإلهي معرفة مطابقة لدرجتهم ، وهم أصحاب الأمر والنهي الذابون عن الدعوة والمتصدون لخصومها ، وهم الذين ألفوا الرسائل وعمموها .

٤ ـ الطبقة الرابعة : وهي مرتبة من يزيد عمره عن الخمسين سنة وهي أعلى المراتب في نظرهم ، ومن يصل إليها يكون فوق الناموس والطبيعة ، ويكون ذا كشف يستطيع أن يشاهد به أحوال القيامة من البعث والنشور والحساب والميزان ، وتشمل هذه الطبقة المريدين ثم القادة ثم المقربين إلى الله (١) .

وعند الارتقاء بالمستجيب من مرتبة إلى أخرى يؤخذ في الاعتبار المستوى العلمي والعقلي عنده ومدى إقتناعه بالدعوة ، وقدرته على استيعاب تعاليمها ، والكفاح في سبيل تطبيقها . فكانت تعطى الخاصة أسرارها ومراتبها العليا ، وتُعطى العامة مبادئها وأصولها ، حتى أن المستجيب كان لا يعرف شيئًا عن شئون الدرجة التي تلي درجته ، ويعد إخلاص المستجيب واجتهاده سبيله الوحيد للإنتقال من مرتبته إلى المرتبة التي تليها الأمر الذي أذكى في نفوس المستجبين جذوة التنافس في العطاء والبذل لهذه الحركة سعيًا وراء تحقيق مستوا أفضل فيها ، وكان الداعية يسير وفق منهج مرسوم وخطة مدروسة يعمل بمقتضاها ، ومن تعليمها أن يتظاهر الداعي بالاستقامة والتقى ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وإظهار العلم ، والدعة واللطف في الحديث ، ويدخل على كل إنسان بما يتفق مع ميوله وهواه ، فإن كان المخاطب سنيًا زين له منهج أهل السنة والجماعة وخطأ مخالفيهم ، وأظهر البغض لهم ، وأسرف في ذمهم وإن كان المخاطب شيعيًا دخل عليه من باب دعوى ظلم الأمة لعلي واستشهاد الحسين ، وما تعرض له أهله وذريته من المآسي ، وإن كان يهوديًا دخل عليه من جهة المسيح ، وأن المسيح هو محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو المهدي وطعن في المسلمين والنصارى ، وإن كان نصرانيًا خاطبه بعكس ذلك ، وإن كان صابئيًا عظم له الكواكب ، وإن كان مجوسيًا عظم له النار والنور ، وإن كان مائلا إلى المجون والخلاعة قرر عنده أن العبادة بله والورع حماقة ، وإنما الفطنة في إتباع اللذة والوطر من الدنيا الفانية (٢) ، وإن وجد فيلسوفًا فذلك العُمدة والعِدة للتقاء الجميع على القول بقدم العالم ، وإبطال النواميس والنبوات (٣) ، وحين يطمئن الداعي لثقة المخاطب به واطمئنانه إليه يسرع في إخراجه من دينه ومذهبه تدريجيًا بمختلف الحجج والبراهين وقد يصطحب الداعي معه من له صوت جذاب في قراءة القرآن فإذا قرأ تكلم الداعي ووعظ وقدح في الحكام ، وعلماء الزمان والجهال العامة ويقول :

---

(١) القرامطة ، ص٩٨ ، عارف تامر . (٢) أخبار القرامطة ، ص٣٩٢ ، ك٢ ، سهيل زكار .
(٣) المرجع السابق ، ص٣٩٢ .

الفرج منتظر ببركة آل الرسول ﷺ (١) وربما قال : (إن الله عز وجل في كلماته أسرار لا يطلع عليها إلا من اجتباه) .

ومن طرقهم أنهم لا يناقشون هذه القضايا مع العلماء بل يناقشونها مع الجهال حيث يجتهدون في زلزلت عقائدهم بإلقاء المتشابه وكل مالا يظهر للعقول معناه، فيقولون مثلاً : ما معنى الإغتسال من ماء الرجل دون البول ؟ ولما كانت أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة ؟ ما بطن هذا إلا لفائدة لا يفهمها كثير من الناس ، ثم يشوقون إلى جواب هذه الأشياء فإن سكت السائل سكتوا ، وإن ألح في طلب الإجابة قالوا عليك بالعهد والميثاق على كتمان هذا السر فإنه الدُر الثمين ، ثم يأخذون عليه العهود والمواثيق على كتمان ذلك ويقولون : كل مالك صدقة وكل امرأة لك طالق ثلاثًا إن أخبرت بذلك ، ثم يعلمونه ببعض الشيء ، ويقولون إن هذا لا يعلمه إلا آل رسول الله ﷺ وهذا الظاهر له باطن .

وفلان يعتقد ما نقول ولكنه يكتمه ويذكرون له أسماء بعض الأفاضل المقيمين في بلاد بعيدة عن بلده (٢) وذلك لإدعائهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللُب في القشر ، وأنها توهم الأغبياء صورًا وتفهم الأذكياء رموزًا وإشارات إلى حقائق خفية وإن من تباعد عن العرض عن الخفايا والبواطن متعثر ، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه ، واستشهدوا بقوله تعالى : ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

وفي اعتقادهم أن الجهال هم المرادون بقوله : ﴿ فضُرب بينهم بسور له باب ﴾ وغرضهم فيما وضعوه من ذلك إبطال الشرائع ، لأنهم إذا صرفوا العقائد عن موجب الظاهر حكموا بدعوى الباطن ، على موجب الإنسلاخ عن الدين (٣) .

ثالثًا : الدعوة في مرحلة العمل :

حين صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان (أبو عمرو) القداح بعد أبيه ، بعث وهو بالسلمية الحسين الأهوازي داعية إلى العراق ، فلقي حمدان بن الأشعث قرمطًا (٤) يسوق بين يديه بعض بقرات يستعملها لنقل البضائع كما كانت هيئته تنم عن ميله للزهد ومن عينيه تطل أمارات الدهاء والفطنة فطمع فيه حسين وقرر استمالته إليه .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٩٢ ، ك٢ ، سهيل زكار .
(٢) أخبار القرامطة ، ص٣٩٢ ، ك٢ ، سهيل زكار . (٣) المرجع السابق ، ص٣٨٨ .
(٤) أخبار القرامطة ، ص٣٩٠ ، ك٢ ، سهيل زكار ، وكذلك أنظر : القرامطة ، ص١١٥ ، عارف تامر .

فسأله قائلاً كيف الطريق إلى كيس بهرام (1) ؟ فأخبره حمدان أنه قاصدًا إليها ، ثم سأل الأهوازي عن إحدى قرى الحيرة من سواد الكوفة تعرف باسم «بانوبو» فعرفه حمدان أنها قريبة من قريته ، وكان حمدان هذا من قرية تعرف «بالبور» على نهر (هدّ) من رستاق نهرود من نواحي بادولي ، وجميع هذه النواحي من سواد بغداد ، فتماشيا ساعة فقال له حمدان : إني أراك جئت من سفر بعيد! وأنت معي فاركب إحدى هذه البقرات ، فقال له الحسين : لم أؤمر بذلك ، فقال له حمدان : كأنك تعمل بأمر آمر لك ؟ قال : نعم ، فقال حمدان : من يأمرك وينهاك ؟ قال : مالكي ومالكك ، ومن له الدنيا والآخرة ، فبهت حمدان قرمط وأطرق مفكرًا ونظر إلى الحسين وقال : يا هذا ما يملك ما ذكرت إلا الله تعالى ، قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء ، فقال حمدان وماذا تريد في القرية التي سألتني عنها ، قال : أومرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ومن الضلال إلى الهدى ومن الشقاوة إلى السعادة ، وأن أستنقذهم من الذل والفقر ، وأملكهم ما يستغنون به عن التعب والكد ، فقال له حمدان إنقذني أنقذك الله ، وأفض عليّ من العلم ما تحيني به ، فما أشد حاجتي إلى ذلك ! فقال ما أمرت أن أخرج هذا السر المكنون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه ، قال فاذكر عهدك فإني ملتزم به ، فقال أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه أن لا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك ولا تفشي سري أيضًا ، ثم قال له : ما اسمك ؟ قال : قرمط ، ثم طلب قرمط من حسين أن يصحبه إلى منزله ووعده بأن يحضر إليه إخوانا له ليأخذ عليهم العهد للمهدي ، فسار معه إلى منزله وأخذ على الناس العهد هناك كما أخذ يحدثهم بمختلف العلوم والمسائل التي تستهويهم وتهمهم ، وأحاط نفسه بهالة من التدين بإظهار الخشوع والورع والاجتهاد في العبادة ، فلا يأكل إلا من كسب يده ، بخياطة الثياب للناس (2) ، ففتنوا به وعدّوه من أعظم البركات عليهم ، فكان المغبوط منهم من يأخذه ليلة إلى منزله ، أو يلبس من خياطته ، وحان موسم صرام التمر فاحتاج أحد وجهاء الكوفة لمن يقوم على حفظ تمره ، فوُصف له هذا الرجل ، فاستأجره للقيام بتلك المهمة ، فأحسن أدائها ، واحتاط في حفظ الأمانة بصورة ملفتة للإنتباه وذلك في سنة مأتين وأربعة وستين ، فاستحكمت ثقة الناس به ، وثقته بحمدان قرمط وسكنه إليه ، فأظهر له أمره وكشف له الغطاء (3).

---

(1) أخبار القرامطة ، ص٣٩٠ ، سهيل زكار .

(2) إتعاظ الحنفاء ، تقي الدين أحمد المقريزي .

(3) أخبار القرامطة ، ص٣٩٠ ، سهيل زكار .

إن قصة هذا اللقاء بين حسين الأهوازي وحمدان بن الأشعث تبين بجلاء كيفية إنتقال الدعوة القرمطية من مرحلة التنظير والتخطيط إلى مرحلة التطبيق على أرض الواقع ودخول الحياة العملية ، كما تحمل في طياتها إشارات واضحة الدلالة على براعة الإسلوب الذي يتبعه دعاة هذه الحركة في اقتناص فرائسهم والطبيعة الاشتراكية والفلسفية للنظم والأهداف التي تسعى لتحقيقها واختيار أنسب العناصر وأكثر البيئات الطبيعية والبشرية ملائمة لتطبيق هذه التجربة وإمكانية قبولها ونجاحها .

فقد جاء حسين الأهوازي من السلمية قاصدًا منطقة سواد العراق وهي إحدى المناطق المختارة لزرع مبادئ وأفكار هذه الحركة ، لأن بها من الخصائص والأسباب ما يكفي لجعلها أرضية ملائمة لاحتضان تلك الأفكار والمبادئ ووضعها موضع التنفيذ ، فبساطة سكان المناطق الزراعية وحرارة العاطفة الدينية عندهم ، وشدة معاناتهم وإرهاقهم بالأتاوات والرسوم التي تفرض عليهم من قبل السلطة الحاكمة ، أو ملاك الأراضي ، إلى جانب ما يتعرضون له من المظالم والممارسات القاسية ، وما يخيم على حياتهم من جهل وتخلف ، وما ينتشر بينهم من ألوان البدع والخرافات أمور تدفعهم للتشبث بأي أمل يخرجهم من ذلك الوضع التعيس وتجعلهم جاهزين للانخراط في أي حركة تلوح لهم بالانتقال إلى مستوا أفضل ، وحياة أكثر إشراقًا ، فما بالك بحركة تعدهم بالخروج من الجهل للعلم ، ومن الشقاوة للسعادة ، ومن النصب للراحة ، وتمنيهم باستنقاذهم من تلك الأوضاع المزرية إلى حياة مريحة ينعم الفرد في ظلها بجميع ما يحتاج إليه من أسباب الدعة والحياة الرخية الهانئة ، لقد فعلت هذه الوعود في نفوس أولئك البسطاء فعل السحر ، فانبهروا بآراء القرمطة ونظمها ، وأقبلوا على تبنيها والسير في ركابها وبخاصة حين تسلم راية الدعوة لها حمدان بن الأشعث في إثر وفاة الأهوازي الذي عهد بها إليه .

فقام حمدان بالترويج لهذه الدعوة في مختلف نواحي السواد فاختار مجموعة من الدعاة المهرة القادرين على التأثير في الناس وخداعهم ، والاستئثار بعقولهم وعواطفهم بأبرع أساليب التشويق والإغراء ، وكان أكبر أولئك الدعاة صهره عبدان وهو ذكي داهية على جانب كبير من الفهم والعلم ، وكان لكل داعية منطقة عمل خاصة به ، وكان الدعاة يجتمعون في كل شهر مرة ، ولعل ذلك لتقييم ما تم إنجازه من العمل ، ولتبادل المعلومات والخبرات ، وتذليل العقبات ، وتنسيق الجهود في الترويج لدعوتهم ، وكان من أشهر أولئك الدعاة جلندي الرازي ، وعكرمة البابلي وإسحق النوراني ، وعطيف

النيلي ، وزكراوية بن مهراوية السلماني [1] ، وكان هذا الأخير شابًا ذكيًا من أصحاب الجاه والثراء ، يملك بساتين واسعة ، أنفق جميع ثمارها في مواساة الفقراء والمحتاجين تعزيزًا لنشر الدعوة التي آمن بها وتحمس لنجاحها ، وهو من قرية في سواد الكوفة يقال لها «المسانية» على نهر (هِد) ، وكان من نتائج ذلك دخول عدد كبير من العرب في هذه الدعوة منهم : من بني ضبيعة بن عجل رجلان إحداهما يُعرف بالرباح والآخر بعلي بن يعقوب القمري ، فأنفذهما زكراوية لدعوة العرب في أعمال الكوفة وصورا ، وبربسما ، ودخل في هذه الدعوة من بني « يشكر » رجل يقال له رفاعة ، ومن بني بكر ابن وائل رجلان أحدهما يُعرف باسم سند ، والآخر يُعرف باسم هارون ، وقد قاما بالدعوة في بعض جهات واسط فمالا إليها هذان البطنان ، فلم يكد يتخلف عن الدخول فيها رفاعي ، ولا ضبعي ، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة ، بطن إلا اعتنق الدعوة منه جماعة من بني عنزة وبني عبس ، وذهل ، وتيم الله ، وتعل إلى غير ذلك .

الدعـــوة في دور التطبيـــق :

بعد أن إشتد ساعد هذه الدعوة قرر الدعاة على أن يجعلوا لهم موضعًا يكون وطن ودار هجرة [2] ، يهاجرون إليها ويجتمعون فيها ، فاختاروا لذلك قرية تسمى «مهتم أبان» الكائنة بإحدى ضياع السلطان المعروفة بالقاسميات في سواد الكوفة ، وفي سرعة مذهلة تمكنوا من بنائها ، فأقاموا فيها المنازل والمرافق ، وأحاطوها بسور عظيم من الصخر بعرض ثمانية أذرع ، ومن خلفه خنادق بالغة العمق ، وعلى الفور انتقل إليها الرجال والنساء من كل حدب وصوب وسموها دار الهجرة ، وذلك في سنة سبع وسبعين ومأتين هجرية [3] .

ومن ثم شرع الدعاة في تطبيق المبادئ الاقتصادية والاجتماعية للقرمطة ، وذلك بالقضاء على الملكية الفردية وجعل ملكية المال مشاعة بين كافة أفراد الجماعة بحيث يحصل كل واحد منها على جميع ما يحتاج إليه من مقومات الحياة ومتطلباتها ، ومن هنا أخذ حمدان قرمط في جمع أموالهم بصورة تدريجية تقبلوها بصدور رحبة ونفوس راضية بعد أن طلاها بصبغة دينية طعمها بعدد من الآيات القرآنية التي اجتهد في

---

(١) أخبار القرامطة ، ص٤٣٢ ، سهيل زكار . (٢) المرجع السابق ، ص٤٥٧ .

(٣) في كنز الدرر ، ص٥٧ ، سنة ٩٩ ، وفي إتعاظ الحنفاء للمقريزي ، ص١١٣، سنة ٩٧ .

صرف تأويلها لتدعيم ممارساته ، وذلك بأن فرض على كل مستجيب من الرجال والنساء والصبيان تأدية درهم واحد سماه الفطرة ، وبعد وقت قصير فرض على كل رجل وإمرأة أداء دينار واحد أطلق عليه اسم الهجرة ، وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (١) .

وقال هذا تأويل هذا ، فدفعوا ذلك له عن نفس طيبة وتعاونوا عليه فمن كان منهم فقيرًا أسعفوه ، وتركهم وقتًا قصيرًا ، ثم فرض عليهم « البلغة » وهي سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك هو البرهان في قوله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٢).

وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين السابقين ، أولئك المقربون ، وصنع لهم طعامًا طيبًا لذيذًا ، وجعل منه على قدر البنادق فصار يُطعم كل من أدى إليه سبعة دنانير واحدة منها ، وزعم أنه طعام أهل الجنة نزل إلى الإمام ، ثم أعطى كل داعية مائة بلغة ، في مقابل سبعمائة دينار ، يؤديها إليه بعد بيعها .

ولما دان له الجميع بالطاعة فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون ، وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ (٣).

فقوّموا جميع ما يملكون وأدوّا خمسه إليه ، حتى كانت المرأة تخرج خمس ما تغزل ، والرجل خمس ما يكسب ، فلما تم ذلك له ، واستقر فرض عليهم « الأُلفة » (٤) ، وذلك بأن يجمعوا أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا فيه أسوة واحدة لا يفضل أحدهم صاحبه أو أخاه في ملك يملكه ، وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (٦) .

وأفهمهم أنهم في غير حاجة إلى أموال تكون معهم لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم ، وقال لهم هذه محنتكم التي أمتحنتم بها ليعلم كيف تعملون ، وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختارًا من ثقاتها تجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١١ .
(٣) سورة الأنفال ، الآية ٤١ .
(٤) أخبار القرامطة ، ص٤٣٤ ، سهيل زكار .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .
(٦) سورة الأنفال ، الآية ٦٣ .

وحليّ ومتاع وغير ذلك وصار ينفق عليهم بما يكفيهم فلم يبق بينهم فقيرًا ولا محتاجًا وأخذ كل رجل منهم في الإنكماش بصنعته والتكسب بجهده ليكون له الفضل في رتبته ، وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها ، والصبى أجر نطارته الطير [1] ، فلما تمكن من إحكام السيطرة عليهم وضمن طاعتهم بصورة مطلقة شرع في تعليمهم مبادئ الفلسفة وتعاليم القرمطة وإخراجهم من الشريعة بصورة تدريجية فاستجابوا له وعملوا بتوجيهاته ، كما أخبرهم أنهم أصبحوا في حلٍ من جميع الفرائض والتكاليف الشرعية ، حيث وضعت عنهم لأن معرفة صاحب الحق الذي يدعو إليه يغني عن كل شيء ولا يُخشى معه إثم ولا عذاب ، وكان من أهم أسباب نجاح قرامطة العراق في تحقيق هذه المكاسب الاضطرابات السياسية التي سادت البلاد آنذاك ، وما رافق ذلك من فساد إداري وخراب عام ، حتى عزف ذوي الإصلاح والأمانة وأصحاب الخبرة والمهارات عن تولي المناصب في الدولة .

إنهيار الحركة القرمطية بسواد العراق :

كان حمدان بن الأشعث على صلة برؤوس الدعوة في السلمية عن طريق تبادل الرسائل معهم ، حيث يتلقى منهم التعاليم والتوجيهات ، وله معهم في ذلك رموز وعلامات ولكنه بعد حين لاحظ في كتاب ورد عليه من هناك إختلافًا بيناً في الرموز والعلامات المتفق عليها ، فارتاب في الأمر وأيقن أن أمرًا خطيرًا قد حدث ، فاستدعى صهره عبدان من عمله وأمره بالتوجه للسليمة لمعرفة ما حدث فامتثل عبدان للأمر ، ولما وصل إلى السلمية علم أن صاحبهم قد مات ، فاجتمع بابنه وسأله عن الحُجة ومن الإمام بعده الذي يُدعى إليه ، فقال الابن في استغراب ومن الإمام ؟ قال عبدان : محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه وكان حجته فأنكر الابن على عبدان هذا القول ، وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبى وهو من ولد ميمون بن ديصان ، وأنا أقوم مقامه ، فانكشفت لعبدان حقيقة هذا الأمر ، وأدرك أن محمد بن إسماعيل ليس له في هذا الأمر شيء حقيقة [2] ، وإنما هو حيلة يحتالون بها على الناس ، فرجع عبدان إلى حمدان قرمط وعرّفه الخبر ، فأمره قرمط أن يجمع الدعاة وينقل لهم صورة الأمر وما تبين منه ، وطلب منهم التوقف عن الاستمرار في هذه الدعوة ، فاستجاب عبدان لذلك وتم قطعها وإخماد جذوتها في

(١) أخبار القرامطة ، ص٤٣٤ ، سهيل زكار .

(٢) أخبار القرامطة ، ص٤٥٨ ، سهيل زكار .

جميع المناطق الخاضعة لنفوذهم ولكن تفاقمها وانتشارها في مختلف البلدان حال دون السيطرة عليها ، وإنهائها بصورة جذرية ، ومن ذلك الإمساك عن مكاتبة أولاد القداح في السلمية وغيرها [١] ، وكان أحد هؤلاء يقيم في منطقة الطالقان لإدارة شئون الدعوة هناك ، وله بحمدان وسائر الدعاة صلة وثيقة ولما توقفت عنه كتبهم أهمه الأمر وأزعجه ، فسعى لمقابلة حمدان بن الأشعث ، وعلم أنه غادر إلى كلوازي ، فقصده هناك وسأل عنه فقيل له أنه غادرها إلى جهة غير معروفة حيث توارى عن الأنظار [٢] ، ولم يقف له أحد على خبر ، ولعله أغتيل على يد بعض من رأوا ضرورة استمرار هذه الدعوة ونظمها ، إما بدافع الاقتناع بمبادئها ، أو اتخاذها سبيلاً للوصول إلى الزعامة والسيادة والحكم ، وحين يئس ابن القداح من الوقوف على خبر حمدان قصد سواد الكوفة فنزل على عبدان فعتب عليه وعلى جميع الدعاة بسبب التوقف عن مكاتبته ، فأخبره عبدان بأنهم أقلعوا عن هذه الدعوة ، وقرروا التوبة منها ، وعدم الرجوع إليها ، وقال له إن إدعاء أبيك الانتساب إلى أبي طالب كان كذبًا كما أن دعوته للمهدي التي طلب منا العمل على أساسها كانت عارية من الصحة [٣] ، (فلما تبين أنه لا أصل لذلك وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان وأنه صاحب الأمر تُبنا إلى الله تعالى مما تحملناه وحسبنا ما كفرنا أبوك فتريد أن تردنا كفارا ؟!) .

وكان عبدان قد قرر التوبة من تلك الدعوة. حينئذٍ اتجه ابن القداح إلى زكراوية بن مهراوية فأطلعه على ما دار بينه وبين عبدان ، وطلب منه التعاون معه ، فصادف ذلك هوى في نفس زكراوية وأيقن بأن الفرصة قد واتته ليتبوأ مركز قيادة الحركة وهو الحلم الذي كان يراود نفسه من زمن بعيد .

وكان يحسد عليه حمدان وعبدان رغم أن الأخير كان أستاذه في هذه الدعوة ومرشده إليها ، وعلى الفور قام زكراوية باستدعاء أقاربه وخاصته فعرفهم على ابن القداح باعتباره ابن الحجة ، ولأن الحجة قد مات فإن ابنه هذا يقوم مقامه ، فأذعنوا له وبالغوا في إجلاله وتعظيمه ، وقد رأوا أن وجود عبدان على قيد الحياة يحول دون وصولهم إلى مقاصدهم بسبب نفوذه القوي على الدعاة ، فقرروا إزاحته عن طريقهم باغتياله وأناطوا هذه المهمة بجماعة من تميم بن كليب ففتكوا به من ليلتهم ، فلما شاع

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٥٨ ، سهيل زكار . (٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٩ .

في الناس هلاكه على يد زكراوية عزم جماعة على الانتقام له فخاف زكراوية على نفسه حين لم يجد حوله إلا أقاربه وخاصته وأيقن بعجزه عن تحقيق أهدافه فقال لابن القداح قد ترى ما حدث ولا آمن عليك وعلى نفسي فارجع إلى بلدك ودعني فإني أرجو أن يتغير الأمر فأتمكن من الناس وأدعوهم إليك ، فإذا تمكنت من ذلك أرسلت إليك لتصير إليّ (١) ، فانصرف إلى الطالقان ، أما زكراوية فقد استتر وصار يتنقل في القرى وذلك في سنة ست وثمانين ومائتين ، خوفاً من أصحاب عبدان الذين جدّوا في طلبه . ثم غادر السواد إلى سوريا ، فاختفى بين القبائل منذ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ هـ ، عاد بعدها إلى السواد ليستأنف نشاطه ، فأرسل ابنه يحيى إلى الشام يصحبه القاسم بن أحمد للتحريض على الثورة وإعلان التمرد على السلطة القائمة ، فاستجابت لدعوته جميع العناصر التي تبنت الاتجاه القرمطي في مختلف القرى والمدن ، وخاصة بنو كلاب ، وقشير ، وبنو عقيل ، وبنو العجراء ، وبنو العليس ومواليهم ، وبعض سكان مدن حلب ، والمعرّة وحماه وحمص ودمشق ، فبايعوه وساروا في ركابه للاستيلاء على البلدان والأمصار (٢) .

فكلف الخليفة العباسي عامله على سورية منصور الديلمي بالقضاء على تلك الجموع ، فأعد الديلمي جيشاً كبيراً سار به لمهاجمتهم في موقع غرب الفرات ، ولكنهم فاجئوه بأخذ زمام المبادرة في قتاله ، فحاقت به الهزيمة في الجولة الأولى من القتال ، وسقط كثير من جنوده في أرض المعركة بين قتيل وجريح وغنم القرامطة كل ما في عسكره من الأموال والعتاد فازدادوا بذلك قوة واغتراراً ، فانبثوا في أنحاء الشام يقتلون وينكلون بكل من يقف في طريقهم ، وفتحوا العديد من القرى والبلدان حتى دقوا أبواب دمشق ، فتصدى لهم ابن طغج بن جهم والي هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون على الشام ، وبذل كل ما في وسعه لتخضيب شوكتهم بيد أنهم تمكنوا من إلحاق الهزيمة به وقتل عدد من أصحابه ، فتقهقر بمن بقي معه من أتباعه إلى قلعة دمشق ، واعتصم بها ، فحاصر القرامطة القلعة طيلة سبعة أشهر ، دون أن يتمكنوا من اقتحامها (٣) وكان طغج قد بعث إلى أسياده في مصر يطلعهم على ما يعانيه من ضيق في ذلك الحصار وهلاك معظم أتباعه جوعاً ، ويحثهم على الإسراع

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٥٩ ، سهيل زكار . (٢) القرامطة ، ص ١٢٩ ، عارف تامر .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

بنجدته ، فأنفذوا إليه هارون بن بدر الهناني غلام بن طولون فسار حتى وصل إلى دمشق وفي ضواحيها إلتحم مع القرامطة في قتال مرير ، وفي هذه الأثناء تمكن طغج من الخروج بأصحابه والإنضام إلى ابن بدر ، حيث كثفوا الهجوم على القرامطة حتى أجلوهم عن مراكزهم .

وفي إحدى الوقعات تمكن رجل من أتباع الطولونيين من صرع يحيى بن زكراوية وهو على ظهر ناقة كان يقاتل عليها دائماً حتى عُرف بصاحب الناقة (١) .

وبعد أيام أعاد القرامطة ترتيب صفوفهم وتجميع قواهم فأعدوا جيشاً من العشائر السورية فبايعوا الحسن بن زكراوية صاحب الشامة ، فسارت جماعة منهم إلى سورية وفتحت مدينة الرقة وحلب وحماه وحمص ، فتصدى لهم مولى المكتفي فالتقى بهم في الرقة سنة ٢٨٩ هـ ، فأحدقوا به وأنزلوا بجيشه هزيمة منكرة ، ويمموا شطر دمشق ، وهناك اعترضهم غلام طغج فقاتلهم حتى قُتل ، وحين انتهى الخبر إلى الخليفة العباسي المكتفي ، بادر بإعداد جيش من عشرة آلاف مقاتل أسند قيادته لأبي الأغر السلامي ، فسار إلى الشام والتقى في حلب بجموع القرامطة على وادي بطنان ، وبعد قتال مرير حاقت الهزيمة بأبي الأغر فتعقبه القرامطة وقتلوا عدداً كبيراً من عسكره ، فدخل قلعة حلب وتحصن بها مع ألف من رجاله ، وحين يئس القرامطة من الوصول إليه سار الحسن بن زكراوية إلى حماه فاستولى عليها ، ثم سار منها إلى حمص ثم بعلبك وكرّ راجعاً إلى السلمية فأخذ أهلها الأهبة لقتاله وصده عنها ، ولكنه اكتسحها وأفشى القتل في أهلها وشردهم في كل مكان ، وأفنى جميع من بها من العباسيين ، واتجه جماعة من القرامطة إلى قصر عبيد الله المهدي ، وقتلوا من وجدوا فيه من الرجال والنساء ، وكان عبيد الله هذا قد غادر السلمية قبل وصول القرامطة إلى قصره لأن أحد الدعاة الموالين له قد أحاطه علماً بما كان يُدبر له في الخفاء ، فسارع إلى الخروج من السلمية وتوجه إلى المغرب مصطحباً معه أفراد أسرته تاركاً ورائه في القصر أخاه أبا محمد لمرضه ووكيله حسن بن معاذ إلى جانب الخدم والخادمات وعددهم كثير ، كما قام بإخفاء كثيراً من النفائس والمجوهرات في أرض قصره وعندما استقر في المغرب أرسل من جلبها إليه .

---

(١) القرامطة ، ص ١٣٠ ، عارف تامر .

وأكبر الظن أن آل زكراوية أقدموا على هذه الإجراءات في ظل الولاء لحليفهم من ولد القداح السالف الذكر والمقيم في الطالقان ، وأن عبيد الله هذا في نظرهم لا يعدو كونه دعياً مغتصباً لحقوق غيره ، وكان ذلك سنة ٢٨٩ هـ ، بعد هذه الأحداث سار الحسن بن زكراوية إلى دمشق فألقى عصا التسيار فيها ، وتوالت على الخليفة المكتفي في بغداد أخبار الممارسات الوحشية الرهيبة التي تركها القرامطة في حق سكان المناطق التي نُكبت بهم ، فأعد الخليفة في سنة ٢٩١ هـ جيشاً جراراً سيره إلى الشام بقيادة محمد بن سليمان [١] فاستولى على الرقة ثم حلب وحماه ، وهناك التحم مع القرامطة في قتال مرير انتهى بهزيمة القرامطة ، فتفرقت جموعهم في شتى البقاع ، ولاذ قائدهم حسن بن زكراوية ورفيقه عيسى بن أخت مهراوية بالفرار يرافقهما غلام رومي حاول أن يسير بهما إلى سواد الكوفة في غير الطريق المعروفة إمعاناً في التخفي والهروب من أعين الرقباء .

ولما وصلوا إلى الموقع المعروف « بالدالية » [٢] على مقربة من الرحبة نزلوا هناك ، وأرسل الحسن الغلام ليحضر لهم بعض ما يحتاجون إليه ، ولكن أهل البلدة إرتابوا في أمره فألقوا عليه القبض وأحضروه إلى الوالي ، فقام بالتحقيق معه ، وشدد عليه في ذلك حتى اعترف له بكل شيء وأخبره بمكان صاحبيه فأرسل الوالي بعض الجنود المسلحين وألقوا القبض على الحسن وصاحبه فقيدوا الثلاثة وحملوهم إلى الخليفة في بغداد ، فأودعهم السجن مع سائر الأسرى الذين بعث بهم محمد بن سليمان من الشام فتم إعدام الجميع في يوم مشهود [٣] بنيت فيه مصطبة عظيمة جلس عليها الخليفة وحاشيته ووقف حولها جمهور غفير من المتفرجين فكان يؤتى بالواحد من أولئك الأسرى فتبتر أطرافه واحداً بعد آخر ثم يقطع رأسه ويلقى بالجميع على الأرض وسط موجة صاخبة من التكبير والتهليل ثم صلب الجميع فعلقت رؤوسهم على السواري ، وقد استمر زعيمهم الحسن مصلوباً طيلة عام كامل [٤] .

ولم تردع صرامة هذه الإجراءات زكراوية بن مهراوية ولم تفت في عضده فعقد العزم على استئناف النشاط الإرهابي والانتقام لولديه ، وأفراد أسرته وأتباعه فانتدب لهذه المهمة أبا غانم محمد بن عبد الله بن سعيد أحد أخص دعاته ، فجاء إلى بني

---

(١) القرامطة ، ص ١٣٣ ، عارف تامر . (٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٣ . (٤) القرامطة ، ص ١٣٤ ، عارف تامر .

كلب فحثهم على التمرد فاستجاب له منهم خلق عظيم (١) ، فيهم بنو الأصبع وبنو العليس ، فاتجه بهم إلى الشام ، وكان عامل المكتفي أحمد بن كيغلغ حينذاك غائباً في القطر المصري ، فاغتنم أبو غانم فرصة غيابه فسار إلى بصرى وإذراعات في حوران واستولى عليها ، وعاد إلى دمشق فتصدى لقتاله صالح بن فضل ولكن جيش زكراوية تمكن من القضاء على عسكره والقبض عليه وقتله بعد حين .

ثم سار إلى طبرية ثم اتجهوا إلى هيت فأغاروا عليها سنة ٢٩٣ هـ ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، فأرسل المكتفي محمد بن إسحق ومؤنس الخادم بجيشين عظيمين لعلاج الموقف وتحريره .

وأخيراً قُتل أبو غانم محمد بن عبد الله وحُمل رأسه إلى بغداد ، ولكن زكراوية بمساعدة قبيلة بني كلب أعد جيشاً سيّره بقيادة أحمد بن القاسم إلى الكوفة فتصدى لمقاومتهم أهلها ، كما هب لقتالهم إسحق بن عمران بجيش جرار ، وبعد قتال شديد اتجه القرامطة إلى السواد ، فبعث إليهم الخليفة جيشاً كبيراً تمكن القرامطة من سحقه والاستيلاء على ما به من الأموال والعتاد ، ثم اتجهوا لاعتراض الحجيج ونهبهم ، وفي ذات الوقت سارت جموع منهم إلى سورية لنشر الرعب والإرهاب هناك ، ومن ثم لم يبق في أمصار الإسلام بيت إلا ودخله الأذى والرعب من تلك العصابات الجائرة (٢) .

فأعد الخليفة المكتفي جيشاً جراراً سيّره للقضاء على القرامطة بقيادة « حوار تكين » فالتقى بالقرامطة في ظاهر حمص ودخل معهم في معركة طاحنة أسفرت عن هزيمة القرامطة وإشعال النار في قبة زكراوية ، بيد أنه تمكن من الخروج منها فأدركه أحد المقاتلين فضربه ضربة أسقطته على الأرض فكبل بالقيود ، وتم إرساله إلى بغداد فوصلها ميتاً في سنة ٢٩٤ هـ ـ فحنط وشُهر به وقتا طويلاً ، وكان معه أفراد أسرته فقتلوا جميعاً (٣) .

ومن ثم خبت نار قرامطة السواد حتى قام أبو حاتم الزُطيّ للثأر فأعد جموعاً من بقايا القرامطة ، وأعلن التمرد والعصيان ولكن تم القضاء عليه بسرعة ، وقام رجل

---

(١) القرامطة ، ص ١٣٤ ، عارف تامر . (٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) القرامطة ، ص ١٣٦ ، عارف تامر .

يُدعى محمد بن عجيل بن قطبة فسار على رأس جماعة من القرامطة إلى واسط فهب لقتالهم أميرها فقضى عليهم وشتت شملهم ، فخفت صوتهم في تلك المناطق ولم ترتفع لهم راية حتى ظهر أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجناني في العراق قادماً من البحرين ، فاستيقظت بظهوره هناك رؤوس الفتنة القرمطية وهبت لمساعدته ، وسنلقي الضوء على المزيد من أخبارهم عند ذكر النشاط العسكري لأبي طاهر في العراق .

ويُرجع الباحثون أسباب إخفاق حركة قرامطة العراق والشام وإحباط حركاتهم العسكرية المتكررة رغم شراستها لعوامل منها :-

أنه لم يتوفر لها الوقت الكافي لتنظيمها عسكرياً ، كما لم تكن لها قيادة منظمة بدرجة كافية ، ولعل الحركة بدأت قبل إكتمالها على أن إزاحة الستار عن أصحاب الدعوة الحقيقيين وإدعاء عبيد الله أنه المهدي ، وانتحاله النسبة إلى آل البيت .

يعتبر في تصوري المعول الحقيقي الذي قوض أركان الدعوة وزعزع كيانها وفكك أوصالها ، حيث أدى إلى خروج بعض الدعاة عن هذه الحركة ، وإعلان البراءة منها ، وإيقاظ الأطماع والطموحات في نفوس آخرين حيث حاولوا الاستقلال بما تحت أيديهم من المناطق والممالك في حين تعرض دعاة آخرون إما للاغتيال في ظروف غامضة أو القتل على يدى عبيد الله الملقب بالمهدي حين استتب له الملك وتمكن من القبض على زمام الحركة في بلاد المغرب ، ومن ذلك قتله لكبير دعاته عبد الله الشيعي .

هذا فضلاً عن أن معظم أتباعهم من رجال العشائر الذين لم يكن قتالهم إلى صفوفهم عن إقتناع بالدعوة بقدر ما هو رغبة في إغتنام الغنائم والأموال .

رابعاً : « الحركة القرمطية في البحرين » :

في الوقت الذي كانت الحركة القرمطية في الشام والعراق تلفظ أنفاسها كانت غرفة العمليات في البحرين تتهيأ لإستقبال ولادة حركة قرمطية أخرى من نفس الطراز .

فقد ذكرت المصادر أن منطقة القطيف كانت إحدى المناطق التي وضعها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط على قائمة الأراضي المنتخبة لزرع الدعوة القرمطية للشبه الكبير بينها وبين منطقة السواد في الطبيعة والظروف والأحوال ، وقد أسند مهمة الإشراف على سير الدعوة بها أحد كبار دعاته المعروف بأبي الفوارس ، أما أهم الدعاة الذين

عملوا على نشر مبادئ هذه الحركة في البحرين بصورة مباشرة فأهمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ، الذي نجح في تأسيس دولة قرمطية قوية شملت البحرين واليمامة وأجزاءً من الجزيرة العربية ، وطبقت في دقة متناهية جميع مبادئ ونظم الحركة القرمطية بجوانبها المختلفة ، فقد جاء في المصادر أن أبا سعيد هذا كان على درجة كبيرة من الذكاء والفهم والإلمام بالعلوم السائدة في عصره ، وبخاصة الفلسفة .

وقد جاء من قرية بفارس تُدعى جنابة (١) ، ونزل في سواد الكوفة وتزوج من فتاة من بني قصار ، إحدى الأسر التي اعتنقت مذهب القرامطة من زمن بعيد ، وهناك التقطه عبدان (٢) ، فضمه لحركته ودرسه أصولها وتعاليمها ، وعينه بإحدى الرتب المتقدمة وأناط به مهمة نشر الدعوة في إقليم البحرين فنزل في القطيف وشرع في الترويج لهذه الدعوة ، وكان أول من أجابه جماعة من بني سنبر ، ولكنه لم يشعر بالارتياح لما أصاب من نجاح بسبب وجود داعٍ آخر يُعرف باسم أبو زكريا الطمامي .

كان عبدان قد أنفذه إلى هناك قبل أبي سعيد (٣) ، فقد رأى فيه منافساً خطيراً يعيق حركته ويحد من طموحاته الواسعة ، فقبض عليه وحبسه في أحد المنازل حتى مات من الضعف والهزال (٤) . فأثار ذلك حفيظة أتباع أبي زكريا من بني سنبر ، وعقدوا العزم على الانتقام له من أبي سعيد ، فخاف أبو سعيد على نفسه ولاذ بالفرار إلى جنابة ، وهناك سمع بظهور داعية في القطيف يُدعى يحيى بن المهدي استمال كثيراً من الشيعة إلى دعوته وشرع في جمع الأموال منهم ، بواسطة كتب زعم أنها من المهدي إليهم وأن ظهوره قد قُرب وذلك على غرار ما كان يتم في سواد الكوفة ، وعلى الفور سارع أبو سعيد في اللحاق به فوضع يده في يده واتجها إلى بني كلاب وعقيل والحريش ، فاستمالاهم للدعوة ، وأعدا منهم جيشاً بدءَا به نشاطهما العسكري (٥) .

ولكننا نرى يحيى بن المهدي هذا يتوارى عن الأنظار في ظروف غامضة لينفرد أبو سعيد بقيادة الحركة وإدارة شئونها ، ومن الباحثين من يميل إلى الاعتقاد بأن آل جنابي اعتنقوا مبادئ القرمطة في زمن مبكر ، أي منذ عهد عبد الله بن محمد بن ميمون وإن مجيئ أبي سعيد للكوفة كان لزيارة الدعاة والتعرف عليهم وتعميق الصلات بهم ، وتنسيق الجهود معهم ، في إطار المبادئ التي كانت تحتم على كبار دعاة

(١) إتعاظ الحنفاء ، تقي الدين المقريزي .
(٢) المرجع السابق .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٤٦٠ ، سهيل زكار .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦١ .
(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٩٢ ، ابن الأثير .

الأقاليم عقد اجتماعات دورية عامة تحت رئاسة داعي الدعاة في كل عام مرة على الأقل [١] .

ومهما يكن من شيء فإن أبا سعيد كان من أهم الرجال المتحمسين لهذه الدعوة ، لا يبالي بارتكاب أفظع الممارسات وأشدها قسوة في سبيل نجاح دعوته .

وكان له في القطيف مركز إقتصادي هام حيث كان ضامناً لمكوسها ، كما كان يتاجر في الدقيق حتى جمع مالاً عظيماً أنفقه في نشر مبادئ الحركة وتعزيز نشاطها ، ولما كوّن له بعض الأنصار والمريدين ، واستطاع أن يؤلف جيشاً من الأعراب ورجال البادية ، شرع في فرض مذهبه بقوة السلاح ، فبدأ نشاطه العسكري بشن غارات إرهابية خاطفة على نواحي القطيف ، وطرق القوافل التجارية .

نجاح أبي سعيد في الاستيلاء على مدن البحرين ونواحيها وإجراءاته في الحقلين الداخلي والخارجي :

قرر أبو سعيد اجتياح مدينة القطيف نفسها فزحف عليها في جموع كثيرة من البادية فانبرى أهلها للدفاع عنها برئاسة أميرهم علي بن مسمار ، وجرت بين الطرفين معركة ضارية كان فيها الظفر للقرامطة ، وسقطت المدينة في أيديهم [٢] ، فاستولى على كل ما بها من الأموال والأسلحة والعتاد ، ونكل بأهلها ومثل بهم ، وأفلت منه جماعة فدخلوا الزارة ، فلحق بهم وفرض الحصار على المدينة ، وحاول أهلها الدفاع عنها برئاسة الحسن بن عوام من الأزد دون جدوى ، فاجتاحها أبو سعيد ، وأسرف في قتل أهلها ، والتمثيل بهم ، ونهب جميع ما كان فيها من الأموال والأسلحة والمواشي ، وأضرم فيها النار ، حتى أصبح كل ما فيها هشيماً تذروه الرياح وذلك سنة ٢٨٣ هـ ــ ٨٩٦ م ــ ولم يزل موضعها يُعرف حتى الآن باسم الرمادة . ثم اكتسح صفوى وكان بها بنو حفص من عبد القيس ، ثم استولى على الظهران ثم أخضع جواثا وكان رئيسها آنذاك العريان بن هيثم الربعي ، ثم استولى على مدينة يبرن ، وكان لا يدخل مدينة إلا على ركام من جثث أهلها الذين بذلوا في مقاومته كل غال ونفيس ، غير آبهين بما سيلقون على يده من ألوان التعذيب والتنكيل وسوء العاقبة ، فقد كان يسحق كل من يخالف أوامره ، أو يقف في وجه جيوشه ، فهابه الناس بعد تلك المجازر ، وفر منه خلق كثير إلى بلدان شتى ، ولم تمتنع عليه سوى مدينة « هجر » وهي عاصمة البحرين ومركز التجارة والوجهاء ، فنازلها شهوراً عديدة يقاتل

(١) القرامطة ، ص ١٣٩ ، عارف تامر .
(٢) الإشراف والتنبيه ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ المسعودي .

أهلها وأخيراً انتقل منها إلى الأحساء فاحتلها وكان بها قوم من بني سعد من تميم ، وابتنى بها منزلاً للحكومة ودورًا له ولعسكره ، متخذاً منها عاصمة لدولته ، ومن ثم أخذ في تنظيم أحوال العمران والتجارة والزراعة ، وقبض بيده جميع الأموال ومصادر الإنتاج ، وصار يقسم الأرزاق على أتباعه بصورة متكافئة ، ودعا عشائر البادية للحرب تحت رايته فأجابه منهم خلق كثير باستثناء بني ضبة الذين امتنعوا عليه وأظهروا رغبتهم في مقاومته ، فهاجمهم وقتل منهم خلقاً عظيماً بطريقة متوحشة نادرة المثال .

وبالرغم من هذه القوة التي استطاع تحقيقها والانتصارات التي سجلها فإن مدينة هجر ظلت صامدة أمام حصاره لها وهجماته المتكررة عليها ، ومحاولته اقتحام أسوارها بدبابات تدفعها البقر والجمال استمرت تلك الجهود عديمة الجدوى طيلة نيف وعشرين شهراً حيث تمكن بعد ذلك من تحويل مجرى العين التي تغذي مدينة هجر بالمياه إلى البحر بعد فشله في ردمها بمختلف الوسائل (١) .

حين ذاك اضطرت المدينة للتسليم بالأمر الواقع فدخل بعض أهلها في طاعته ولاذ آخرون بالفرار إلى جزيرة أوال وبقيت طائفة لم يفروا لعجزهم ولم يدخلوا في طاعته ، فجرعهم صنوف القهر والإرهاب ، ثم دعا الفقهاء وطلبة العلم ووجوه المدينة للإجتماع بدعوى التداول في بعض الأمور التي تعود بالفائدة على الصالح العام ، ولما اجتمعوا أضرم فيهم النار ، ومن نجح في الفرار من تلك المحرقة تلقته سيوف رجال أعدوا لهذا الغرض (٢) .

وحين وطدّ أبو سعيد ملكه في البحرين واستحكمت قبضته عليها ، توالت غاراته على الأقطار المجاورة ، فاستولى على اليمامة ، وفتح الفلج وقضى على ملك بني الأخيضر العلويين ، وصادر أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم (٣) . ثم حاول فتح عُمان

---

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢١٥ ، المقريزي . (٢) المرجع السابق .

(٣) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٠ ، سهيل زكار . عن حكم بني الأخيضر باليمامة أنظر : تاريخ الدرعية ، ص ٤١ ، ٦٩ ، الشيخ عبد الله بن خمس .

ولم تكلل جهوده بالنجاح . وفي هذه الفترة انتهى إلى مسامع الخليفة العباسي المعتضد أخبار انتصارات أبي سعيد فخاف على البصرة ، فأنفذ العباس بن عمرو الغنوي على رأس جيش من ألفين مقاتل سوى المتطوعة من أهل البحرين وبعض العشائر ، فالتقى بأبي سعيد في موضع بالبحرين يدعى « أفان » فدارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة الجيش العباسي ووقوع العباس بن عمرو الغنوي مع سبعمائة من رجاله في أسر أبي سعيد وذلك في سنة ٢٨٩ هـ .

وقد قام أبو سعيد بعد حين بإطلاق سراح العباس وأذن له بالمسير إلى بغداد وحمله رسالة شفوية إلى الخليفة المعتضد جاء فيها قوله : « الذي أنزل بجيشك ما أنزل بغيك ، هذا بلد كان خارجاً عن يدك ، فغلبت عليه وكان فيّ من الفضل ما آخذ به غيره ، فما عرضت لما في يدك ولا هممت به ، ولا نلت أحداً من رعيتك بسوء ، فتوجيهك إليّ الجيوش لأي سبب ؟

إعلم أني لا أبرح عن هذا البلد ولا يوصل إليه وفي هذه العصابة التي معي روح ، فإكفني نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة ، ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر » (١) .

وأطلقه وأرسل معه من يرده إلى مأمنه ، فوصل إلى بغداد في شهر رمضان من السنة .

وحين قابل المعتضد بلغه رسالة أبي سعيد إليه فقال الخليفة « صدق ما أخذ شيئاً كان في أيدينا » ، وأطرق مفكراً ثم رفع رأسه فقال (١) : « كذب عدو الله الكافر المسلمون رعيتي حيث كانوا من بلاد الله ، والله لإن طال بي عمر لأشحصن بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني ولأوجهن إليه جيشاً فإن هزمه وجهت جيشاً فإن هزمه خرجت في جميع قوادي وجيشي إليه ، حتى يحكم الله بيني وبينه » ، ثم شغلته عن ذلك أمور حتى مرض ومات دون أن يحقق ما كان يتمناه .

---

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢١٨ ، المقريزي .
(٢) الكامل في التاريخ ، جـ٦ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير .

ترتيبات أبي سعيد في الحقل الداخلي ووفاته :

أما أبو سعيد فحين فرغ من التصدي لجيوش الغنوي وهزيمته عكف على تنظيم شئون البلاد الاقتصادية والعسكرية ، والقضاء على القبائل التي أسهمت في القتال إلى جانب العباسيين فأمر بشراء السلاح ، وإنشاء مصانع إنتاجه على اختلاف أنواعه ، وإنتاج الأوعية والمعدات والأجهزة اللازمة للشئون المدنية والعسكرية ، وإيداع جميع ما يزيد عن الحاجة في مخازن خاصة ، وعكف على تنمية مصادر الدخل وحفظ الأموال وصرفها وفق نظام دقيق بحيث يصل إلى كل إنسان ما يحتاج إليه دون تمييز (١) .

كما جمع الأسرى من الصبيان والأولاد في دور خاصة ووسمهم حتى لا يختلطوا بغيرهم ونصب لهم من يعلمهم أصول الفلسفة ومبادئ القرمطة ، كما أمر بتدريبهم على ركوب الخيل وفنون الفروسية ، وعمل على تنظيم الجيش وتدريب أفراده بصورة مستمرة ، واقتنى عدداً كبيراً من الخيول والإبل وشدد الحراسة على منافذ البلد ، وطرد الأعراب من حولها وقسم الطاقة البشرية العاملة إلى فئات حسب تخصصاتها وأقام على كل فئة العرفاء والمدربين ، فأوجد بذلك نمطاً خاصاً للحياة الاقتصادية والاجتماعية (٢) .

مصرع أبي سعيد الجنابي :

كان أبو سعيد قد اتخذ من عسكر العباس بن عمرو الغنوي بعد هزيمته في البحرين خادماً صقلبياً (٣) . لخدمته الخاصة ، فكان يشرف على طعامه وشرابه ، وكان على ما يبدو متمسكاً بتعاليم الإسلام غيوراً على حدود الله ، وقد أغضبه كثيراً أنه لم يرى سيده صائماً أو مصلياً قط ، فعقد العزم على الفتك له ، ويلمح صاحب كتاب أخبار القرامطة إلى أن هذا الخادم قد يكون مدسوساً من الفاطميين لإغتيال أبي سعيد لكون الرقيق الأبيض من الصقالبة تستخدم في المغرب لا في المشرق .

---

(١) و (٢) أخبار القرامطة ، ص ٤٦٦ ، سهيل زكار .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

وجاءت الفرصة المواتية لهذا الغلام كي ينفذ رغبته حيث وجد نفسه ذات يوم مع سيده في حمام داره منفردين فأخرج خنجراً ماضيا كان يخفيه تحت ثيابه وأغمده في صدر أبي سعيد حتى لفظ أنفاسه ، ثم أخذ الخادم يدعو كبار القرامطة المتواجدين في الدار لدخول الحمام بأسمائهم واحداً بعد آخر بحجة أن السيد يريدهم ، فإذا دخل الرجل فتك به الخادم ، وأخيراً تنبه أحد الرجال للأمر حين كان يهم بالدخول ورأى دماً جارياً في البيت الأول للحمام فتراجع بسرعة وأشعر الحاضرين بذلك وعمد الخادم إلى الباب فأغلقه ، وكان وثيقاً فاجتمع الناس وكسروا الباب وقبضوا على الخادم ، وبعد محاكمة قصيرة أمر أولاد الحسن بن بهرام الجنابي بالخادم فشد وثاقاً بحبال غليظة وقرض لحمه بالمقاريض حتى مات [١] .

وكان أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي قد خلف من الأولاد أبا القاسم سعيداً ، وأبا منصور أحمد ، وأبا العباس إبراهيم ، وأبا طاهر سليمان ، وأبا يعقوب يوسف ، وبنت واحدة هي زينب ، وقد أمضى في الحكم ستة عشر عاماً .

وكان قبل موته قد جمع رؤساء دولته كبني سنبر وبني زرقان ، وأوصاهم قائلاً : إن حدث به موت أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر ، وكان سعيد أكبر من أبي طاهر سناً ، فإذا كبر أبو طاهر كان المدرب له وأخبرهم بأن الفتوح ستكون لأبي طاهر فأوصاهم بالتعاون والتناصر والتشاور وعدم الاختلاف ، فجرى الأمر على ما أوصى به ، فتولى سعيد رئاسة مجلس الدولة وتصريف شئونها إلى سنة ٣٠٥ هـ ، ثم سلم الأمر لأخيه أبى طاهر ، وقد كان علي بن عيسى بن داود بن الجراح وزير المقتدر [٢] قد بعث إلى أبي سعيد برسالة جاء فيها قوله : زعمت أنك رسول المهدي وقد قتلت العلويين ، وسبيت آل الأخيضر العلويين ، ومن باليمامة [٣] . واسترققت العلويات ، ويؤنبه على ذلك . وكانت هذه الرسالة قد وصلت بعد موت أبي سعيد فأجاب عنها أولاده علي بن عيسى برسالة حاولوا فيها أن يتلطفوا به ويبرروا

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٦٧ ، سهيل زكار .

(٢) علي بن عيسى بن داود بن الجراح استوزر للمقتدر والقاهر ، توفي ببغداد سنة ٣٣٤ ، له كتب ورسائل متعددة ، اتصف بالزهد والاستقامة .

(٣) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٠ .

الممارسات الفظيعة التي اقترفوها في حق سكان البحرين والمناطق التي تمكنوا من اخضاعها لنفوذهم . وقد جاء فيها ما نصه : « إن أهل البحرين بغوا علينا وغدروا بنا ورمونا وقالوا إنا نشترك في أزواجنا ونرى الإباحة وتعطيل الشريعة وقد كذبوا علينا ونحن قوم مسلمون ، وما نُحل من اتهامنا بغير الإسلام » .

فكتب إليهم علي بن عيسى « إن كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسرى المسلمين » ، فأطلقوا منهم نحو ثلاثين ألف ، وأظهروا الإسلام والصلاة وقراءة القرآن وخجلوا من فضيحة قولهم بخروج المهدي في سنة ٣٠٠ هـ .

الحركة القرمطية في ظل أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي :

في سنة ٣٠٥ هـ قام سعيد بتسليم مقاليد الحكم لأخيه أبى طاهر جرياً على ما أوصى به والده ، وقيل أن سعيد عجز عن الحكم فسلمه لأخيه السالف الذكر ، وكانت بغداد آنذاك تتعرض لموجة شديدة من الإضطرابات السياسية والأزمات الحادة حيث كان بنو بصطام ، وبنو القاسم بن عبد الله وآل الفرات وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله (١) . وكانوا يتشيعون فراسلوا أولاد أبي سعيد وقالوا لهم : « أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي فلما صار الأمر إلى هذا الصبى المقتدر بالله قعدتم ، قوموا فنحن كتابه وأصحابه والدولة لكم ، ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه ، فإن الناس قد تناسوا ذلك » (٢) ، فقال أولاد أبي سعيد : هذا الرجل علي بن عيسى رجل صالح وما دام هو الناظر فما نختار مخالفته » .

فلما قبض السلطان على علي بن عيسى أطلقت من بغداد ومن الكوفة الشيعة الطيور إلى البحرين تخبرهم بذلك (٣) . حينئذٍ أرسل أبو طاهر إلى المقتدر يطلب منه أن يقطعه البصرة والأهواز ولكنه رفض بشدة هذا الطلب ، فسار أبو طاهر في سنة ٣١٠ هـ على رأس جيش من ألف وسبعمائة مقاتل (٤) مجهزين بأحسن العتاد

(١) ، (٢) ، (٣) أخبار القرامطة ، ص ٣٠١ سهيل زكار .

(٤) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص١٧٥ ابن الأثير .

والأسلحة الماضية فوصلوا إلى البصرة ليلاً ، وطوقوها بالحصار ونصبوا السلالم وصعد عليها قوم من أشداء المقاتلين فتسوروا السور ونزلوا في المدينة فقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب وطرحوا بها أكواماً من الرمال كي يصعب إغلاقها ، فانتهى الخبر إلى والي البصرة سبك المفلحي ، فسار وقد طلع الفجر فتلقته القرامطة وقتلته (١) .

وفزع الناس وركبت الخيل وقُتل من تسرع منهم ، وكانت العامة قد منعها الخليفة أن تحمل سلاحاً ، فاجتمعوا بغير سلاح فانضم إليهم الجند ، ودخل الجميع مع القرامطة في معركة شديدة فأصابت القرامطة جراحات والقتل في العامة كثير ، واستمر ذلك إلى آخر النهار ، واختلاط الظلام ، ثم خرج القرامطة بعد أن قتلوا من الناس خلقاً عظيماً إلى خارج البلد ، فباتوا خارج السور ، وكان كثير من الناس قد لاذوا بالفرار مع حرمهم وأولادهم ، وباكر أبو طاهر المدينة فنزل دار عبد السلام الهاشمي ، وانتشر أصحابه في أنحاء المدينة فقتلوا من بقيّ من الرجال ، ونهبوا كل ما وجدوا في المنازل من الأموال ، وجمعوا ذلك في مكان خاص ، واستمروا على هذا الحال سبعة عشر يوماً وذلك في ربيع الثاني ٣١٠ هـ وقيل ٣١١ هـ ، وظل القرامطة في البصرة يحملون كل ما يقدرون على حمله من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان ، ثم أقفلوا راجعين إلى بلدهم (٢) . وبعد انصرافهم تراجع الناس واشتغلوا بدفن القتلى ولم يرد كثير منهم أهله خوفاً من عودة القرامطة ، وحين بلغ الخبر الخليفة أرسل ابن بني النفيس في عدد وعُدة ، وعمّ الهدوء ، واتخذ الناس الحيطة بإعداد السلاح وحراسة الأسوار ومراقبة الطرق . وكان أبو طاهر زرع أرض العراق بجواسيسه في صور مختلفة ، وقد بلغه أن أبا الهيجاء قد تقلد أعمال الكوفة والسواد ، وقصر ابن هبيرة وطريق مكة وأنه يهون أمره ويتمنى لقاءه ، فقرر أبو طاهر أن يتغداه قبل أن يتعشاه ، وأن ينزل به ضربة قاضية تقذف الرعب في قلب الخليفة وجميع قواده . ووجد في تولية أبي الهيجاء طريق الحج وإسناد إمرة قوافل الحجيج إليه سنة ٣١١ هـ فرصة سانحة لتحقيق رغبته تلك . فشرع في جمع كل ما يمكن جمعه من معلومات عن الحجيج في ذلك العام فأرسل إلى

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٣٩ ، المقريزي .

(٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٧٥ ، ابن الأثير .

مكة أحد جواسيسه ، وقد خرجت قوافل الحجاج مع أبي الهيجاء بن حمدان في تلك السنة فكان الجاسوس يقوم على المحجة فيقول : يا معشر المسلمين أدعو على القرمطي عدو الله وعدو الإسلام يسأل عن الحجاج وأمرائهم ومن فيهم من التجار وما معهم من الأموال إلى غير ذلك من المعلومات ، وكان ذلك دأبه حتى قضى الحج ، ثم خرج فور انتهاء مشاعر الحج فأسرع إلى سواد باهلة ثم اليمامة ووصل الأحساء في أيام يسيرة وأطلع أبا طاهر على جملة الأمر كله (١) .

أبو طاهر يعترض الحجيج :

قرر أبو طاهر اعتراض الحجيج ، فسار على رأس جيش من ستمائة فارس وألف راجل ، وبعث في الحال جماعة من أتباعه لتخريب آبار وأحواض مياة لبنة (٢) وما دونها ، وكان أبو الهيجاء عبد الله مقيماً ينتظر قدوم القوافل ، فجاءه أعرابي وأحاطه علماً بما لحق بمياه لبنة من التخريب ، فاستراب في الأمر ثم جاءه بعض الأعراب بجلة فيها قطعة من تمر هجر ، فتأكد لديه أن القرامطة وصلوا إلى هناك وذلك في آخر ذو الحجة ٣١١ هـ ، وشغل ذلك قلبه وجاءه ما لم يقدره ولا ظنه ، فاضطرب اضطراباً شديداً وورد حاتم الخراساني بقافلة الحاج الأولى ثاني ذلك اليوم ، فزاد ذلك في شغل قلب أبي الهيجاء لخوفه على الحجيج ، ولم يظهر خوفه لأحد ثم إرتحل حاتم فلم يعترض عليه ، فلما صار بالثعلبية أنهى إليه شيئاً من أخبار القرامطة ، وإنهم بلبنة ، فسار حاتم فاجتاز الهبير ليلاً فلم ينزله ووصل الشقوق وحث السير حتى وصلت القافلة إلى بلدها بسلام .

وفي اليوم التالي لرحيل حاتم قدمت قافلة أخرى من مكة ونزلت « بفيد » ، ثم رحلت عنها حتى إذا كانت بالهبير ظهر لها أبو طاهر القرمطي وقتل بعض أفرادها ، وأفلت البعض حتى وردوا الكوفة ، وكان أبو الهيجاء قد أرسل رجلاً طائياً من بني سُنبس خبيراً بالبر يقال له « مسبع بن العيدروس » لإستقصاء أخبار القرامطة وإطلاعه عليها

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٢ ، سهيل زكار .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٢ .

في أسرع وقت ممكن . فساروا حتى اقتربوا من لبنة فتلقتهم جماعة من القرامطة وقتلتهم وأسرت مسبعاً وحملته إلى لبنة فسأله أبو طاهر وقال له إن صدقتني أطلقت سراحك فأخبره بكل شيء فأمر أبو طاهر بحفظه (١) .

وبعد يومين من إرسال أبي الهيجاء لهذه الطليعة وردت قوافل الحجيج والقوات العسكرية المكلفة بحفظها ، وفيها من كبار رجال الدولة ووجهاء المجتمع أحمد بن بدر عم والدة المقتدر بالله ، وشفيع الخادم ، وفلفل الأسود صاحب خزانة السلطان ، وإسحق بن عبد الملك الهاشمي صاحب الموسم وغيرهم ، فأخبرهم أبو الهيجاء بوصول القرامطة ، وإنهم في لبنة ، وإنه أرسل جماعة يثق بهم لاستقصاء أخبارهم وأن من الصواب توقف القوافل عن الرحيل في إنتظار ما يأتون به من الأخبار (٢) فأخذوا بهذا الرأي وظلوا مقيمين بفيد ستة أيام ، ونزلت القافلة الوسطى « فيداً » فكثر الناس وغلت الأسعار وعجزوا عن توفير الخبز للناس والعلف للمواشي ، فلم يجدوا بُداً من الرحيل فرحلوا عن « فيد » يوم الأحد باستثناء جماعة منهم فضلت المسير إلى العراق على غير الطريقة المعروفة . ولم يسلم من الحاج غيرهم والقافلة السالفة الذكر التي كانت مع حاتم .

ولما اجتمعت القوافل وتجلى لهم خبر القرامطة وتأكد ، سار أبو الهيجاء بالناس إلى « الخزينية » ثم إلى الثعلبية ثم أراد المسير إلى البطان (٣) ، واجتمع الناس من أصحاب الخليفة والرؤساء لتبادل المشورة ، فطفق أبو الهيجاء يناشد القوم ويقول لهم : « ارجعوا ودعوني ألقى القرامطة في أصحابي فإن أصبت بسوء فمعكم من تسيرون معه ، وإلا فامضوا إلى وادي القرى والمدينة أو غير ذلك ، وإن ظفرت وجهت إليكم فعدتم ، وقد زال المحظور » (٤) .

ولم يزل يردد عليهم هذا القول من الأجفر إلى الثعلبية فمنهم من إنصاع له ومنهم من أبى وقال لا نفترق ، وكان أحمد بن بدر قد صمم على ملازمة القوم فوافق

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٢ ، سهيل زكار .   (٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٢ .
(٣) منزل بطريق الكوفة بعد الشقوق من جهة مكة دون الثعلبية ـ معجم البلدان .
(٤) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٤ .

أبو الهيجاء على ما رأوه عن غير إقتناع ، وبات الناس على بعد أميال بقيت من البطان والأحمال على ظهور الجمال ، وذلك ليلة الأحد لأيام خلت من صفر ، فلما أضاء لهم الفجر ارتحلوا ، وكان أبو الهيجاء قد قدم بين يدي القوافل ستمائة راجل من الأولياء ، كما تقدم « نزار بن محمد الضبي » مع أصحابه وسار خلف الرجالة ، وأبو الهيجاء في الثعلبية ، والعجم في ميمنة القافلة ، وألزم الساقة والميسرة جماعة من الأولياء مع بعض الأمراء واحتاط على قدر طاقته ، فلما أضحى النهار أقبلت عليهم طلائع خيل القرامطة ، فكان أول من لقيها رجالة أبي الهيجاء فحملت القرامطة عليهم فأفنتهم جميعاً إلا نحو من عشرين رجلاً ، وحمل نزار بمن معه فدافع القرامطة فلحقته ضربة فهوى إلى الأرض واعتلق فرسه ومضى نحو المشرق ومعه بقية أصحابه ، وسار حتى وصل الكوفة .

أما أبو الهيجاء فحين سمع بما حدث وكان في آخر القافلة أسرع في خيله نحو أول القافلة ، فوجد الأمر قد أفلت من يده وقد اشتد ساعد القرامطة على حربه ، وانفرط عقد الحجيج فساروا يمنة ويسرى على غير هُدى ، فحمل على القرامطة فاستقبلوه وأخذوه بعد أن أصابته ضربة نزف منها وقتلوا حينذاك جماعة من أهله صبراً ، وجيئ بأبي الهيجاء إلى أبي طاهر الذي أقبل في ستمائة من رجاله وأحاطوا بالقافلة (١) ، واستولوا على جميع ما فيها ، وكان بعض الحجيج قد تمكن من الهرب والوصول إلى الكوفة في أسوأ حال بعد أن هلك بعضهم في الطريق عطشاً وسلب الأعراب البعض الآخر (٢) . وكان أبو طاهر حين رأى أبا الهيجاء قد تضاحك وقال : جئناك عبد الله ولم يكلفك قصدنا ، ولكن أبو الهيجاء تلطف له بفضل رجاحة عقله ودهائه وسعة حيلته ، وألان له القول حتى أنس به فاستأمنه على نفسه فأمنه وسعى إلى تخليص عدد كبير من الوجهاء والرؤساء ، فتكللت مساعيه بالنجاح ، ثم أمر أبو طاهر بتمييز الحاج وإخراجهم من القوافل وعزل الجمالين وأصحاب الحرف فأخذهم معه ، وأخلى سبيل الباقي فورد من ورد منهم الكوفة متورم الأقدام في صور الموتى ، ورحل أبو طاهر من الغد بعد أن أخذ من أبي الهيجاء نحواً من عشرين ألف دينار من الأموال التي

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٤ ، سهيل زكار . (٢) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٣٩ ، المقريزي .

لا تحصى كثرة [1] . وبعد أن أمضى أبو الهيجاء عند القرامطة شهوراً ، أخذ يحتال في الخلاص فمرة يعّرض به ومرة يفصح به إلى أن أنس به أبو طاهر ولبى رغبته فالتمس أبو الهيجاء إطلاق بعض كبار الأسرى مثل ابن كشمرد ، وفلفل الخادم ، وكلمه في أحمد بن بدر فأبى ولم يقبل إطلاقه حتى ضمن له أبو الهيجاء دفع مبلغ عشرين ألف دينار وأشياء أخرى ، فأطلقه ومعه عدد كثير من الأسرى ، فوصلوا إلى بغداد فتباشر الناس بذلك وابتهجوا به [2] .

إن استهانة أبي الهيجاء بأبي طاهر والتقليل من شأنه وإظهار الرغبة في تأديبه ووضع حد لطموحاته وأطماعه كانت السبب المباشر لهذه الحادثة المروعة ، ذلك أن أبا طاهر كان آنذاك فتاً يافعاً يملأ الزهو أقطار نفسه وتسري بين جنبيه عزيمة الشباب الطائش والطموح إلى ملك أكثر اتساعاً فلم يستطع تحمل استهانة أبي الهيجاء لأمره وتهديده له ، فأراد أن يلقنه درساً لا ينساه أبداً وبالتالي يفرض مهابته على السلطان وعلى كل من يفكر في الوقوف أمام طموحاته ، ولكي يشفى غليله من أبى الهيجاء فقد حرص على أن يُحمل إليه حياً وحين جيء به إليه ضحك منه وقال له ساخراً جملته السالفة الذكر (جئناك عبد الله ولم نكلفك قصدنا) [3] ، بل إن رغبة أبي طاهر في التشفي منه ظلت كامنة في نفسه لوقت طويل وحتى بعد أن أطلق سراحه ، فقد قال لبعض أصحابه في إحدى غاراته على العراق فيما بعد ، وكان يُمنى نفسه بفتح بغداد سأجعل أبا الهيجاء رئيساً على شرطتي بها [4] ، وعلى الرغم من أن غارة أبى طاهر على الحجيج كانت فيما نزعم عملاً موجهاً في الأساس ضد أبي الهيجاء إلا أن ما حققه من مكاسب مادية وصيت عريض في الأوساط القرمطية فتح شهيته لمزيد من الغارات غير آبه بما يدفعه الأبرياء من ثمن باهظ لهذه الأطماع ، فسار في سنة ٣١٢ هـ إلى الكوفة للإغارة على الحجيج مرة أخرى فاعترض قوافلهم هناك وكانت تسير بحماية قوة عسكرية من ألف رجل من بني شيبان برئاسة جعفر بن ورقاء الشيباني وستة آلاف من عسكر الدولة يقودهم ثمل صاحب البحر [5] . ولكنهم انهزموا

---

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص١٧٥ ، ابن الأثير .

(٢) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٥ ، سهيل زكار .

(٣) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٤ ، المقريزي .

(٤) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٢ .

(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير .

لمجرد رؤية أبي طاهر وتقهقروا راجعين ورُدت القافلة الأولى ومعها عسكر الخليفة بعد أن انحدروا من العقبة ، فتابعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة في يوم الأحد الرابع عشر من ذي القعدة ، وأقبل في عشية ذلك اليوم إلى الكوفة جنيّ الصفواني في جيش عظيم فعسكر على الخندق في يمنة الكوفة كما نزل جعفر بن ورقاء مع ألف من بني شيبان على القنطرة التي على الخندق مما يلي دور بني العباس ، كما نزل ثمل بجيش آخر على القنطرة التي تليها وأهل البلد والعامة منتشرون على الخندق ، ودارت بين هؤلاء والقرامطة بقيادة أبي طاهر مناوشات وخرج أبو محمد الحسن بن يحيى بن عمر العلوي (١) ، فطارد بعض فرسانهم وانكفى أبو طاهر راجعاً ، وبات الناس على تلك الحال ، وقد قوى الطمع في القرامطة ، فلما جاء الليل جاء كتاب من السلطان يسند فيه إلى أبي محمد بن ورقاء قيادة تلك الجيوش ، فمضى ليبلغ جنيّ الخادم هذا القرار فأشار عليه بعض الناس أن لا يفعل ذلك فأبى وأطلع جنياً على الأمر ، فأنف هذا أن يكون تابعاً ، وأسرّ ذلك في نفسه ، وباكرهم القرمطي بالقتال فدخلت الرجالة وراء الفرسان بجيش مدرب جيد التنظيم والتسليح فلما وصل إلى عسكر العباسيين مال على جيش بن ورقاء بميسرة الناس فانهزم بنو شيبان على الفور وتقهقروا راجعين (٢) ، فعبروا القنطرة التي على الخندق إلى جنوب الكوفة فتبعهم القرامطة فساروا من وراء جنيّ وثمل ووضعوا السيف في الناس ، وجني جالس على كرسي حديد يبين أنه لا يقاتل لأنه يريد قتاله بعد الناس فأسروه وقاتلهم ثمل وقاومهم وهو منهزم على محاملة ومدافعة حتى تمكن من الخلاص بسلام كما سلم جعفر بن ورقاء وكثير من أصحابه وتعرض للقتل عدد كبير من العامة وغيرهم في الطرقات (٣) .

ووصل أبو طاهر إلى مدينة الكوفة وكف عن القتل واستولى على ما في منازلها من الأموال وأقام بظاهر المدينة ستة أيام يدخلها نهاراً فيقيم بالجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت بعسكره بعد أن حمل من تلك المدينة كل ما قدر على حمله ، أقفل عائداً إلى بلده في عشرين من ذي القعدة وأما المنهزمون فقد دخلوا بغداد ولم يحجوا في هذه السنة

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٦ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩٦ .

كما دب الذعر والخوف في نفوس الناس بدار السلام ، وانتقلوا إلى الجانب الشرقي ، ورحل مؤنس المظفر من بغداد إلى الكوفة فدخلها بعد رحيل القرامطة عنها وظل بها ثلاثة أيام ثم غادرها إلى بغداد [١] . إن العجب ليملأ أقطار نفسك حين ترى انتصار القرامطة في هذه المعركة مع قلتهم على عسكر الخلافة العباسية مع كثرتها ووجود هذه النخبة من القادة كجعفر بن ورقاء الشيباني وثمل وجنيّ الصفواني ، والحسن بن يحيى العلوي ، ولكن سرعان ما يزول عجبك حين تتأمل ما تجلبه الكبرياء الكاذبة من النتائج الوخيمة على أصحابها وعلى الآخرين ، فقد كان من شأن هذا الجيش أن يحقق نصراً مؤزراً على خصومه لو كان جنيّ الصفواني قادراً على إطفاء جذوة الغرور في نفسه وحاول أن يضع المصلحة العليا فوق جميع الاعتبارات فانصاع لأمر الخليفة وقبل بالعمل تحت قيادة أبي محمد بن ورقاء الشيباني ، ولكنه أنف من ذلك فآثر أن يتخلى عن واجبه القتالي ويقف من الجيش موقف المتفرج غير آبه بما تسفر عنه هذه المعركة من النتائج فكان ثمن ذلك وقوعه أسيراً في قبضة القرامطة وإلحاق العار والهزيمة بجيش يشكل هو أحد أركانه ، وتقديم المدينة التي جاء كي يدافع عنها والناس التي أتى لحمايتهم لأعدائه على طبق من ذهب ، كما حقق لأبي طاهر في هذه الغزاة نصراً أكسبه شهرة زائعة الصيت في أوساط شيعة الكوفة والسواد ففتنوا به وبالغوا في تعظيمه والتفاني فيه وقالوا أبو طاهر بن أبي سعيد ولي الله هو حجة الله ، والمهدي بالبحرين يخرج عن قرب ، وأبو طاهر خليفته ، وهو الذي يأخذ الأرض له ، ويكون ملكه بالبحرين [٢] ، فبادر من أهل الكوفة وسوادها خلق كثير وقالوا نهاجر إلى بلد المهدي قبل ظهوره [٣] .

أما من ظل منهم مقيماً ببغداد والكوفة وسوادها ، فقد صار عيناً ساهرة تراقب حركات المقتدر وحكومته وتنقل لأبي طاهر أخبارهم أولا بأول ، فاشتدت بذلك شوكة القرامطة وتنامت قوتهم وعظم سلطانهم بما اجتمع لهم من الأموال الكثيرة وبما أصبح لزعيمهم من المهابة والرهبة في قلوب الناس .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

مسير أبي طاهر إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج :

لقد وجدت فئات المعارضة السياسية لبني العباس في بغداد في أبي طاهر وما حققه من مكاسب عسكرية ضالتها المنشودة وطمعت في تحقيق جميع أمانيها وآمالها على يديه ، فزينت له غزو بغداد نفسها ودأبت على تزويده بجميع المعلومات المفيدة لهذا الغرض ، وتعرفه بثغرات الحكم ومواطن الضعف فيه وأحوال العساكر ومدى قوتها وعددها وأماكن تواجدها كما أوحت إليه بأن النجوم تدل على أنه يغلب السلطان وأنه يدخل بغداد ويستولى على المُلك (١) ، فاستجاب أبو طاهر لذلك الإغراء وتأهب للمسير إلى بغداد وزاد من إصراره على ذلك أن الخليفة المقتدر بالله كان قد بعث إليه برسالة تضمنت بعض عبارات التهديد والوعيد ، والتنديد بأعمال القرامطة المشينة ، وتصفهم بأسمج النعوت والصفات ، وقد أجاب أبو طاهر عن هذه الرسالة برسالة جاء فيها قوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، من أبي الحسن الجنابي الداعي إلى تقوى الله القائم بأمر الله الآخذ بآثار رسول الله ﷺ إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس أما بعد :

عرّفك الله مراشد الأمور ، وجنبك التمسك بحبل الغرور ـ فإنه وصل كتابك بوعيدك وتهديدك ، وذكر ما وضعته من نظم كلامك ونممت به من فخامة إعظامك من التعلق بالأباطيل ، والاصغاء إلى فحش الأقاويل ، من الذين يصدون عن السبيل فبشرهم بعذاب أليم ، على حين زوال دولتك ، ونفاذ منتهى طلبتك ، وتمكن أولياء الله من رقبتك وهجومهم على معاقل أوطانك صغراً وسبيهم حرمك قسراً ، وقتل جموعك صبراً (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) وجند الله هم البالغون ، هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، كالأسد الغضنفر ، في سرابيل الظفر ، متقلدًا سيف الغضب مستغنياً عن نصر العرب ، لا يأخذه في الله لومة لائم (ذلك فضل الله يؤتيه

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٢ ، سهيل زكار .

من يشاء والله واسع عليم) ، وقد اكتنفه العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها ، وانقشعت طخياء الظلمة ودجنة الضلالة وغاضت بحار الجهالة (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) ، تالله غرتك نفسك ، وأطمعتك فيما لست نائله ، وسولت لك ما لست واصله ، فكتبت لي بما أجمعت عليه أذهان كتبتك وذكرتني بالعيوب الشنيعة وقذفتني بالمثالب السمجة (تالله لتسألن عما كنتم تعملون) فأما ما ذكرت من قتل الحجيج وإخراب الأمصار ، وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس ، وإدعاء طوائف منهم أنهم أبرار ، ومعاينتي منهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، خبرني أيها المحتج لهم والمناظر عنهم ، في أي آية من كتاب الله أو أي خبر عن رسول الله ﷺ إباحة شرب الخمور ، وضرب الطنبور وعزف القيان ، ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام ، واحتووها من وجوه الحرام . وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأي مسجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ ، بأسانيد عن مشايخ فجرة ، بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة .

وأما تخويفك لي بالله وأمرك بمراقبته ، فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك ، أترى أني أجهل بالله منك وصرفك أموال المسلمين للصفاعنة والضراطين ، ومنعها عن مستحقيها ؟ ، ويُدعى على المنابر للصبيان (الله أذن لكم أم على الله تفترون) وأما ما ذكرت من أني تسميت بسمة عدوان ، فليس بأعظم من تسميتك (بالمقتدر بالله) أمير المؤمنين ، أي جيش صدمك فاقتدرت عليه ، أم أي عدو ساقك فابتدرت إليه ، لأنت أمير الفاسقين . أولى بك من أمير المؤمنين ، وإنك لتقلد بعض خدمك شيئاً من أمرك فيكاتبه الشريف والرئيس بالسيد والمولى ، فأي الأمرين أقرب للتقوى ، أما علمت أنه من إنقاد له نفر من عشيرته وعصابة من بني عمه وأسرته فقد سادهم وعلا فيهم وبعد فمالك وللوعيد والإبراق والتهديد ؟ أعزم على ما أنت عليه عازم ، وأقدم على ما أنت عليه قادم والله من ورائي نصير . وهو نعم المولى ونعم النصير والحمد لله وصلى الله على خير بريته وآله وعترته [1] .

---

(١) تحفة المستفيد ، ص ٨٦ ، محمد عبد القادر ، بتعليق الشيخ حمد الجاسر .

بعد أن أرسل أبو طاهر هذه الرسالة إلى المقتدر تأهب للمسير إلى العراق ، فتجمل وحمل أهله وعياله ، وسار قاصداً بغداد .

وقال : أنا أدخلها وأدخل دار الخلافة على هذا الحمار ، وأشار إلى حمار أسود كان في كراعه ، وسار ونزل ظهراً بالكوفة وذلك سنة ٣١٥ هـ [١] ، وكان المقتدر بالله قد قلّد يوسف بن أبي الساج مهمة قتال القرامطة ، ولكنه استصعب المسير إلي البحرين لوعورة الطريق إليها وكثرة ما كان معه من العساكر والأثقال [٢] ، وكان ابن أبي الساج قد توجه على رأس جيش كبير من واسط قاصدًا الكوفة ، فسبقه أبو طاهر إليها ودخلها في يوم الخميس في الثامن من شوال سنة ٣١٥ هـ ، وأخذ ما يحتاج إليه ونزل عسكره خارج الكوفة بين الحيرة والخورنق ، وأقفلت جيوش ابن أبي الساج تسيل من كل ناحية على غير تعبئة ، وأقبل هو في جيشه ورجاله حتى نزل في غربي الفرات وعقد عليه جسراً محازياً لأبي طاهر ، وعبر إليه وذلك في يوم الجمعة ، فأرسل إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة المقتدر أو الحرب في يوم الأحد ، فقال أبو طاهر لا طاعة إلا لله والحرب غداً ، فلما كان يوم السبت التاسع من شوال سنة ٣١٥ هـ ، إلتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً عامة النهار ، وكثير من عسكر بن أبي الساج لم يستكمل نزوله بعد ، ولم يكن بوسع قائده السيطرة عليه وتصريف شئونه لكثرته وضيق مكان المعركة فتفرق من أفراد ذلك الجيش عدد كبير وانتشروا في أماكن كثيرة [٣] ، فقدم ابن أبي الساج بين يديه جماعة مدججة بالتروس والرماح بقيادة رجل يُدعى ابن الزرنجي وأقبل أبو طاهر نحوه بأربعة آلاف مقاتل ، وتصدت له الرجالة بالمقاومة الضارية ، فاقتحمت خيول القرامطة الجموع ، فانهزمت الناس ، وكثُر فيها القتل ، ونفذ فوج من عسكر القرامطة لابن أبي الساج وهو في كوكبة من فرسانه ، فأسروه وأفنوا من كان معه من الرجال بعد قتال مرير ، وانهزم أتباع ابن أبي الساج وسقط أكثرهم صريعاً حتى غطت الجثث من أرض المعركة عشرة أكيال أو أكثر ، ووضعت الحرب أوزارها عند غروب ذلك اليوم ، وأمر أبو طاهر بنقل ابن أبي الساج ومن وقع

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٢ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٧ .
(٣) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤١ ، المقريزي .

في الأسر من كبار أصحابه لمخيم خاص كما أمر له بطبيب يعالج جراحاته ، واستولى القرامطة على عسكر الخلافة وحملوا منه كل ما استطاعوا حمله من الأموال والأمتعة والعتاد ، وتركوا الباقي لأهل السواد ينهبون القتلى نحو من أربعين يوماً ، ووصل المنهزمون إلى بغداد في أسوأ حال فخاف الخاص والعام في بغداد من القرامطة [١] .

وإذا كان الغرور والأنفة الرعناء وفقدان الشعور بالمسئولية لدى بعض القادة شكلت العامل الرئيسي في إنكسار الجيش العباسي في معركة الكوفة سنة ٣١٢ هـ ، فإن لإنكسار الجيش في معركة الكوفة هذه سنة ٣١٥ هـ ، أسباب متعددة منها :ـ

غياب التنظيم الدقيق لسير المعركة ، إذ لم يحسن ابن أبي الساج اختيار الموقع المناسب لها ، حيث أقام في موقع بالغ الضيق قيد كثيراً من حركة الجيش وحدّ من قدرته على المناورة والمجادلة والقتال ، فقد قال شاهد عيان في تلك الوقعة : « كنت والله أريد أن أضرب دابتي بالسوط فلا يمكنني ذلك لضيق الموقع » [٢] ، كما أن ابن أبي الساج فقد السيطرة على عساكره ، فلم يحسن تنظيمهم وتعبئتهم ، فانبث كثير منهم في القرى والنواحي ينهبون أهلها ويأذونهم ويظهرون من الفجور أموراً صار الناس معها يتمنون لهم الهلاك ، كما صار زمام المبادرة بيد أوباش الجيش وسفائه ، فصاروا قبل بدء المعركة يقذفون القرامطة بالحجارة وسط موجة صاخبة من الشتائم والصراخ ، مما يؤكد الفوضى وعدم الإنضباط في ذلك الجيش حتى أن القرامطة عدّوا ذلك مؤشراً قوياً على حسم المعركة لصالحهم وهذا ما عبّر عنه أحدهم حين سأله أبو طاهر عن تلك الفوضى بأن قال : فشل ، فقال أبو طاهر : أجل ، لم يزد على ذلك كلمة واحدة .

هذا إلى جانب تخلي ابن أبي الساج عن أهم صفات القائد الحكيم المجرّب كأخذ الحيطة والحذر ، وتقدير المسئولية وعدم الاستهانة بأمر العدو ، والتقليل من شأنه تحت أي ظرف من الظروف .

لذا رأيناه يظهر الاحتقار والاستهانة بالقرامطة في قلة عددهم حتى همّ أن يكتب للخليفة بالفتح قبل بدء اللقاء [٣] ، هذه الأسباب إلى جانب ما كان يتمتع به الجيش

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٨ ، سهيل زكار .   (٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

(٣) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير .

القرمطي من دقة التنظيم وحسن التدريب ، وجودة التسليح وما يتصف به من روح قتالية عالية حسمت هذه المعركة لصالحهم في وقت قياسي ، وبهذه الدرجة المروعة ، التي انتزعت من يد الخليفة العباسي وقادته زمام المبادرة ووضعتهم في موضع الدفاع عن النفس ، والاكتفاء بحماية أسوار مدينة بغداد التي أصبحت على مدى مرمى سهام أبي طاهر ، وقد جاءت الرسائل لأبي طاهر تخبره بأنه الخليفة لم يعد عنده من القواد من يعتمد عليه سوى مؤنس الخصيّ ، وهو الذي يلقاك وهو أضعف من ابن أبي الساج بألف طبقة وأنت تهزمه وتدخل بغداد (١) ، حينئذٍ عقد أبو طاهر العزم على غزو مدينة بغداد ودخول دار الخلافة فزحف بقواته واحتل سواد الأنبار وترك به بعض جنوده ، ثم وافى بأكثر جيشه الأنبار ، واحتال حتى عبر الفرات ، وسار من الجانب الغربي ، واتجه بين دجلة والفرات قاصداً دار السلام ، فاستبد الرعب والهلع بقلوب الناس ، وكان مؤنس الخادم » قد تهيأ للمسير من بغداد إلى الكوفة فجاءه الخبر أن القرامطة اتجهوا إلى عين التمر ، فأرسل من بغداد المقاتلين في خمسمائة سمارية (٢) ، كي تمنع القرامطة من عبور الفرات (٣) ، كما أرسل قوة عسكرية لحماية الأنبار ، ولما جاء القرامطة لاحتلالها قطع أهلها الجسور فنزلت القرامطة غرب الفرات وأرسل أبو طاهر إلى الحديثة من أحضر له سفن من هناك عبر بها ثلاثمائة من جنوده إلى الأنبار ، والتحموا مع جيش الخليفة في قتال أسفر عن قتل بعض عساكر الخليفة وهزيمة الآخرين ، وسقوط المدينة في أيدي القرامطة (٤) ، ولما وردت الأخبار إلى بغداد باستيلاء القرامطة على الأنبار ، خرج نصر الحاجب في عسكر جرار ولحق بمؤنس المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألفاً سوى الغلمان ومن يريد النهب (٥) ، وكان في العسكر أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأصحابهم فلما أشرف القرامطة على عسكر الخليفة هرب منه خلق كثير إلى بغداد من غير قتال ، قال ابن الأثير : كان عسكر القرامطة ألف وخمسمائة رجل منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل ، قال وقيل كانوا ألفين وسبعمائة فارس » .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٢ ، سهيل زكار .
(٢) سفن نهرية صغيرة .
(٣) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٠ ، المقريزي .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤١ .
(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٨٧ ، ابن الأثير .

وسار مؤنس المظفر حتى نازل القرامطة على قنطرة نهر زبارا على بعد ١٥ كيلا من بغداد ، وشحن الموضع بالجيش ، وأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة خوفاً من عبور أبي طاهر ، وما قد ينجم عن ذلك من هزيمة محتملة لجيشهم في أول جولة من القتال لإمتلاء قلوبهم بالرعب والخوف من القرامطة ، وكذلك خوفاً من فقدان السيطرة على أهل بغداد حين تجتاحهم الفوضى والإضطراب بسبب ذلك (١) ، وكان أبو طاهر حين عبر الفرات وعسكر على مقربة من مؤنس انقلبت بغداد وعبر الكثير من أهل الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي إلا من كان من الشيعة (٢) ، وانحدر كثير منهم وأحضروا عيالهم إلى البصرة ، وخرج إلى أبي طاهر من أهل بغداد جماعات من الشيعة وغيرهم من الكتاب سراً ، وبشروه بضعف السلطان وأنهم قد قلبوا له بغداد بالأراجيف (٣) ، وقالوا له بغداد بلد عظيم وإن لم ترهب أهله بالقتل لم تملكهم ، فوعدهم بما أرضاهم (٤) ، فسار أبو إسحق إبراهيم بن ورقاء الشيباني ، وكان رجلاً صالحاً لا يعين السلطان إلا فيما يحل ويحسن ، فسار إلى الفرات بالسماريات ، ومنع القرامطة من العبور ومن ورود الماء (٥) ، فضاق صدر أبي طاهر لتأخرهم عن الخروج للقتال ، فأرسل إلى مؤنس يقول له : ما تأخرك ؟ وإن كنت رجلاً فأبرز . فأنفذ إليه مؤنس رسولاً يقول له : ويلك تظن أنني كمن لقيك أبرز لك رجالي والله لا يسرني أن أظفر بك بقتل رجل مسلم من أصحابي ، ولكنني أطاولك ، وأمنعك مأكولا ومشروباً ، حتى آخذك أخذاً بيدي إن شاء الله (٦) ، ثم أرسل مؤنس المظفر ستة آلاف مقاتل بقيادة حاجبه « يلبق » لحرب القرامطة الذين بقصر ابن هبيرة ليوقعوا بهم ، ويخلصوا يوسف ابن أبي الساج .

فعلم أبو طاهر بذلك فاضطرب واجتهد في عبور الفرات فعبره على طوق من الحطب وقيل بقارب استأجره بألف دينار ، ومعه نفر يسير من أصحابه فيهم بعض إخوته فاجتمع بعسكره فقويت قلوبهم بوجوده بينهم ، وحين قدم يلبق لقتال القرامطة ، تصدى له أبو طاهر في عدد يسير من أتباعه فألحق به هزيمة منكرة فتقهقر راجعاً لا يلوي على شيء .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٨ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .
(٦) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤١ ، المقريزي .

ونظر أبو طاهر إلى ابن أبي الساج وقد خرج من الخيمة ينظر ويرجو الخلاص ، وقد ناداه أصحابه أبشر بالفرج ، فلما تمت الهزيمة أحضره أبو طاهر وقتله وقتل من معه من الأسرى (١) ، ومن ثم اتجه القرامطة لمهاجمة مدينة « هيت » وكان المقتدر قد سيرّ إليها سعيد بن حمدان وهارون بن غريب لحراستها فاشتبكوا مع القرامطة في قتال شديد أسفر عن سقوط بعض القتلى من القرامطة فعدلوا عن مهاجمة هيت ، كما تراجع مؤنس إلى مدينة السلام ، أما أبو طاهر فقد سار إلى الدالية عن طريق الفرات ، فاكتسحها وقتل عدداً من أهلها ثم قصد الرحبة فاستولى عليها بعد أن قتل من أهلها عدداً كبيراً لمحاولتهم مقاومته (٢) ، كان ذلك في ثامن محرم سنة ٣١٦ هـ ، فراسله أهل « قرقيسيا » يطلبون الأمان فأمنهم وحظر عليهم الخروج من منازلهم طيلة النهار ، فاستجابوا لذلك فهابه الناس ، وخاف منه الأعراب خوفاً شديداً ، وهربوا من بين يديه ، فألزمهم برسم سنوي قدره دينار عن كل رأس يحملونها إلى هجر (٣) ، ثم صعد من الرحبة إلى الرقة ودخل أصحابه إلى نصيبين وقتلوا من أهلها ثلاثين رجلاً كما قتل منهم جماعة ، وبعد ثلاثة أيام انصرفوا في آخر ربيع الأول ، وساروا إلى سنجار ونهبوا وطلب أهلها الأمان فأمنهم أبو طاهر ثم عاد إلى الرحبة وفي ذات الوقت وصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها ، ثم احتال في إرسال زوارق مملوءة بفاكهة مسمومة ، فكانت القرامطة يأسرونها فيأكلون من تلك الفاكهة حتى مات كثير منهم واعتلت صحة بعضهم ولحقهم الضعف والإرهاق (٤) فأقفلوا راجعين ، واتجهوا إلى مدينة هيت فقاومهم أهلها وتمكنوا من قتل أحد رؤسائهم ثم انصرفوا عن هيت منهكي القوى ، وسار أبو طاهر إلى قصر ابن هبيرة وقتل هناك بعض الرجال ، واستولى على ما به من أموال ثم دخل الكوفة وهو في غاية الضعف والإرهاق وكان دخوله إليها يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ٣١٦ هـ ، فأقام بها إلى مستهل ذي الحجة من السنة ولم يقم فيها آنذاك بأي عمل عسكري (٥) ، وساس أهل الكوفة أمرهم مع القرامطة ورحل أبو طاهر عنها في ذي الحجة ٣١٦ هـ .

---

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤١ ، المقريزي .

(٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٨٨ ، ابن الأثير .

(٣) المرجع السابق ، جـ ٦ ، ص ١٨٨ .

(٤) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤١ ، المقريزي .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

ومن الملاحظ أن القادة العباسيين بعد الهزائم التي لحقت بجيوشهم في معارك الكوفة قد اعتمدت في مواجهة القرامطة استراتجية عسكرية جديدة تمثلت في الإبقاء على مدينة بغداد في حوزتهم والحيلولة دون سقوطها في أيدي القرامطة ، فحشدوا جميع جهودهم وطاقاتهم وركزوها في الدفاع عنها ومنع القرامطة من احتلالها ، ذلك لأن بغداد كانت تمثل آنذاك رمزاً للخلافة الإسلامية وإن سقوطها في قبضة القرامطة كان يعني غروب شمس تلك الخلافة ، وقيام دولة قرمطية كبرى تحتوي جميع العالم الإسلامي وتتم في المشرق ما بدأ ببنائه في المغرب وفي مصر شركاء هؤلاء في العقيدة والمذهب من العبيدين . على أن هذه الاستراتجية التي إنتهجها قادة العباسيين تعكس اعترافهم بالعجز التام عن كبح جماح هذه الحفنة ووضع حد لنشاطهم العسكري في الأراضي العراقية فضلاً عن غيرها من الأراضي والأقاليم ، فما هي أسباب ذلك يا ترى ؟ يمكن القول إلى جانب ما سبقت الإشارة إليه من مواطن القصور والتقصير في بعض قادة الخلافة العباسية ، أن الجيش القرمطي كان يتمتع بعدة مزايا أسهمت كثيراً في تمكينه من التفوق والاقتدار في المعارك التي خاضها منها :

١ ـ إصطفاء عناصره من أقوى الرجال وأخلصهم لعقيدتهم وأكثرهم استعداداً للتضحية والفداء ، وحسبك أن ترى أحدهم يقوم بمهمة استطلاعية فتأخذه السهام من كل جانب فيخوض غمارها غير آبه بها ويعود بعد أن أنهى مهمته وقد صار كالقنفذ لكثرة ما نشب في جسمه من تلك السهام .

٢ ـ حُسن التنظيم والتدريب الدقيق الذي يكسب أفراد الجيش مهارات قتالية عالية تتيح لهم حرية الحركة والقدرة على المناورة والمجادلة في سهولة ويسر ، يقول الشريف أبو الحسين عن جيش أبي طاهر في إحدى الوقعات : « فدخلت الرجالة وراء الفرسان بجيش خرس عن الكلام ، صمت وحركات خفيفة ، والبارقة فيهم ظاهرة في ضوء الشمس ، وهم يزفون عسكرهم زفاً حتى إذا وصلوا إلى عسكر السلطان ، مالوا على جيش ابن ورقاء وهو في ميسرة الناس ، فما تمهل حتى انهزموا راجعين » (١) ، إن هذا الوصف يصور بوضوح المستوى الرفيع لمران هذا الجيش وحُسن تدريبه .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٩٦ ، سهيل زكار .

٣ ـ مهارة التكتيك إبان العمليات العسكرية من ذلك أن أبا طاهر كان يبدأ المعركة بجزء من جيشه ويُبقي الجزء الآخر معه ينتظر حتى إذا شعر بالضعف يدب في أوصال المقاتلين من الطرفين وبدأ العدو يستنفذ طاقته القتالية هجم بمن معه من الجيش المستريح بكل قوة وعنف حتى تتم له الغلبة على العدو .

٤ ـ حُسن التسليح والعناية بجودة المعدات العسكرية ، فقد كان اهتمام القرامطة بهذا الجانب فائقاً ، لحد الابتكار والتطوير في صناعة المعدات الحربية وصيانتها ، ومن ذلك استخدامهم الدبابات العاملة بواسطة البقر والجمال ، والسلالم العريضة المتحركة التي يمكن فكها وتجميعها إلى قطع صغيرة ليسهل حملها ، وتركيبها ومدّها في يسر وسهولة عند الحاجة لاستعمالها ، أما المعدات الحربية فكانت تتخذ من أكثر الحديد جودة ومضاء وتصان عن الصدأ بوضعها في غرائر محشوة بالرمال الجافة ، هذا إلى جانب ما أصبح يتمتع به الجيش القرمطي من روح معنوية عالية بسبب انتصاراته المتوالية ، وما وقع في قلوب خصومه من هيبة له ورهبة منه لدرجة أن مجرد رؤيته أو المرور على ذكره كافية لهروب نصفهم من مواجهته ، هذه الأسباب مجتمعة فيما أرى هي التي جعلت رجال الدولة العباسية يقنعون من مُلك الخلافة بما بين أسوار بغداد تاركين سائر أراضيها مسرحاً للقرامطة يسرحون فيه ويمرحون كما يحلو لهم ، وهي التي جعلت الخليفة المقتدر بالله نفسه يقول : بعد هزيمة جيشه في إحدى المعارك لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن قتال ألفين وثمانمائة (١) .

مسير أبي طاهر إلى مكة وقتل الحجيج بها واقتلاع الحجر الأسود :

في سنة ٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م ـ رأس الحجيج القادمين من بغداد منصور الديلمي ، فدخلوا مكة آمنين ، وكان أبو طاهر قد توجه إليها على رأس ألفين وخمسمائة من القرامطة فوصلها في يوم التروية وهو يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة (٢) ، فأوجس من بمكة من الحجيج وغيرهم خيفة من قدومه ، ومنعوه من دخولها ، ونقلوا صناديق الكعبة وأخفوها في ناحية دار ابن داود وأخذوا الأهبة لحربه ، فلما لم يطقهم

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير .

(٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٠٤ ، ابن الأثير .

أظهر أنه جاء حاجاً ، ومتقرباً إلى الله ، وإنه لا يحل لهم أن يمنعوه من بيت الله وهو أخوهم في الإسلام ، وصار مع أتباعه ينادون بالتلبية وهم محرمون (١) ، وانتدب القرشيون من أهل مكة القاضي أبا الإمام للتفاوض مع القرامطة ، فحلف له أبو طاهر بالأيمان الغليظة أنه قد آمنهم على دمائهم وأموالهم وحرمهم ، وأنه لا يؤذي أحداً منهم ، وأنه ما جاء إلا ليحج إلا أصحاب الجند والسلطان فإنه لا يؤمنهم ، وقال : « أنا لا أغدر ولا أغر من نفسي ، ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم ، لكن لا أؤمنهم ، فإنهم يشربون الخمر ، ويلبسون الحرير ، ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية ، ويظلم اليتيم والأرملة ، ويشرب الخمر ، ويسمع القيان » (٢) ، وأعطاهم ختمه وصلته ليزدادوا بذلك ثقة واطمئناناً ، فقبل الناس منه هذه الوعود ، وأفسحوا له حتى دخل ، ولم يكد السكون يخيم على ربوع مكة حتى إندلع قتال بين القرامطة والحامية العسكرية المعنية بحماية الحجيج على إثر مصرع أحد عناصرهم في إثر شجار بينه وبين آخر من القرامطة ، فهب الحجيج وأهل مكة لمساعدة العسكر في قتال القرامطة وما كانت إلا ساعة حتى انهزم المكيون وهرب أميرهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وهرب الباقون على وجوههم ، وضرب أبو طاهر قبابه في الأبطح ودخلت طائفة من أصحابه مكة ، فقصدوا المسجد الحرام (٣) فعم الذعر من كان به من المسلمين ، وتعلق بعضهم في أستار الكعبة ، فأفشى القرامطة فيهم القتل وهم يقولون : (ومن دخله كان آمناً) (٤) ، أفآمنون أنتم يا حميّر ؟. أم ترون كذب صاحبكم ؟ وأمروا من يصعد لقلع الميزاب فصعد أحدهم وهو يقول مستهزءاً : هو في السماء وبيته في الأرض ، وأبو حفص عمر بن زرقان صهر أبي سعيد واقف إزاء البيت والسيف يأخذ الناس ، وهو على فرسه يضحك ويتلو (إيلاف قريش) حتى وصل إلى قوله تعالى : (وآمنهم من خوف) ، قال : ما آمنهم من خوفنا ظهر الباطن يا أهل مكة ، حجوا إلى البحرين وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها (٥) ، وفتح القرامطة الكعبة واقتلعوا جميع ما فيها من الذهب والفضة والمحاريب المذهبة التي

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٤ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ، سهيل زكار .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٤ ، سهيل زكار .
(٤) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٤ ، سهيل زكار .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

كانت أحدثت فيها في أيام المقتـــدر ، والمنطقة الفضية المنقوشة التي كانت ضُربت عليها ، واقتلعوا بابي الكعبة ، فأخذوا ما عليها من صفائح الذهب ، ثم عادوا إلى الحجر الأسود فاقتلعوه بالمناقير (١) .

ونزعوا كسوة الكعبة وتقاسموها فيما بينهم ، ثم أمر أبو طاهر أصحابه بالنهب فجمع شيئاً عظيماً من الذهب والفضة ، والجوهر والطيب ، وحمل مقدار مائة ألف جمل من هذه البضائع وأحرق الباقي وسبى من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس (٢) ، وارتحلوا من مكة بعد أن كان مكثهم بها ثمانية أيام ، وخرج لهم أمير مكة محمد بن إسماعيل بن مخلب في عدد من أشرافها ، وناشدوه إرجاع أموالهم فأبى فقاتلوه فقتلهم جميعاً ، وكان عند خروجه من مكة قد لحقه تعب شديد ، كما حاصرته قبائل هذيل ، وضل الطريق وأشرف على الهلكة ولكن أحد موالي هذيل المدعو زياد عدل به إلى طريق أفضى به إلى بلده وذلك في محرم سنة ٣١٨ هـ .

وبعد رحيل القرامطة من مكة تراجع من ظل على قيد الحياة من الناس إليها فنظروا منظراً قبيحاً وأمراً فظيعاً ودخلوا المسجد الحرام (٣) ، فوجدوا القتلى فيه مصروعين في موضع الطواف والحِجر ، وسائر أنحاء المسجد وقد انتفخوا وجيفوا ، فاجتمع رأي من حضر من الناس على أن يحفروا لهم خندقاً عميقاً بالمسجد ويجروا القتلى فيطرحوهم فيه ويضعوا التراب عليهم رضي الله عنهم ، وأخرجوا من سقط في بئر زمزم ونزحوها حتى صفا ماؤها وغسلوا جوانبها وغسلوا الدماء من جدار الكعبة والحِجر وغير ذلك ، وبقي موضع الحجر الأسود مجوفاً لا شيء فيه يتمسح الناس بداخله لا غير (٤) ، وقد ظل الحجر الأسود بعد نقله إلى هجر بحوزة القرامطة حتى قام برده سُنبر بن حسن بن سُنبر في سنة ٣٣٩ هـ ــ ٩٥٠ م (٥) ، في عهد أحمد بن سعيد الجنابي ، وقد قام بوضعه في مكانه بالمسجد سُنبر السالف الذكر وهو يقول : رددناه بأمر من أخذناه بمشيئته ، وذلك في يوم الثلاثاء يوم النحر من ٣٣٩ هـ ــ ٩٥٠ م ، وبلغت مدة مكثه عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام .

---

(١) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٠ ، المسعودي .
(٢) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٤ ، سهيل زكار .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٣٤٤ ، سهيل زكار .
(٤) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٠ .
(٥) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، المقريزي ــ لمزيد من المعلومات عن الحجر الأسود أنظر كتابنا تاريخ هجر جـ ٢ ، ص ١١٧ ، و١١٨ .

وكان القرامطة حين نقلوا الحجر معهم قد وضعوه في بناية تُدعى الجُعبة بقرية بين الجش وسيهات جنوب مدينة القطيف [1] ، لقد ظلت هذه الحادثة على مر الأيام رمزاً لأسوأ ما أقدم عليه الإنسان من الممارسات المشينة والجرائم الشنعاء ، فقد كان معظم ضحاياها أناس أبرياء يغمر قلوبهم الإيمان وتحدوهم إلى هذه الأماكن المقدسة الرغبة في إلتماس المغفرة من الذنوب والآثام ، متجشمين في سبيل ذلك مختلف المصاعب والأهوال ، تاركين وراءهم حياة الدعة والأمن والأنس بصحبة الأهل والأحبة ، وسائر مباهج الدنيا ومسراتها .

كما سالت تلك الدماء الطاهرة في أكثر الأيام حرمة عند الله وأعظم الأماكن قداسة لديه ، ولكن كيف حدثت هذه المأساة مع زعم أبي طاهر أن مجيئه كان بمحض الحج والعمرة ، وتعهده بعدم الإعتداء على الحجيج أو النيل منهم ، يرى بعض الرواة أن العدوان على الحجيج كان أمر مبيتاً بسابق إصرار وترصد ، وأن مزاعم أبي طاهر تلك كانت غطاء أخفى به نواياه الحقيقية للوصول إلى مراده بسهولة ويسر ، بينما ربما قيل أن ما حدث جاء نتيجة ذلك الخلاف العرضي الذي نشب بين أحد القرامطة ورجل من قوى الأمن يُدعى نطيف غلام ابن الحاج [2] ، وقد تطور ذلك الخلاف بعد مصرع رجل الأمن إلى مجابهة مسلحة ، أو أن عسكر السلطان افتعلوا ذلك الخلاف بقصد إشراك الحجاج معهم في التصدي للقرامطة كي لا يتحملون تبعة تلك المجابهة بمفردهم لعلمهم أن القرامطة مصممون على حربهم كما عبّر عن ذلك أبو طاهر نفسه ، وقد اتخذوا من مصرع ذلك الغلام وسيلة لإلهاب مشاعر رجال الأمن وبعض الحجيج ، فالتحموا مع القرامطة في قتال مرير انتهى بتلك المأساة المروعة .

ومهما تكن الجهة المستهدفة من هذا العدوان أصلاً فإن الذي لا ريب فيه أن القرامطة حضرت إلى مكة وأقدمت على ما أقدمت عليه بنوايا عدوانية مبيتة ، ولعلها أرادت بذلك أن تستغل موسم الحج باعتباره أهم الميادين الإعلامية وأكثرها إتساعاً لاستعراض قوتها باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على التحكم في مصائر الناس ومقدراتهم لتحقيق المزيد من الهيبة لهم ، ونشر الخوف منهم في جميع الأرجاء ، وكذلك بغية إهدار كرامة الخلافة العباسية وفضح ضعفها وعجزها عن حماية المقدسات ، ناهيك عن سائر الأراضي والبلدان .

---

(١) البحرين ، ص ١٠٧ ، و١٠٨ محمود شاكر .

(٢) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٠ ، المسعودي .

وذلك على أعلى المستويات وفي جميع الأوساط ، وقد حققوا في مجال إظهار ضعف العباسيين مقداراً كبيراً من النجاح حيث أصبحت هذه الدولة موضع شماتة وسخرية الدول الأخرى فقد ورد على الخليفة العباسي من ملك الروم كتاب جاء فيه « إن أبا طاهر القرمطي قد أبادكم وأفناكم وشغلكم عن غزونا وأراحنا منكم ، وقصد بيت عبادتكم فقتل زواره ومن يعظمه » (١) ، هذا بالإضافة إلى رغبة القرامطة في زعزعة الإيمان عند الناس ، وإزالة هيبة المقدسات من نفوسهم وإضعاف شعورهم الديني ، ليصبحوا بذلك أكثر استعداداً لقبول الأفكار والمبادئ القرمطية ، وقد غاب عن بالهم أن أعمالهم تلك قد أحدثت في ضمير العالم الإسلامي جرحاً لم يندمل وجللت بالعار والشنار سمعة القرامطة على مر الليالي والأيام ، وهذا ما تنبه له شريكه في العقيدة والمبدأ محمد بن عبيد الله المهدي ، حين بادر إلى استنكار هذا العمل وإعلان البراءة منه ودعوة القرامطة إلى تفادي ما يمكن تفاديه من آثاره كإعادة الحجر الأسود ، ورد مدخرات البيت والأموال إلى أصحابها في رسالة شديدة اللهجة وجهها إلى أبي طاهر جاء فيها قوله : « سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والأيام ولقد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والإلحاد بفعالك الشنيعة هذه ، وإن لم ترد على أهل مكة والحجاج ما نهبته منهم وترد الحجر إلى موضعه وترد كسوة الكعبة كما كانت ، وإلا أتيت إليك بجنود لا قبل لك بها وأنا بريء منك كما برأت من الشيطان الرجيم في الدنيا والآخرة ، أعوذ بالله من فعالك السوء ، وإن لم تفعل ما آمرك به لا يكون بيني وبينك إلا السيف والبراءة منك يا عدو الله والناس أجمعين » (٢) .

بيد أن تلك الرسالة لم تحقق الكثير في هذا المضمار حيث رد عليه أبو طاهر برسالة تلطفه فيها وأحاطه علماً برد بعض الأموال إلى أهل مكة واعتذر عن رد أموال الحجاج لتفرقهم في البلاد ولم يرد الحجر الأسود مما يشير إلى عدم وجود سلطة فعلية للعبيديين على قرامطة البحرين بالرغم من الروابط العقدية التي بينهما ، وأن محمد بن عبيد الله الملقب بالقائم كان أستاذ أبي طاهر في هذه الدعوة وهو الذي علّمه البلاغ السابع والناموس الأعظم وهو سر الدعوة وحقيقتها (٣) .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣١٣ ، سهيل زكار . (٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٠٤ ، ابن الأثير .

(٣) أخبار القرامطة ، ص ٣٢٤ ، سهيل زكار .

قرامطة العراق يستأنفون نشاطهم برعاية أبي طاهر :

كانت القرمطة في العراق قد انتهت وخمد أوارها كعمل سياسي وعسكري ولكنها ظلت في رؤوس المؤمنين بها فكراً وحلما يتطلعون إلى تحقيقه في أقرب فرصة ممكنة .

فما ظهر أبو طاهر على مسرح العمل العسكري في بلادهم وتوالت انتصاراته على جيوش الخلافة إجتمع في سواد واسط من تلك العناصر أكثر من عشرة آلاف برئاسة حريث بن مسعود فأرسل الخليفة لقمعهم قوة عسكرية ولكنهم تمكنوا من القضاء على معظم أفرادها ، حين وجودهم نائمين في بعض الأماكن بواسط وغنموا ما معهم من الأموال فازدادوا بذلك قوة واقتداراً .

وفي ذات الوقت كانت عناصر قرمطية أخرى كثيرة العدد قد اجتمعت في عين التمر وأسندت قيادتها لعيسى بن موسى ابن أخت الداعية الشهير عبدان (١) ، وكان أبو طاهر قد حضر إلى العراق في عدد من أتباعه فالتقى بقرامطة السواد في دار هجرتهم سنة ٣١٨ هـ ـ ٩٣٠ م (٢) ، وبعد ذلك الاجتماع الذي تم فيه تنسيق الجهود وتوزيع الأدوار سار أبو طاهر في جموعه ميمماً شطر الشام يحدوه الأمل في إخضاعها في حين زحف الجزء الأعظم من القرامطة بقيادة الداعيين عيسى بن موسى ، والحجازي إلى بغداد بقصد الاستيلاء عليها وفي الطريق اكتسحوا الكوفة ودخولها عنوة ولاذ واليها بالهرب منها واستوفوا الخراج من أهلها تحت شعار الدعوة للمهدي ، كما انضم إليهم عدد كبير من أهل السواد بين راغب وراهب (٣) ، كما جاءهم أبو الغيث بن عبيدة العجلي في ثلاثين ألفاً وفرقوا العمال في النواحي وولوا ابن أبي البوادي الكوفي جباية خراج الكوفة ، وأقاموا أبا الغيث بن عبيدة خطيباً (٤) ، ثم خرجوا من الكوفة واتجهوا إلى موضع يُعرف بالجامع فعاثوا فيه نهباً وسلباً ، وبعد خروجهم هجم أهل الكوفة على من كان فيها من رجال القرامطة فقتلوا بعضهم وأخرجوا الآخرين منها ، ولما انتهى خبر ذلك إلى القرامطة أقفلوا عائدين إلى الكوفة لإخضاعها ولكن أهلها صدوهم عن دخولها ، فانصرفوا إلى مصورة فقدمت لقتالهم من بغداد قوة عسكرية بإمارة أبو علي العلوي الصافي النصري ، فالتحم بهم على نهر بقرب أجهباز يُعرف بنهر المجوس .

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٢ ، سهيل زكار .

(٢) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٦ ، المقريزي .

(٣) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٦ ، المقريزي .

(٤) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٢ ، سهيل زكار ، دار الكوثر .

ولم يكن بينهم كبير قتال حتى هزمهم الله تعالى [1] ، فهلك منهم عدد كبير بين قتيل وغريق ولاذ الباقي بالفرار ، ووقع عدد منهم في الأسر في مقدمتهم عيسى بن موسى ، وحُملت الأسرى والرؤوس إلى بغداد فقتل الأسرى بباب الكناسة وصُلبوا هناك [2] ، وحبس عيسى بن موسى ولكنه تمكن من مغادرة السجن في ظل الفوضى التي اجتاحت حاضرة الخلافة في آخر أيام المقتدر ، وظل مقيماً في بغداد كممثل لمصالح القرامطة وداعية لأفكارهم ، وقد استفحل أمره حتى أصبح من أعتى مراكز القوى المؤثرة في سير الحياة السياسية لحاضرة الخلافة ولما مات قام مقامه من تولى تلك المهـام .

فتنة الأصبهاني وأثرها على سير الحياة القرمطية :

لم يتمكن أبو طاهر من تحقيق شيء من مطامحه وأطماعه في الأراضي الشامية فقد أجبرته على المسارعة في الرجوع إلى البحرين أزمة خطيرة نشبت في أوساط القيادة القرمطية هناك ، وأوشكت على الإطاحة بأبي طاهر وتصفية وجود أسرته ، وذلك أن رجلا من كبار بني سُنبر المقربين من أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي والمطلعين على أدق أسراره اختلف مع أبي حفص الشريك زوج أخت أبي طاهر ، ولما استحكم العداء بينهما ، توجه ابن سنبر إلى رجل أعجمي يُدعى أبو زكريا الطمامي [3] ، كما يُعرف باسم زكيرة الأصبهاني ، فاتفق معه على أن يمكنه من السيطرة على القرامطة ويملكه أمرهم في مقابل قيامه بقتل أبي حفص عدو ابن سنبر ، وتعاهدا على ذلك فأطلعه ابن سنبر على أسرار أبي سعيد [4] ، وعلامات الرجل الذي كان يدعو إليه ويزعم أنه المهدي ، فحضر الأصبهاني إلى البحرين وعرّف أبا طاهر وإخوته على أنه المهدي الذي كان أبوهم يبشر بظهوره وأقام لهم الدليل على صدق مزاعمه بذكر ما توفر له من المعلومات عن ذلك ، فانخدعوا به وصدقوه ودانوا له بالسمع والطاعة ، وجمع أبو طاهر الناس وقال : « يا معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم مرة بمحمد ومرة بعلي ومرة بإسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد

---

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٦ ، المقريزي .

(٢) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٢ ، سهيل زكار ، دار الكوثر .

(٣) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٥ ، المسعودي .

(٤) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ ، ابن الأثير .

بن إسماعيل وبالمهدي وهذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم وأشار إلى زكيرة الأصبهاني ، فإن عاقب فبحق وإن عفا فبفضل »[1] ، وعرّج على من كان عندهم في البحرين من سواد الكوفة وأهل الكوفة وقال : « يا معشر الدعاة والخاصة أذكروا ما عندكم فذكروا جميع ما اتفق عليه من الأمور عبد الله بن ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان ومحمد بن حسين بن جهار ، ومنها تطبيق مبادئ القرمطة تحت ستار التشيع والدعوة للمهدي ، فإذا تحقق لهم النجاح في ذلك وصاروا في مُلك وقوة أظهروا تكذيب الأنبياء وتعطيل الشرائع وقتلوا المسلمين ، فأمرهم زكيرة بشتم الأنبياء جهراً في الأسواق ، كما أمر بإحراق الكتب السماوية ، وبراءة الذمة ممن احتفظ عنده بشيء منها وأمر بالمنكرات وأباح المحظورات بما في ذلك الزواج من المحارم ، ونادى بطعن البهائم في خواصرها إلى أن تموت وقال لهم : تأهبوا فإني سائر إلى العراق لإستئصال دين محمد وقتل أتباعه ، فقد انقضت دولته »[2] .

كما بذل كل ما في وسعه في التحكم بمصائر ومقدرات الدولة فقتل من وجوهها وزعمائها في مدة ثمانين يوم سبعمائة رجل في مقدمتهم أعيان بني سليمان وبني زرقان وأمرهم بأن يعرضوا عليه نساؤهم من بيت أبي سعيد وغيره واختار منهن من أراد ، وكان بين من اختار زينب بنت الحسن بن بهرام الجنابي نفسه[3] ، وكان قد قتل زوجها ، وبعد مدة أخبر أحد المقربين لبيت الجنابي ويُدعى أبو دلف أم أبي طاهر بأن زكيرة عقد العزم على قتل جميع أولادها ، فبعثت إلى أبي طاهر وكان في الشام تخبره بما يبيت الأصبهاني له ولإخوته ، فبادر بالعودة إلى البحرين لإنقاذ الموقف والقضاء على الأصبهاني ، فجمع أبو طاهر إخوته وقال لهم لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله ، فاستدعوه وقالوا له إن لنا مريضاً فنظر إليه ليبرأ ، وكانوا قد أضجعوا والدتهم وغطوّها برداء ، فلما نظر إليها قال إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه[4] ، وقالوا كذبت إنها والدتنا فقتلوه على الفور فلما انتشر خبر قتله في الناس توافدوا على القصر لمعرفة ما جرى فأمر ابن سنبر بإغلاق باب القصر وأشرف على الناس وسألهم عن سبب تجمعهم فقالوا له بلغنا : بأنكم قتلتم الإله قال : قد فعلنا ذلك ، ولما سألوه عن السبب امتنع عن إجابتهم وقال : إن شئتم أن تذهبوا فذهبوا ، فما

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٥ ، سهيل زكار .
(٢) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٦ ، سهيل زكار .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .
(٤) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ ، ابن الأثير .

نعرفكم السبب وأردف قائلاً : يا قوم لا تفضحونا وأنفسكم ولا تشمتوا بنا المسلمين وبكم وارجعوا عن جميع ما قاله لكم أبو طاهر إلى ما كنتم عليه ، وكنا من قبل ذلك ما نحن أصحاب المهدي والدعاة إلى المهدي والمؤمنون الشيعة فإنه كنا نتحدث أن ستكون للمؤمنين ذلة وهي هذه ، فالله الله في أنفسنا وأنفسكم ، فما أدخلناكم في شيء إلا بعد أن دخلنا فيه فقالوا : نريد أن نراه مقتولاً ، لأنهم خافوا أن يكون في الأمر خدعة ، ففتحوا الباب وأدخلوهم ، فرأوا زكيرة مقتولاً وجاءت زينب بنت أبي سعيد إمرأة ابن زرقان فشقت جوفه واستخرجت كبده فأكلتها ، وكان قد أمر أبا طاهر بقتل ابنها من زوجها الأول بيده ففعل ، فقال ابن سنبر لأبي طاهر : فرّق المال في الرؤساء وأرضهم فإن هذه سقطة عظيمة سقطناها (١) ، فأرسل أبو طاهر إلى الرؤساء بالأموال واسترضاهم بها سعياً وراء التخفيف من الآثار السيئة التي تركتها هذه القضية في نفوس القرامطة ومن يدور في فلكهم .

وفي تصوري أن قصة زكيرة الأصبهاني هذه تمثل أول مسمار يُدق في نعش الحركة القرمطية بالبحرين فقد كشفت لكثير من أتباعها حقيقة الدعوة وأساليب الخداع والتضليل التي يتم انتهاجها في سبيل نشرها ، وجذب الناس إليها ، كما نالت كثيراً من المكانة السامية لأبي طاهر في نفوس أتباعه وأطفأت بريق الصورة الخلابة التي رسموها له في مخيلتهم ، فبعد أن كانوا يعتبرونه حجة المهدي أو نائبه ويسبغون عليه أجل عبارات التعظيم والتبجيل قبل هذه الحادثة ، صاروا فيما بعد يعدونه المسؤل الأول عن فضح الدعوة وتقويض أركانها .

وكان الدعاة مثل أبي القاسم عيسى بن موسى ، وأبي مسلم بن حماد الموصلي ، وأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي الكلابي وغيرهم (٢) ، يتحدثون أسفاً وحسرةً بما آتاه أبو طاهر من كشف الدعوة حتى سقطت هيبته واستخفت العرب به بعد ذلك التعظيم ، وكان أبو طالب بن عيسى بن موسى وأمثاله يقولون : « إذا ذكروا حقيقة أبي طاهر : لعنك الله ويلك ثم سلمت الأمر إلى زكيرة الأصبهاني ويلك ! ألا مضيت على غرتك ، وقد ظن الناس أنك المهدي ، وفيهم من ظن أنك فوق المهدي ، ويلك إلى بخارى تتقدم لا يردك أحد » ، وكانوا يعاتبون أبا طاهر وأصحابه بينهم سراً فيجيب أبو طاهر

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٧ ، سهيل زكار .

(٢) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٧ ، سهيل زكار .

وأصحابه معتذرين بقولهم بأن ما حدث كان خارجاً عن إرادتهم ويتعللون بذكر عثرات أمثالهم من قادة الحركة القرمطية كالمنصور بن حوشب « بعدن لاعة » ، وعلي بن الفضل بجيشان وسعيد العبيدي بسجل ماسة بالمغرب ، ويقولون بأن سقطات غيرهم من أهل هذه الدعوة أكثر من سقطاتهم ، ثم يقولون أم تظنون إنا بالبحرين لا نعرف أخبار إخواننا وأهل دعوتنا بالمغرب واليمن والعراق ، وكانوا يحتجون بمثل هذا على من عدلهم من إخوانهم في إظهار الباطن (١) ، كما إنشق عن هذه الحركة بعد تلك الفضيحة الشنعاء عدد من قادتها البارزين في مقدمتهم أبو الغيث العجيلي وكان ناباً من أنيابهم ومطاعاً في عشيرته وكانوا نحو ثلاثين ألفاً ، وكتب في ذلك كتاباً بيّن فيه أنه خُدع بأمرهم وانطلت عليه حيلهم فظنهم شيعة من أصحاب المهدي ، كما ضعفت هيبة أبي طاهر في نفوس رجال العشائر التي كانت تقاتل إلى جانبه ، فصار أحدهم يفر بما يقع في يده من الغنائم بعد الغارات ، وكانوا قبل ذلك يؤدونها كاملة إلى أبي طاهر لأنه حجة الله وأن المال يستحصله للمهدي ، فصاروا بعد قصة زكيرة ، لا يهتمون بأوامره وصاروا يشربون ويسمعون القيان ، ولكن من هو هذا الرجل الذي استطاع أن يتسلل إلى سدة السيادة المطلقة على مقدرات هؤلاء القرامطة بالبحرين ويتصرف في شئونهم بالصورة التي أفرزت هذه النتائج الخطيرة على سير الحياة في دولتهم ، في تصوري أن هذا الرجل الأعجمي لم يكن شخصاً عادياً أو إنساناً يطمح لُلك أو سيادة لأن خطورة التدابير التي اتخذها مع هؤلاء والتعاليم المشينة التي نشرها بينهم ، وقسوة الإجراءات التي مارسها مع بعضهم كقتل المئات من كبار رجالات الدولة وأركانها وحمله أبا طاهر على أن يقتل ابن أخته بيده أمور تنم عن حقد دفين ورغبة في الانتقام لشيء معين ، الأمر الذي يحملني على الإعتقاد أن هذا الرجل الأصبهاني لم يكن إلا ابن للداعية القرمطي الذي أوفده عبدان إلى المنطقة في بداية الدعوة ، وقام أبو سعيد بقتله صبراً للإنفراد بقيادة الحركة وتولى الحكم بعد نجاحها ، وحسبنا شاهداً على صدق ما ذهبنا إليه إلى جانب القرائن السالفة الذكر أن بعض المصادر قد صرحت بأن اسم هذا الأعجمي ابن أبي زكريا الطمامي وأبو زكريا الطمامي هذا هو بنفسه الداعية السالف الذكر (٢) ، أما كيف اعتبروه فيهم إلهاً فإن من عقائدهم الفاسدة أن الرجل منهم ربما تدرج في سلم الإرتقاء حتى ينال رتبة الألوهية بحيث

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٠٨ .

(٢) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٥ ، المسعودي .

يكون أولاً داعية ثم يرتقي إلى أن يكون حجة ثم إلى الإمامة ثم يُلحق برتبة الرسل ثم يتحد بالرّب فيصير رباً [١] .

أبو طاهر يغزو الساحل الشرقي للخليج :

في سنة ٣٢١ هـ جهز أبو طاهر لغزو جنابة وسينيز ومهرُبان على الساحل الشرقي من الخليج حملة عسكرية فيها وجوه أصحابه على متن أربعين مركباً فرست المراكب عند ساحل سينيز فصعد من كان بها إلى المدينة واشتبكوا مع أهلها في قتال ضارٍ أسفر عن هزيمة أهل سينيز وقتل منهم عدد كبير ، وتم سبى نسائهم ولاذ من ظل منهم على قيد الحياة بالفرار إلى رؤوس الجبال ، أما القرامطة فقد غادروا هذه المدينة ميممين شطر جنابة لمهاجمتها حينئذٍ هب لتفادي تكرار ما حدث أحد وجهاء البلاد ويُدعى أبو بكر الطرازي ، فأرسل جماعة يستحث الهاربين على العودة إلى ديارهم وتسُد عليهم منافذ الهروب ودعا جميع الرجال للإجتماع في المسجد الجامع ، وحثهم على المقاومة ورغبهم في الجهاد [٢] ، فأعانهم بماله فتطوع للنهوض بتلك المهمة عدد كبير منهم فهدأ روع الناس وقويت قلوبهم فأعد أبو بكر الطرازي لقتال القرامطة من غلمانه سريتين سيّر إحداهما براً والأخرى بحراً ، وأنفذ إلى مهربان يخبر أهلها أنه اتخذ الأُهبة للقاء العدو وطلب منهم المسارعة في إنجاد أهل جنابة ، فدارت معركة حامية الوطيس بين القرامطة من جهة وأهل جنابة وسينيز من جهة أخرى وفي أثناء ذلك قدمت المراكب من مهربان محملة بالمقاتلين وتصدى لها القرامطة فأشعلوا فيها النار ، لم ينجو منها سوى عشرين مركباً ، وفي النهاية دارت الدائرة على القرامطة فقتل منهم خلق كثير ، وأسر جماعة ولحق بعضهم بالجبال ، فوردت الأخبار بذلك على أبي بكر الطرازي ، وصمم على تعقب القرامطة واستئصال شأفتهم ، فجمع الناس ودعا كل من في جنابة وسينيز من الرجال للحاق به [٣] ، وسار بتلك الجموع إلى الجبال فطوقها ، فوافوا فلول المنهزمين من القرامطة في كهوف تلك الجبال وذلك في يوم الأربعاء فلما رأى القرامطة الناس مقبلين عليهم كسروا جفون سيوفهم وحملوا عليهم فثبت الناس لهم وقد استمرت الحرب القائمة بينهم يوم الأربعاء والخميس إلى نصف النهار ، ثم نادى أبو بكر الطرازي من جاء برأس فله خمسون درهماً فتنادى

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٩٧ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠٤ .

الناس بالشهادة وجدوا ونشطوا وقتلوا خلقاً كثيراً وأخذوا جميع من ظل على قيد الحياة أسرى (١) وحُملوا والناس في غاية البهجة يكثرون من الحمد لله عز وجل ، ولم يفلت من القرامطة أحد وكتب الناس محضراً أرسلوه إلى بغداد ، وأرسلوا معه الرؤوس والأسرى ، ونسخة المحضر كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

حضر من وقع بخطه وشهادته آخر هذا الكتاب (المحضر) وقد حضر عندهم ثلاثة من القرامطة لعنهم الله ذكر أحدهم أنه يقال له سيّار بن عمرو بن سيّار ، والآخر ذكر أنه يقال له علي بن محمد بن عمر ، والآخر ذكر أنه يعرف بأحمد بن غالب بن جعفر الأحساوي ، فذكروا أنهم متى نفذ رسولهم إلى صاحبهم سليمان بن الحسن القرمطي رد الحجر والشمسة وكسوة البيت وأطلق الأسارى الذين في قبضته ، وهادن السلطان وارتدع عن السعي بالفساد ، والقطع على الحجاج ولم يحفزهم ولم يعترض عليهم ، ويكون هؤلاء النفر من جملة الأسرى الذين في يد محمد بن علي الطرازي ، وهم الذين ظفر الله بهم فمتى ما وافى سليمان بن الحسن القرمطي بما بذلوه عنه أفرج السلطان عنهم وردهم إليه وذلك في يوم الجمعة الحادي عشر من جماد الآخرة سنة ٣٢١ هـ ، وأسفل ذلك خطوط أهل البلد بالشهادة » (٢) .

وجيئ بسيار بن عمرو بن سيار وعلي بن محمد بن عمر المعروف بأبي الهذيل بن المهلب ، وأحمد العيار وهم من جملة الأسرى فعُرضت عليهم رؤوس أصحابهم المقتولين ليعرّفوا بأسمائهم وأنسابهم فذكروا نحواً من مائة رأس ومن الأسرى مثلهم ، ثم أرسل الجميع إلى بغداد فحبس الأسرى ، وقد قيل أن فيهم من أخوة سليمان بن الحسن من كتم أمره (٣) .

قال الراوي : أنهم بعد خلاصهم من الأسر ومسارهم إلى أبي طاهر يتحدثون بأن كثيراً من أعيان بغداد كانوا يبعثون إليهم بالهدايا كي يتقربوا بها إليهم .

وقد جاء الإفراج عن هؤلاء الأسرى نتيجة مفاوضات أجراها مع أبي طاهر أبو بكر بن ياقوت تم فيها الإتفاق على تبادل الأسرى ورد الحجر الأسود إلى مكانه بالبيت والكف عن مهاجمة الحجيج وإقامة هدنة بين الخلافة والقرامطة .

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٤ ، سهيل زكار . (٢) المرجع السابق ، ص ٥٠٤ ، و٥٠٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠٥ ، سهيل زكار .

بيد أن الأحداث اللاحقة قد أكدت أن شيئا من بنود هذا الإتفاق لم ير النور باستثناء إطلاق الأسرى (١) .

أبو طاهر واعتراض الحجيج :

في سنة ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٤ م ـ سار أبو طاهر لاعتراض الحجيج ، فخرج في الثاني والعشرين من شوال في تسعمائة فارس وستمائة راجل وقسم عسكره إلى فرقتين بالجابرية (٢) ، وأسند قيادة الفرقة الأولى لحسين بن علي بن سنبر ومعاذ الكلابي ، وسارت الفرقة قاصدة طريق مكة في طلب أول الحجيج وفي ناحية زبالة أوقع ابن سنبر بالخوارزمية ومن معهم وأسر عدداً من رؤسائهم من بينهم شاذان وابن حاتم (٣) ، وذلك في السابع عشر من ذي القعدة من هذه السنة ، ورجع بقية الحجيج قاصدين العُذيب فوقعوا في قبضة أبي طاهر ، فطلب قُرة منه الأمان لقافلته وافتداها بمال فقُبل منه ذلك ، وسارت القافلة إلى وجهتها بسلام ، أما بقية القوافل فقد ظفر بهم القرامطة وغنموا ما معهم من الأمتعة والأموال ، وكان أبو طاهر قبل ذلك قد توجه إلى القادسية على رأس عدد من أتباعه لاعتراض قافلة الشمسية فأوقع بها في التاسع عشر من ذي القعدة ، وكانت تسير في حماية لؤلؤ غلام المتهشم (٤) وقد أصيب هذا في تلك المعركة بعدة جراح ، ولكنه تمكن من النجاة بجلده حين طرح نفسه بين القتلى ، وفي جُنح الليل دخل الكوفة مستخفياً ، وقد استولى أبو طاهر علي جميع ما في تلك القافلة من النفائس والأموال ، وحين لاحظ أحد القرامطة ما تتركه غارات أبي طاهر من الآثار السيئة على سير الحركة القرمطية ، وأن المستفيد الأول من تلك الغارات الأعراب الذين قلت هيبتهم للقرامطة فساروا يفرون بكل ما تصل إليه أيديهم من أموال الحجاج وأمتعتهم تاركين لسادتهم المذمة والعار ، باعتبارهم المانعين من الحج مع تعطش الناس إليه والرغبة في أدائه واقترح على أبي طاهر أن يطلب من الحجيج حين يظفر بهم دفع دينار عن كل واحد منهم ثم يأذن لهم بالمسير إلى الحج ويؤمن سبيلهم لأن ذلك سيلاقي هوى في نفوسهم وسيزيد في إقبال الناس على الحج من كل بلد ، ولن يبقى ملك إلا

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٥ ، سهيل زكار .

(٢) الجابرية : موضع بالأحساء على بعد ٢٠٠ كم عن حاضرتها .

(٣) التنبيه والإشراف ، ص ٣٥٣ ، المسعودي .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

كاتبه وهاداه واحتاج إليه في حفظ أهل بلده وخاصته ، فجبى في كل سنة مالا يصير إلى السلطان مثله من الخراج واستولى على الأرض وانقاد له الناس (١) ، فاستصوب أبو طاهر هذا الرأي وقرر العمل به من تلك السنة ، فبادر من وقته ونادى في الناس بالأمان ، وأحضر الخراسانية وقرر معهم أنهم يحجون ويؤدون إليه المال في كل سنة ويكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، فلم يأمنوا له فسلم سياسة أمرهم إلى أبي علي عمر بن يحيى العلوي واستقر للقرامطة ضريبة ورسم على سفر الحاج (٢) .

أبو طاهر يغزو الكوفة :

في سنة ٣٢٥ هـ سار أبو طاهر إلى الكوفة واستولى عليها ليلاً وكان أميرها آنذاك شفيع اللؤلؤي فهرب من مجلسه والناس عنده ورمى بنفسه من سطح بيته ، واستتر عند إمرأة ضعيفة (٣) ، كما نجح عدد كبير من جند الخلافة في الخروج سالمين من الكوفة مخلفين ورائهم في الطرقات بعض القتلى من أصحابهم ، فوجه أبو طاهر إلى شفيع اللؤلؤي فأمنه وأحضره وأمر له بطعام وطلب شفيع مائدة يأكل عليها فقيل لا توجد إلا مائدة نهبت من داره ، فقال أبو طاهر : قبيح أن يراها فافرشوها بالرقاق كي لا يعرفها ، ثم أفرج عنه أبو طاهر وأنعم عليه ببعض الصلات وطلب منه أن يخبر الخليفة الراضي (٤) ، بأن القرامطة يقومون بهذه الغارات لحاجتهم إلى الأموال ، وأن عليه أن يعرف قدرهم ويخصص لهم أموالاً تغنيهم عن تلك الغارات وأنه إن فعل ذلك فلن يقدموا على ما يُخل بأمنه ، وسيضعون جميع إمكانياتهم في خدمته ، أما إن أبى فلن يجدوا بُداً من أن يأكلوا بسيوفهم ، فسار شفيع إلى الخليفة وأخبره بما قال أبو طاهر ، فبعث الخليفة بدوره إلى أبي طاهر أبا بكر بن مقاتل للتفاوض معه فأسفرت المفاوضات عن إلتزام الخليفة بدفع رسم سنوي قدره ثلاثمائة ألف دينار لأبي طاهر في مقابل قيام الأخير بخفارة الحاج ، ومن ثم أقفل أبو طاهر راجعاً إلى بلده .

---

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٥ ، المقريزي .
(٢) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٦ ، سهيل زكار .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠٦ .
(٤) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٤ ، المقريزي .

وفاة أبي طاهر وكيف سارت الأحوال بعده في البحرين :

في رمضان ٣٣٣ هـ وقيل ٣٣٢ هـ ، توفى أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي وله من العمر ثمان وثلاثون سنة أمضى منها في الحكم ثمان وعشرين سنة زاخرة بالأحداث الجسام والحروب المرعبة ، وقد أصبحت الدولة في عهده على جانب كبير من القوة وسعة النفوذ ، ففرضت لها الرسوم والأتاوات من الخلفاء العباسيين في بغداد ، ومن بني بضجع أمراء دمشق ، ومن كافور الإخشيدي بمصر ، وقد بلغ ما يصل إليه من كل واحد من هؤلاء ثلاثمائة ألف دينار ، وكان أولاد أبي طاهر حين وافاه الأجل صغاراً غير قادرين على النهوض بإدارة أعباء الدولة فاضطلع على القيام بهذه المهمة أخواه أبو العباس محمد وأبو يعقوب يوسف يساعدهما سبعة وزراء يرأسهم أبو محمد سنبر بن الحسن [١] ، وبعد حين قام أخوهم سعيد بالثورة على أخويه والاستيلاء على مقاليد الحكم ، ولكنه لم ينجح في إحكام السيطرة على إدارة شئون البلاد ، فهب أخوه أحمد بالإطاحة به بالتعاون مع كبار القرامطة والاستعانة بتوجيه العبيدين الفاطميين وجرى الإتفاق على أن يظل أحمد بن الحسن يمارس مهام الحكم حتى يكبر سابور ابن سليمان فيسلمه له باعتباره ولي عهد أبيه ، ولم يكن جميع كبار القرامطة على قناعة بسلامة هذا الإجراء فانقسموا إلى فريقين ، فريق فيه أبناء أبي طاهر سليمان بن الحسن وعلى رأسهم سابور وعمه أحمد ومعهم بعض كبار القرامطة ويسمون العقدانية لإيمانهم بضرورة السير على عقيدة أسلافهم في موالاة الدولة الفاطمية والإذعان لتوجيهاتها وتعاليمها ، وفريق آخر في مقدمتهم سعيد بن الحسن بن بهرام الجنابي ورأى هؤلاء ضرورة الإلتزام بالاستقلال التام وممارسة الحكم بمفاهيم محلية خالصة لا سلطان عليها لأي قوة خارجية [٢] ، وكان هذا الخلاف أول صدع في بناء هذه الدولة ، حيث تلته سلسلة من النزاعات التي كادت تعصف بوجودها وتقضي عليها [٣] ، فقد أبى سعيد الإذعان لهذه الترتيبات وأعد جيشاً من مؤيديه سار به إلى عُمان فاستولى عليها ، ولكن أحمد سير في إثره جيشاً آخر بقيادة

---

(١) أنظر كتابنا تاريخ هجر ، ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

ابنه الحسن الملقب بالأعصم ، وهناك دارت بين الجيشين حرب حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة سعيد فعادت المناطق التي استولى عليها لنفوذ الحكومة المركزية في البحرين ، كما سار الأعصم بتكليف من أبيه إلى الشام على رأس جيش لتأديب ابن طغج الذي أظهر مساندة واضحة لسعيد في مواقفه السياسية ونشاطه العسكري ضد الدولة ، فالتقى الأعصم بابن طغج في قتال ضار كان في نهايته الظفر للأعصم ، فأرغم ابن طغج على الإلتزام بدفع أتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار ، ولكن العلاقة بينهما اتخذت فيما بعد طابعاً ودياً فتزوج الحسن من ابنة ابن طغج (١) ، وكان الأعصم قد استولى على الرملة وعين لإدارة شئونها وشاح السلمي ومن ثم أقفل عائداً إلى البحرين وذلك في ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٨ م ـ وخلال هذه الأحداث كان سابور بن سليمان قد شب عن الطوق ، فعبّر عن رغبته في استلام مقاليد السلطة ولكنه لم يجد من عمه أحمد أذناً صاغية . ورأى في النفوذ المتزايد للأعصم مؤشراً واضحاً على أنه لن يمكن منها أبداً ، فقرر انتزاع الحكم من عمه بالقوة ، فأعلن الثورة سنة ٣٥٨ هـ ، فقبض على عمه أحمد وأودعه السجن ولكن أحمد بعد حين استطاع الفرار من سجنه بمساعدة أحد إخوته فاعتقل سابور ورمي به في السجن حتى مات (٢) ، أما إخوة سابور وكبار مؤيديه فقد أجبروا على الإقامة في جزيرة أوال ، وبعد ذلك تمكن أحمد من فرض سلطته على كامل أراضي الدولة ودخلت في طاعته جميع القبائل ، وفي سنة ٣٥٩ هـ ، مات أحمد بن الحسن بن بهرام الجنابي وكان قد عهد بالحكم بعده لابنه الحسن الأعصم .

الحركة القرمطية في ظل ولاية الأعصم :

بلغت الدولة الجنابية في البحرين في عهد الأعصم هذا أوج قوتها في الحقلين الداخلي والخارجي ، فقد استكملت البلاد نموها العمراني والاقتصادي ، كما ازدادت الأعمال العسكرية قوة واتساعاً ، ولم تعد العراق وطرق الحجيج مسرح تلك العمليات العسكرية كما كان الحال في عهد أبي طاهر بل صارت مصر والشام مسرح ذلك النشاط ، ففي سنة ٣٥٨ هـ ، استولى على مصر جوهر الصقلي لحساب سيده

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٨ ، المقريزي .

(٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٤ ، ص ٣٥ ، ابن الأثير .

المعز لدين الله العبيدي ، فأنفذ جعفر بن فلاح الكتامي على رأس جيش إلى الشام فاحتل دمشق وفلسطين وكثيراً من الأراضي السورية ، واعتقل ابن طغج ، فاستطال جوهر بتلك المكاسب على الناس واستبد به الغرور ، وقرر قطع الرسوم المالية المقررة لقرامطة البحرين من مصر والشام ، وأظهر الاستخفاف بهم وقال عنهم حين ذكروا عنده وذكرت الجزية التي لهم علي سيده : « من هؤلاء الكلاب ، الآن أُنفذ كتامة إلى الأحساء فيشدون براذينهم على أبوابهم ويسبونهم » (١) ، وفي ذات الوقت وصل إلى الأحساء كل من ظالم بن موهوب العقيلي ومحمد بن عصودا قادمين من دمشق بعد سقوطها في يد المغاربة لحث الأعصم على تحرير الشام من أيديهم ، فوافق على ذلك وتأهب للمسير إلى هناك وعمل على تحسين علاقته بالعباسيين فسمح بأن تكون الخطبة في مكة للخليفة المطيع لله العباسي وللقرامطة الهجرين علي السواء وذلك في سنة ٣٥٩ هـ (٢) ، كما أرسل ممثله أبا طريف عديّ بن محمد بن الغمر للوزير العباسي أبو الفرج محمد بن العباس أو عز الدولة بختيار لإسعافهم بالمال والرجال ، بيد أن الخليفة المطيع لله تردد في ذلك لاعتقاده أن الجميع قرامطة وعلى دين واحد ، فالمصريون على حد قوله أماتوا السنن وقتلوا العلماء وهؤلاء قتلوا الحجيج واقتلعوا الحجر الأسود (٣) ، ولكن الوزير المذكور استطاع إقناعه بضرورة التعاون مع القرامطة على حرب العبيدين لما أصبحوا يشكلون من خطر حقيقي على حاضرة الخلافة ، فوافق الخليفة على مساعدة الأعصم في هذا المضمار ، فأمر له بألف ألف دينار وألف جوشاً وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جعبة ، وقال : إذا وصل أبو علي الجنابي إلى الكوفة حُمل إليه جميع ذلك ، كما أعطاه الخليفة العباسي حوالة بمبلغ أربعمائة ألف درهم على أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان (٤) ، فرحل أبو علي الحسن الأعصم من الكوفة حتى أتى الرحبة وعليها تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان فأعطاه المال المحال به عليه ، وأبدى له استعداده التام للقتال معه متى شاء ذلك كما حث أتباعه على الإنضمام للأعصم والقتال معه فهب للانخراط في جيش الأعصم جماعة من عسكر ابن تغلب فيهم كثير من الإخشيدية الذين جاءوا إلى أبي تغلب بعد زوال دولتهم على يد

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٣٢٧ ، سهيل زكار . (٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٤٠ ، ابن الأثير .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٢٣٩ ، سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .
(٤) أخبار القرامطة ، ص ٥٠٨ ، سهيل زكار .

العبيدين ، وتعود أسباب مؤازرة ابن تغلب للأعصم لمراسلات جرت بينه وبين جعفر بن فلاح أغلظ ابن فلاح فيها على ابن تغلب وتهدده بالمسير إليه ، فلما أرسل أبو تغلب إلى الحسن الأعصم هذه الرسالة ومكن الجند من المسير معه سره ذلك وزاده قوة فسار عن الرحبة حتى دنا من أرض دمشق ، ووصل إلى ضياع المرج (١) ، فظفرت خيله بجماعة من المغاربة يقودهم رجل يقال له علي بن مولاه ، فأفنوهم جميعًا فغشيت الذلة والإنكسار المغاربة وكتب الأعصم إلى جعفر بن فلاح كتاباً يخيره فيه بين الاستسلام أو الحرب ضمنه أبياتاً من نظمه منها قوله :

الكتب معذرة والرسل مخبرة	والحق متبع والخير موجود
والحرب ساكنة والخيل صافنة	والسلم مبتذل والظل ممدود
فإن أنبتم مقبول إنابتكم	وإن أبيتم فهذا الكور مشدود
على ظهور المطايا أو يردن بنا	دمشق والباب مهدوم ومردود (٢)

بيد أن جعفر بن فلاح لم يكترث بكتاب الأعصم وأظهر الاستخفاف به وبجموعه ، فتقدم ظالم بن موهوب العقيلي على رأس جماعة من عشيرته وبني كلب فالتحم بالمغاربة في صحراء المزة ، وأقبل شبل بن معروف العقيلي معيناً لظالم ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل الحسن بن أحمد الأعصم فاشتد ساعد العقيلين واستعر أوار القتال إلى العصر ثم حمل ظالم ومن معه فانهزمت المغاربة وكثر فيهم القتل وعثر على ابن فلاح صريعاً بين القتلى دون أن يُعرف قاتله في الموضع المعروف بالدكة ، واشتغلت العرب بنهب العسكر وذلك في يوم الخميس سابع ذي القعدة من سنة ٣٦٠ هـ ، ولما بلغ ذلك الأعصم عبر عن إكباره بشجاعة جعفر بن فلاح وإعجابه بخصاله بأبيات جاء فيها قوله :

أعزز علي بقتله	لشبابه وأبوته
قد كنت ذا خوف عليه	لبطشه وجراءته
وجماله وكماله	وحيائه ومروئته
وعطائه ووفائه	وبهائه ورئاسته
وحبائه لعداته	وجميل وصف سياسته

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٤٠ ، ابن الأثير .

(٢) أخبار القرامطة ، ص ٤٠٨ ، الناشر دار حسان ، د / سهيل زكار .

حلواً خصال الخير لم يمتن قط ولم يته
فاق المغارب جوده فعلا تعالى همته
جاد الإله عليه في الأخرى بسكني جنته [1]

ثم نزل الحسن بن أحمد بعد الوقعة على ظاهر المزة ودخل دمشق فأمن أهلها وأحسن السيرة فيهم ولعن المعز على منبر دمشق وآبائه ، وقال : هؤلاء من ولد القداح كذابون ممخرقون أعداء الإسلام ونحن أعلم بهم من عندنا ظهر القداح [2] ، وخطب للمطيع ، وكان حين سار إلى الشام قد اتخذ أعلاماً سوداً كتب عليها اسم المطيع وتحته مكتوب السادة الراجعون إلى الحق وذلك سنة ٣٦٠ هـ وقيل ٣٥٩ هـ [3] ، ثم سار الأعصم من دمشق قاصداً الرملة ، وكان جوهر الصقلي قد أنفذ من مصر رجلاً من المغاربة يقال له سعادة بن حيان على رأس أحد عشر ألف مقاتل ، فلما بلغ ابن حيان خبر الهزيمة وقتل جعفر بن فلاح تحير وتقطعت به الأسباب فدخل في يافا ثم قصده الحسن الأعصم هناك فنزل بظاهر المدينة واجتمعت عليه عرب الشام ، فنازلها وطوقها بالحصار حتى أوشك ما بها من الأقوات على النفاذ ، وتصدى المحاصرون لقتل كل من حاول إدخال الطعام إليها سراً .

فلما طال الحصار على المغاربة أكلوا دوابهم وهلك كثير منهم جوعاً ، وكان الحسن بن أحمد غادر يافا ميمماً شطر مصر تاركاً على حصارها أبا المنجا وظالم العقيلي كما ترك في الرملة أبا محمد بن عبد الله بن عبيد الله الحسيني ومعه زغفل بن جراح الطائي وجماعة من الأخشيدية والكافورية .

مسير الأعصم إلى مصر بعد إستيلائه على الشام :

لما بلغت جوهر الصقلي أخبار إستيلاء القرامطة على دمشق وتضييق الحصار على سعادة بن حيان في يافا أيقن أن القرامطة زاحفون على مصر وقد راجت فيها الإشاعات بذلك ، فعمد إلى اتخاذ الإجراءات الاحتياطية والاستعداد للمقاومة فحصن مدينة القاهرة بسور منيع وخنادق عميقة وفرق السلاح على أتباعه وفي ذي الحجة سنة

(١) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٩ ، المقريزي .
(٢) أخبار القرامطة ، ص ٢٣٩ ، الناشر دار الكوثر ، د / سهيل زكار .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٢٣٩ ، الناشر دار الكوثر ، سهيل زكار .

٣٦٠ هـ ـ ٩٧٠ م ـ استولت طلائع جيوش الأعظم على مدينة السويس [(١)] ، وأسرت واليها عبد العزيز بن يوسف [(٢)] واستولت على أمواله ومواشيه ، وفي محرم سنة ٣٦١ هـ ، استولى القرامطة على مدينة الفرمة وأعلن أهل بحيرة المنزلة [(٣)] التمرد والعصيان ، ومالوا إلى جانب القرامطة ، فاضطر جوهر لقمعهم وتوغلت عساكر القرامطة في الأراضي المصرية وتعقبوا المنهزمين منهم إلى عين شمس ، كما تمكن أتباع القرامطة من إسقاط المنشورات المعادية لجوهر في داخل المسجد الجامع فتأهب جوهر لمقاومتهم وأخذ الحيطة منهم فأغلق أبواب الطابية وشدد الرقابة على المدينة [(٤)] .

بين الأعصم وجوهر الصقلي :

نزل الأعصم خارج القاهرة بعين شمس في العشرين من صفر سنة ٣٦١ هـ [(٥)] ، ومعه خمسة عشر ألف جمل وبغل تحمل صناديق الأموال وأواني الذهب والفضة عدا التي تحمل المؤن والأمتعة والأعلام ، وفي مستهل ربيع الأول نشب القتال بين القرامطة والعبيدين على أبواب القاهرة وكان يوم الجمعة فكثر القتل والأسر في الفريقين وباتوا ليلة السبت وأصبحوا متكافئين وغدوا يوم الأحد للقتال ، فسار الأعصم بجميع عسكره إلى الخندق والباب مغلق ، وفي الصباح فتح جوهر الباب واقتتلوا قتالاً شديداً سقط فيه كثير من القتلى وانهزم الأعصم وأُخذ ما في عسكره في الجُب ، ونهبت صناديقه وكتبه ومر في الليل على طريق السويس فسطت بنو عقيل وبنو طي على كثير من أموالهم ونادى جوهر في المدينة من جاء بقرمطي أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم [(٦)] ، وفي ذات الوقت كان المعز يعمل في الخفاء على إضعاف القرامطة بإشعال الفتنة والخلاف بينهم ، فقد كتب إلى أبناء أبي طاهر المنفيين في جزيرة أوال كتاباً يتضمن تنحية الأعصم عن شئون الدعوة وإسنادها إليهم ، فساروا من أوال إلى

(١) السويس : كانت قديماً تُعرف باسم القلزم .

(٢) هو الذي أعان أبا الطيب المتنبي على الإفلات من قبضة كافور الأخشيدي من مصر .

(٣) بحيرة المنزلة : كانت قديماً تُعرف باسم تنيس .　　(٤) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٤٩ ، و٢٥٠ المقريزي .

(٥) أخبار القرامطة ، سهيل زكار ، (الكتاب ـ المقفي الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها) ، ص ٤٠٣ ، الناشر دار حسان .

(٦) أخبار القرامطة ، سهيل زكار ، (الكتاب المقفى في تراجم أهل مصر والوافدين عليها) ص ٤٠٣ ، الناشر دار حسان .

الأحساء ونهبوها ، ولما بلغ الأعصم أخبار تلك الحركة أقفل عائداً إلى بلده لإخماد تمرد أبناء عمه ، واستطاع بمساعدة من العباسيين إقناعهم بالرجوع إلى مقر إقامتهم بأوال .

ولما تأكد جوهر من رحيل الأعصم عن مصر ، سير ابن أخته أبا محمود إبراهيم ابن جعفر لفك الحصار عن يافا ، ولما وصل إليها وجد القرامطة قد انصرفوا عنها إلى دمشق فأخذ من بها من المغاربة وعاد بهم إلى مصر .

وفي هذه الأثناء جرى خلاف بين ظالم العقيلي وأبو المنجا ذُكر أنه بسبب أخذ الخراج لأن كل منهما كان يريد أخذه وإنفاقه في رجاله ، وكان أبو المنجا أثيراً عند الأعصم يستخلفه على تصريف بعض الأمور .

عودة الأعصم إلى الأراضي الشامية ومصر :

في سنة ٣٦٢ هـ ، عاد الأعصم من الأحساء إلى الشام فنزل الرملة وعلم بما كان بين أبي المنجا وظالم من خلاف فقبض على ظالم وأودعه السجن إلى أن ضمنه شبل بن معروف العقيلي فأخلى سبيله فهرب إلى شط الفرات ، وتوارى في حصن له في منزل بني زياد ، وتأهب الأعصم للمسير إلى مصر (١) ، فسيّر إليها طلائع المقاتلين بالسفن وأخذ في حشد المقاتلين من العرب وغيرهم .

وكان جوهر يكتب إلى المعز لدين الله بالقيروان بما جرى على عسكره من القتل والحصار ، وأن الحسن بن أحمد يقاتلهم على خندق عسكرهم ، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق المعز من تلك الأخبار قلقاً شديداً (٢) ، وجمع العساكر من كل مكان وسار إلى مصر ، وهو يظن أنها ستسقط في قبضة القرامطة قبل وصوله ، ولكنه تمكن من دخولها في يوم الثلاثاء سادس رمضان ٣٦٢ هـ ، وكان شديد الخوف من الحسن بن أحمد الأعصم (٣) ، فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إليه كتاباً يعرفه فيه أن المذهب واحد وأنهم منهم استمدوا وأنهم سادتهم في هذا الأمر (٤) ، وبهم وصلوا إلى هذه

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٥١٠ ، سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .
(٢) أخبار القرامطة ، ص ٥١٠ ، سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٥١١ ، سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥١٠

المرتبة ، ويعظه ويبالغ في تهديده في كلام مسهب محشو بأنواع الكفر والضلالات ، بدأه بقوله : من عبد الله وليه وخيرته وصفيه « معد أبي تميم بن إسماعيل » المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ونجل علي أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد ، ولما قرأه الأعصم سخر منه وأجابه بكتاب موجز نصه (وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على إثره والسلام) ، ولعل المعز أراد بذلك الكتاب أن يعرف ما في نفس الأعصم وعما إذا كان قد هابه بعد أن وصل إلى مصر أم لا ، وفي ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ ، كثر إنتشار القرامطة في أعمال الشام ووصلت طلائع جيوشهم إلى أرياف مصر (١) ، وأطراف المحلة وذلك في العشرين من جماد الآخر ، ووصلت سرية منهم إلى أطراف الجوف في الأول من رجب وبعث الأعصم عبد الله بن عبيد الله أخا الشريف مسلم إلى الصعيد فنزل في نواحي أسيوط وأخميم وجبى الأموال وحارب أتباع المعز .

المجابهة بين الأعصم والمعز :

نزل الأعصم بلبيس (٢) ، فاستعد المعز لمقاومته وأرسل أكثر من أربعة آلاف مقاتل برئاسة ريان الصقلبي لتتبع القرامطة في الوجه البحري لمصر ، فالتقى بهم في المحلة فقتل بعض الرجال وأسر آخرين فأشعل القرامطة نار الحرب في كافة الأراضي المصرية ، فأعد المعز جيشاً جراراً سيّره بقيادة ابنه عبد الله للقضاء على القرامطة فنزل بعسكره في بركة الحاج وكان النعمان أخو الأعصم قد نزل مع عدد من أتباعه إزاءه ، كما عسكر الأعصم بسطح البركة ، والتحم الجميع في قتال بالغ الضراوة (٣) ، وكان المعز قد هالته جموع القرامطة وأهمه أمرهم واحتار كثيراً فيما عسى أن يتخذ ضدهم من الإجراءات ، فاستشار بعض خاصته فأشاروا عليه بالعمل على تفكيك جموعهم وتفريق كلمتهم باستمالة ابن الجراح الطائي (٤) ، الذي كان يقاتل إلى جانب القرامطة وإغرائه بالتخلي عنهم ، فبادر المعز إلى الاتصال بابن الجراح وعرض عليه

---

(١) أخبار القرامطة ، سهيل زكار ، (الكتاب ـ المقفي الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها) ، ص ٤٠٣ ، الناشر دار حسان .

(٢) تحفة المستفيد ، ص ٩٥ ، محمد آل عبد القادر .

(٣) تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع ، ص ٥٠ ، ٥١ عبد الرحمن بن خلدون .

(٤) أخبار القرامطة ، ص ٥١٤ سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .

ذلك الأمر وأغراه بالأموال الطائلة فوافق ابن الجراح على هذا العرض نظير إعطائه مائة ألف دينار من الذهب فجرى الاتفاق على ذلك ولكن المعز استكثر المال فأرسل إليه دنانير مغشوشة وحين إشتد أوار المعركة بين الطرفين إنسل ابن الجراح بمن معه من الرجال متظاهراً بالهزيمة فتبعته جموع العرب ، ولما رأى الأعصم ابن الجراح منهزماً إحتار في أمره ولكنه ثبت للقتال بعسكره ، ولما تكاثرت جموع خصومه وأحاطت به وتابعت عليه الحملات من كل جانب لحقه الكد والإرهاق فتراجع منهزماً ، ووقع في الأسر زهاء ألف وخمسمائة من جنده فتم ضرب أعناقهم ، ولم يقتحم العبيديون عسكر القرامطة طيلة ثلاثة أيام خوفاً من أن يكون في إنسحابه خداعاً لهم ومكيدة ، ثم جهز المعز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل ، وسيّره بقيادة أبي محمود بن إبراهيم بن جعفر للحاق بعسكر القرامطة واستئصال شأفتهم ، ولكنه لم يظفر بأحد منهم ، لأنهم وصلوا إلى أذرعات [1] ، قبل أن يتمكن من اللحاق بهم ، ومن ثم غادروا أذرعات إلى بلادهم ، وتشير رواية أخرى إلى أن إنسحاب الأعصم من مصر جاء نتيجة تسوية سلمية استرضى فيها المعز الأعصم بمبلغ من المال بعد أن جرت بين الطرفين مناوشات أجبرت المعز على التراجع إلى مدينة القاهرة والإعتصام بها ، وحين رجع القرامطة إلى الشام ألقوا عصا التسيار بالرملة فحاصروا يافا ، فأرسل جوهر الميرة والمقاتلين لإسعاف المحاصرين في يافا من أتباعه بواسطة خمسة عشر مركباً ، فتصدت لها القرامطة وأسرت منها ثلاثة عشر مركباً ، أما الباقي من المراكب فقد وقع في قبضة الروم [2] ، حينذاك نظم الأعصم قصيدة يتهدد فيها المعز وأتباعه جاء فيها قوله :

زعمت رجال الغرب إني هبتُها   فدمى إذاً ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أروِ أرضك من دمٍ   يروي ثراكِ فلا سقاك النيل [3]

كما أنفذ الأعصم مستشاره أبا المنجا في عدد من العسكر إلى دمشق ، وكان ابن أبي المنجا قبل ذلك والياً عليها ، وكانت المغاربة العبيديون لما سمعوا بقصة ظالم وقبض الأعصم عليه لما جرى بينه وبين أبي المنجا راسلوه ليهاجم أبا المنجا من

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٥١٥ ، سهيل زكار .

(٢) تحفة المستفيد ، ص ٩٢ ، ٩٣ محمد آل عبد القادر .

(٣) أخبار القرامطة ، ص ٢٢٩ ، سهيل زكار .

الخلف ، فسار ظالم نحو دمشق ونزل جيش العبيدين أذرعات لمساندة ظالم ، وبلغ أبا المنجا مسير القوم إليه ، وكان في شرذمة يسيرة من الجند فخرج لقتالهم ، ولكن ظالم تمكن من إلحاق الهزيمة به فملك دمشق في يوم السبت أحد عشر من رمضان ٣٦٣ هـ وألقى القبض على أبي المنجا وولده وبعثا بهما إلى مصر ليحظى بالزلفى لدى المعز لدين الله العبيدي (١) ، فحبس في القاهرة بيد أن المعز لدين الله العبيدي رغب في إصلاح ذات البين بينه وبين قرامطة البحرين ، فأطلق من كان في أسره منهم ووصلهم وأكرمهم ، كما أطلق سراح أبي المنجا في الخامس من محرم ٣٦٤ هـ ، وأنعم عليه بالهبات السخية وكلفه بأن يبذل كل ما في وسعه في العمل على رأب الصدع الذي مُنيت به علاقة العبيدين برؤساء البحرين ، كما ضمن لهم أتاوة سنوية تُحمل إليهم (٢) ، وفي رواية أخرى أن المعز أفرج عن أبي المنجا بعد أن ورد عليه في هذا الشأن كتاب من الأعصم الذي سعى هو الآخر للعمل على تخفيف حدة التوتر بينه وبين المعز في إثر نشوب أزمة حادة بينه وبين العباسيين سببها أن عضد الدولة « فناخسرو » بن ركن الدولة علي بن بويه حين علم بفشل مساعي الأعصم في الاستيلاء على مصر ورجوعه إلى الشام خائباً رغب في الاستيلاء على الأحساء ، فأرسل لاحتلالها جيشاً جراراً وكان واليها من قبل الأعصم عمه أبو يعقوب يوسف فتصدى للمهاجمين ولكنه لاذ بالفرار من الأحساء لما وجد نفسه عاجزاً عن صد هجوم العباسيين عليها .

حينذاك بادر الأعصم في العودة إلى بلاده لمعالجة الوضع فجمع فلول المنهزمين وعمل بالتنسيق مع عمه أبي يعقوب على قتال العباسيين وإجلائهم عن البلاد ، فتم له ما أراد في إثر معركة طاحنة دارت رحاها بين الطرفين (٣) ، وقد أحس الأعصم بعد انتصاره في تلك المعركة بدماء الثقة تتدفق في شرايينه من جديد ، فأرسل إلى رجال العشائر يدعوهم للقدوم عليه والتكتل حوله فبادروا إلى ذلك (٤) ، وكأني بالعباسيين حين علموا بإخفاق الأعصم في تقليم أظافر العبيدين أيقنوا أن الشام ستقع لا محالة في قبضتهم ، وأن العباسيين سيجدون أنفسهم حينذاك محصورين بين العبيدين في الشمال والقرامطة في الجنوب وأنه متى تحسنت العلاقة بين هاتين القوتين ستصبح الخلافة العباسية بلا شك لقمة سائغة لهما .

(١) أخبار القرامطة ، ص ٥١٥ ، سهيل زكار .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .
(٣) أخبار القرامطة ، ص ٤٠٥ ، سهيل زكار ، الناشر دار حسان .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

لذا رأى عضد الدولة السالف الذكر أن يمنع هذا الخطر الداهم بالقضاء على إحدى هاتين القوتين ، فاستغل فرصة ضعف القرامطة في هذه الفترة ، وسعى للإطاحة بهم والقضاء عليهم في عقر دارهم ، ولكن مساعيه لم تكلل بالنجاح فذهبت أدراج الرياح .

عودة الأعصم إلى الشام من جديد ووفاته هناك :

كان أهل دمشق قد ولّوا عليهم رجلا من أصل تركي يُدعى البتكين الشرابي وقد أحسن فيهم السيرة فأحبوه (١) ، وكان في بداية أمره يكاتب المعز ويهادنه ، ولما مات المعز سنة ٣٦٥ هـ ، كاتبه العزيز ودعاه للقدوم عليه والانضواء تحت نفوذه ولكن البتكين رفض ذلك ، وعبر عن تمسكه باستقلال بلاده فغضب العزيز من جوابه ، وسيّر جيشاً لقتاله بقيادة جوهر الصقلي ، وبلغ البتكين ذلك فجمع وجوه الدماشقة وتشاور معهم فيما ينبغي اتخاذه إزاء تهديد الحاكم العبيدي له ، فأشاروا عليه بضرورة الدفاع عن البلاد ، واستعدادهم للتضحية في سبيل ذلك إنطلاقاً من اختلافهم مع العبيدين في العقيدة والمذهب ونتيجة لما نالوه على أيدي عمالهم من سوء المعاملة أثناء خضوع الشام لسيطرتهم ، وحين اقترب جوهر من دمشق خرج إليه البتكين في أصحابه ومن معه من العرب ودارت بينهم مناوشات على مدى شهرين ثم أشار أهل دمشق على البتكين في مكاتبة الحسن بن أحمد الأعصم ففعل وقد أجابه الأعصم إلى ما طلب فأعد جيشاً سيّره إلى الشام لنجدة أهلها فيه من أبناء عمه إسحق وكسرى وجعفر وذلك في سنة ٣٦٥ هـ ، فنزلوا ظاهر دمشق نحو الشماسية ، ولقي البتكين القرامطة (٢) ، فأنعم عليهم بالأموال وأكرمهم وفرح بهم وأمل ؛ فمكثوا بدمشق أياماً ثم ساروا قاصدين الرملة ، ففر منها عامل العبيدين أبو محمود بن إبراهيم بن جعفر واعتصم بيافا ، ونشب القتال ضارياً بينه وبين القرامطة حتى كلَّ الفريقان وقد اتخذ القرامطة من يافا مقراً لإقامتهم وشرعوا في جباية الأموال ، وبعد مدة غادر إسحق وكسرى القرمطيان الشام متوجهين إلى بلادهم ، وانضم جعفر بمن معه إلى البتكين في طبرية وقد نزل جوهر بالرملة بعد أن فارقها القرامطة ، وسار في إثر البتكين وجعفر إلى دمشق ، ونزل بالشماشية في ظاهرها ودارت بين الفريقين مناوشات ، واستمروا على هذا الحال إلى جمادى الأولى ٣٦٦ هـ ، وفي هذه الأثناء وردت البشارة على جعفر بأن

---

(١) و (٢) أخبار القرامطة ، ص ٢٤١ ، سهيل زكار ، الناشر دار الكوثر .

ابن عمه الحسن بن أحمد الأعصم في الطريق إلى دمشق ، ولما صح الخبر بذلك عند جوهر سار نحو طبرية وجدّ في السير وكان قد هلك من عسكره خلق كثير فخاف أن يدركه الحسن بن أحمد (١) فأسرع بالخروج من طبرية ، وخرج الحسن بن أحمد من البرّية يريد جوهر في طبرية فوجده قد سار عنها ، فأنفذ خلفه سرية فلحقته فرجع إليها أصحاب جوهر فقتلوا جماعة من العرب ، وسار جوهر حتى نزل ظاهر الرملة وجاءه الخبر بوصول الحسن إليه فدخل زيتون الرملة وتحصن به وسار البتكين من دمشق في إثر الحسن بن أحمد فلحق به ، وهناك أدركت الحسن بن أحمد الوفاة فمات في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب ٣٦٦ هـ في الرملة وتولى أمر القرامطة بعده ابن عمه جعفر ، فتكاتف مع البتكين على محاربة جوهر وانضم إليهما من العرب زهاء خمسين ألف مقاتل فدارت بينهم وبين جوهر معركة حامية الوطيس على مقربة من الرملة فقطعت المياه عن جوهر فأصاب جنوده من جراء ذلك عطش شديد فسار بهم جوهر إلى عسقلان فاعتصموا بها فهب البتكين وجعفر لتطويقه بالحصار فأوشك ما بها من الميرة على النفاذ وغلت الأسعار ، وكان الوقت شتاءً فلم يكن بالإمكان إسعاف المحاصرين بالأغذية عن طريق البحر فبلغ الضيق بهم منتهاه فأكلوا الموتى ، وكان جوهر يخرج أحياناً فيقاتل ويحاول إقناع البتكين بالعدول عن القتال والدخول في الطاعة بشتى الإغراءات ، ويهم البتكين بقبول تلك العروض ولكن جعفر يمنعه عن ذلك ويحذره من جوهر ، واحتال القائد العبيدي في الخلاص من هذا المأزق فراسل البتكين (٢) ، وسأله القُرب منه فأجابه وتقابلا سراً فقال جوهر : « قد علمت ما يجمعني وإياك من عصمة الإسلام وحرمة الدين وهذه فتنة قد طالت وأريقت فيها دماء نحن المؤاخذون بها عند الله ، وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة وضمنت لك ما أردت فأبيت » ، فقال البتكين : معي في الرأي القرمطي وبيني وبينه أيمان ، فقال جوهر : إذا كان الأمر كذا فأنا ألتمس منك أن تأذن لي بالخروج من عسقلان إلى مصر بمن معي ونسير تحت ذمامك وسوف ترى ما أفعل ، فأجابه مشترطاً أن يعلق سيفه على باب عسقلان وكذلك رمح القرمطي ويخرج جوهر من تحتهما ، فقال جوهر : جزاك الله خيراً قد تفضلت وأحسنت لآخذن به ، وعاد البكتين إلى جعفر وأخبره فاستاء جعفر من ذلك وعنف البكتين ونصحه بالعدول عن الاتفاق وأخبره بأن في ذلك خديعة لأن جوهر

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٢٤١ ، سهيل زكار . (٢) أخبار القرامطة ، ص ٢٤٢ ، سهيل زكار .

صاحب مكر فقال البكتين : قد كان ما كان وحلفت له وما أغدر به ، وأصبح جوهر وأصحابه فخرجوا من تحت سيف البكتين ورمح القرمطي وساروا إلى مصر واجتمع جوهر بالعزيز وشرح له الحال وقال له العزيز ما الرأي ؟ فقال : أن تخرج بنفسك وإلا فإنهم واردون على إثري ، فسار العزيز على رأس جيش إلى الشام وبعد معارك طاحنة بينه وبين البكتين والقرامطة نجح العزيز من إنزال الهزيمة بخصومه واصطحب البكتين معه إلى مصر ، وحاول استمالة رئيس القرامطة إليه فأبى ذلك وسار إلى بلده الأحساء مصطحباً معه جثمان الأعصم لدفنه هناك (١) .

---

(١) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي ، ولد في رمضان سنة مائتين وثمانية وسبعين هجرية بالأحساء ، تولى قيادة الجيوش أثناء حكم أبيه وتولى الحكم بعد وفاته سنة ٣٥٩ هـ ، احتل الشام أكثر من مرة ، ودخل مع العبيدين في حروب كثيرة بمصر والشام حتى استرضوه بالرسوم والأتاوات فكف عن قتالهم وتوفى بالرملة في يوم الأربعاء من شهر رجب سنة ٣٦٦ هـ ، ودفن بالأحساء ، كان شجاعاً فصيحاً ينظم الشعر ويحب الأدب يصطحب معه الكتب حتى في المعارك والحروب ، وكان قصير القامة ويرتدي الثياب القصيرة كغيره من أبناء قومه ، وقد قال فيمن سخر من قصره :

زعموا أنني قصير لعمري ... ما تقاس الرجال بالقفزان
إنما المرء باللسان والقلب ... وهذا قلبي وهذا لساني

قال حسين بن عثمان الحرمي الحنبلي : كنت بالرملة سنة ٣٦٦ هـ فوردها أبو علي الحسن القرمطي القصير الثياب ويلقب بالأعصم فاستدعاني فحضرت عنده ليلة ، وأحضر الفراشون الشموع فقال لكاتبه أبي نصر بن كشاجم : يأبا نصر ما يحضرك في صفة هذه الشموع فقال : إن من يحضر مجلس الأمير يستفيد منه ، فقال القرمطي : بديها :

ومجدولة مثل صدر الفتاة ... تعرت وباطنها مكتسي
لها مقلة هي روح لها ... وتاج على هيئة البرنسِ
إذا غازلتها الصبا ... حركت لسانا من الذهب الأملسِ
وإن رنقت لنعاس عرا ... رقطت من الرأس لم تنعسِ
وتنتج في وقت تلقيحها ... ضياءً يجلي دجى الحُندسِ
فنحن من النور في أسعد ... وتلك من النار في أنحسِ

فقام ابن كشاجم فقبل الأرض بين يديه وسأله أن يأذن له في إجارتها فأذن له فقال :

وليلتنا هذه ليلة ... تشاكل أشكال أقليدسِ
فيا ربة العود حُثي الغناء ... ويا حامل الكأس لا تحبسِ

فخلع عليه وعلى الحاضرين ووصلهم بصلات . =

الحركة القرمطية في ظل أحفاد أبي سعيد الجنابي :

لقد كانت حروب القرامطة في الشام سنة ٣٦٦ هـ ، نهاية الفصول في مسلسل الرعب الذي سطره هؤلاء في سجل الحروب والمعارك التي دارت رحاها في الأراضي الممتدة من سواحل البحر الأخضر (الخليج العربي) حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وإن قدرة الدولة العبيدية الفاطمية على إثبات وجودها في مصر والشام وظهورها كقوة منافسة للدولة العباسية وعجز كل من هاتين الدولتين عن إحراز نصر حاسم على الدولة الأخرى وإدراك الدولة الجنابية القرمطية أهمية الوقوف على الحياد بينهما وعدم الإنحياز لأي منهما ومحاولة الإستفادة من الطرفين جراء اتخاذها هذا الموقف ، هذه الأمور مجتمعة فيما أرى أسباب أجبرت جميع الأطراف على محاولة تخفيف حدة التوتر فيما بينها ، كما حملت قرامطة البحرين على قبول المبالغ المالية التي إلتزم بحملها إليهم كل من العبيدين في مصر والعباسيين في بغداد ، وقبول الإقطاعات الواسعة التي اقتطعها لهم العباسيون من الأراضي العراقية وعدم الحد من نشاط دعاتهم في هذه المناطق والسماح بوجود ممثلين لهم فيها نظير إنهاء أعمالهم العسكرية ضد العبيدين والعباسيين على السواء ، وظلت الأحوال تسير في هذا السياق إلى سنة ٣٧٥ هـ ، حينذاك كان نشاط ممثل القرامطة في بغداد أبي بكر بن شهاويه قد تجاوز الحد المعقول (١) حيث أصبح من أعتى مراكز القوى التي صارت تتحكم دون

= ومن شعره أيضاً :

يا ساكنا البلد المنيف تعززاً … بقلاعه وحصونه وكهوفه
لا عز إلا للعزيز بنفسه … وبخيله وبرجله وسيوفه
وبقبة بيضاء قد ضُربت إلى … جنب الخيام لجاره وحليفه
قرم إذا اشتد الوغى أردى العدا … وشفى النفوس بضربه ووقوفه
لم يرض بالشرف التليد لنفسه … حتى أشاد تليده بطريفه

وقال حين أدرك ضعفه أثناء مرض موته وقد ارتعش القلم بيده أثناء الكتابة :

ولو أني ملكت زمام أمري … لما قصرت في طلب النجاح
ولكني ملكت فصار حالي … كحال البُدن في يوم الأضاحي
يقدن إلى الردى فيطعن كرها … ولو يسطعن طرن مع الرياحِ

ومن شعره أيضاً :

وقدٍ كغصن الورد يجنى بأعين … وقد عز حتى أنه ليس يقطف
وعطفة صدغ لو تعلّم عطفها … لكانت على عشاقها تتعطف

ـ تاريخ ابن عساكر ، جـ ٤ ، ص ١٤٨

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ١٢٦ ، ابن الأثير .

تحفظ في شئون الخلافة ، الأمر الذي دفع صمصام الدولة بن بويه بالقبض عليه وإيداعه السجن في محاولة لوضع حد لنشاطه المتزايد ، ولكن هذا الإجراء أزعج السلطات في البحرين فأعدت جيشاً سيرته إلى العراق بقيادة عضوي مجلس السيادة إسحق وجعفر ، ولما وصلا إلى الكوفة وبثا أصحابهما في جباية الخراج ، كتب إليهما صمصام الدولة بن بويه بدافع الهيبة والخوف كتاباً رقيقاً يستفسر فيه منهما عن سبب مجيئهما للعراق فردا عليه بخطاب شديد اللهجة عرفاه فيه أن سبب مجيئهما يكمن في إعتقاله لسفير القرامطة أبي بكر بن شهاويه (١) وذلك سنة ٣٧٥ هـ ، ومن الكوفة سيّر هؤلاء كتيبة بقيادة أبي قيس الحسن بن المنذر ولما وصلت الكتيبة إلى الجامعين تصدى لهم صمصام الدولة بجيش جرار من العرب والأتراك والديلم ، يقوده إبراهيم بن مرح العقيلي ، وأبو القاسم بن زعفران ، وأبو الفضل المظفر ، فدارت بين الفريقين معركة بالغة العنف ، واستطاع إبراهيم اختراق الكتيبة القرمطية فهزمها وأسر قائدها أبا قيس وبعض القادة ، حينئذٍ لم ير القرامطة مندوحة غير العودة من الكوفة إلى بلادهم حيث جهزوا جيشاً آخر زحف على العراق فتصدت لقتاله عساكر صمصام الدولة في الجامعين أيضاً ، وبعد قتال ضار حاقت الهزيمة بالقرامطة فقتل قائدهم ووقع عدد منهم في الأسر فساروا إلى الكوفة ، وبعد أيام قليلة أقفلوا عائدين إلى البحرين (٢) مجللين بعار الهزيمة التي أدخلت دولتهم في مرحلة التلاشي والانحطاط حتى أفل نجمها تماماً من آخر معاقلها في الأحساء على يد العيونيين سنة ٤٦٦ هـ .

حاضرة القرامطة وسير الحياة في أيامهم :

أ ـ مدينة الأحساء :

اتخذ القرامطة من مدينة الأحساء حاضرة لملكتهم التي شغل نفوذها معظم أراضي الجزيرة العربية ، وكانت في الأصل موضعاً تسكنه جماعة من بني سعد التميميين وقد عُرفت بإضافتها إليهم حيث قيل : أحساء بني سعد ، ولما استولى القرامطة عليها وسكنوا بها انتقلت الإضافة إليهم فصارت تعرف باسم أحساء القرامطة ، وبمرور الأيام حُذف لفظ القرامطة واقتصر على لفظ الأحساء مُحلى بالألف

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٧ ، ص ١٢٦ ، ابن الأثير .   (٢) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ص ١٣٧ ، و١٣٨ .

واللام تخفيفاً ، وكان سبب إضافة الأحساء لمن يسكنها عادةً وجود أكثر من موضع في المنطقة يحمل هذا الاسم كأحساء خرشاف وأحساء البياض ، وقد اتسع مدلول الاسم فيما بعد فشمل المدينة والواحة حولها ثم الإقليم عامة ، ومدينة الأحساء هذه تقع في الشمال الشرقي من مدينة الهفوف في موقع الحقول الكائنة في جنوب شرقي المبرز [1] ، فهي تشمل كامل قرية البطالية وما حولها من بساتين النخيل ، فعلى بعد ميلين من ناحية الشرق لمدينة الأحساء كانت تقع مدينة هجر العاصمة السابقة للإقليم المعروف باسمها أيضاً ، وكان امتناع مدينة هجر المذكورة على القرامطة ، والظروف التي رافقت محاولة فتحها السبب الأساسي في نشأة مدينة الأحساء وتطورها وجعلها عاصمة مُلك هؤلاء القوم ، فقد مرّ بك أن أبا سعيد بن بهرام الجنابي ظل مقيماً بجوار مدينة هجر لحصارها وإلتماس الوسائل لإخضاعها على مدى عامين كاملين وأنه ابتنى أثناء ذلك بعض الدور له ولحاشيته في موضع الأحساء وذلك في سنة ٢٨٧ هـ ، وقد كانت تلك الدور النواة الأولى لظهور هذه المدينة إلى حيز الوجود ، وفي سنة ٣١٤ هـ ، أمر أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي بتعمير الأحساء وتحصينها وأطلق عليها اسم المأمونية ، وقد تم بناؤها على أحسن طراز وأحاطوها بأربعة أسوار منيعة متحدة المركز يبلغ طول كل واحد منها خمسة أكيال وبداخل السياج المحصن تنتشر البساتين وحدائق النخيل وعيون المياه الجارية كعين الجوهرية ، وفي وسط المروج الخضراء مدينة فاخرة تمتلك جميع نعيم ومظاهر المدن العظمى [2] ، كالمساكن الأنيقة والمؤسسات الرسمية والمرافق العامة والأسواق الرائجة المائجة بجميع أنواع البضائع والسلع ، وكذلك المعامل والمصانع والثكنات العسكرية ، وبها يوجد قصر فاخر يشغل مساحة مائة متر في مثلها تقريباً ، وقد كانت آثاره بادية للعيان إلى عهد قريب [3] ، وقد ظلت هذه المدينة حاضرة الإقليم ومقر ديوان الحكم وأجهزة الدولة طيلة أيام القرامطة والسنوات الأولى من حكم العيونيين ، ومن ثم أخذ الضعف يدب في أوصالها حيث صارت تفقد أهميتها تدريجياً ، وحين أصبح المتغلبون على حكم البلاد من الأعراب الذين يفضلون الإقامة بجوار مضارب عشائرهم على الإقامة داخل مدن مسورة ، فقد توارت معظم أجزائها عن الوجود ولم يتبق منها سوى قرية البطالية

(١) المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية ، جـ ١ ، ص ١٢١ ، الشيخ حمد الجاسر .
(٢) الخليج العربي ، ص ١٦٢ ، السير ويلسون ، نقلاً عن رحلة ناصر وخسرو .
(٣) المعجم الجغرافي للمنطفة الشرقية ، جـ ١ ، مادة أحساء الشيخ حمد الجاسر .

المعروفة في هذه الجهات ، وكان يطلق عليها الأهالي إلى عهد قريب اسم البلاد ، ويوجد بها من معالم مدينة الأحساء الغابرة مسجد يسميه أهل القرية بالمسجد الجامع ويعرف باسم مسجد قريمط لقربه من موضع القصر المنسوب إلى القرامطة ، وتبلغ مساحة هذا الجامع ستة وأربعين متر طولاً وخمس وأربعين ونصف متر عرضاً ، وفي الناحية الغربية هناك بقايا رواقين لا تزال أساطينها قائمة ، وشكل بناء تلك الأساطين متفاوت مما يدل على أن بناءها لم يكن في وقت واحد .

ب ـ سير الحياة فى أيام القرامطة :

كان نمط الحياة في ظل السيطرة القرمطية يسير بصورة متناهية التنظيم والنشاط ، فقد كانت إدارة شئون البلاد تتم بقيادة جماعية تعتمد تبادل الرأي أساساً لممارسة سلطاتها ، يقول الرحالة الفارسي « ناصري خسرو[1] » بهذا الصدد وقد زار الأحساء سنة ١٠٥١ م (وكان من وصية أبي سعيد لأولاده أن يتولى منهم السلطة ستة على الدوام والاستمرار وأن يحكموا بالعدل والمساواة ، وأن يظلوا متحدين ، وأن أحفاد أبي سعيد ما زالوا إلى سنة ١٠٥١ م يحتلون قصراً واسعاً وهو مقر الحكومة ، وفي القصر منصة يجلس عليها هؤلاء الأشخاص الستة الجلسات الرسمية حيث يصدرون الأوامر ويشرعون القوانين بعد أن يتم الإتفاق فيما بينهم ويساعدهم في هذا ستة وزراء يجلسون خلفهم على منصة أخرى ، ويحمل الأمراء لقب « سيد » والوزراء لقب « شيرة » (مستشار) وكل الأمور يتخذون في شأنها القرارات بالمشورة ، وحينما يستقبل أحد الأمراء الناس فإن الذين يخاطبونه يسمعون منه إجابات كلها رقة وتواضع) ، ولديهم جيش قوي يقطن منه في مدينة الأحساء ما يربو على عشرين ألف محارب ، وبيد السلطة الحاكمة وحدها تتركز ملكية موارد البلاد ومصادر الدخل ووسائل الإنتاج فيها ، وقد استهدفت هذه الحركة في بداية نشأتها سواءً في سواد الكوفة أو البحرين والأراضي التابعة لها القضاء التام على الملكية الفردية وجعل جميع الموارد والإنفاق في قبضة القيادة العليا لها .

فقد رأينا حمدان بن الأشعث يستولى على أموال أتباعه بالضرائب المتدرجة أولاً ثم الاستحواذ التام على كل ما يملكون ويتكسبون ، وقد أقام من الدعاة في كل قرية رجلاً

---

(١) الخليج العربي ، ص ١٦٣ ، السير ويلسون .

مختاراً من ثقاتها يجمع عنده أموال قريته ، حتى سلمت له المرأة كسبها من مغزلها والصبي أجرة نظارته لثمار البساتين والغلال حيث لم يعد بحوزة أحدهم سوى سيفه وسلاحه ، وكان حمدان يكسو عاريهم وينفق على سائرهم ما يكفيهم ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ، وأخذ كل رجل منهم في التفاني بعمله لمضاعفة الكسب ليكن له الفضل في رتبته بين أفراد الجماعة (١) ، وبالشيء نفسه قام أبو سعيد الحسن ابن بهرام الجنابي في شرق الجزيرة حين تمكن من بسط سيطرته عليها ، فقد وضع الشئون المالية لجماعته بين يديه ، وتولى إنفاقها عليهم بحيث لا يصل لأحدهم شيء غير ما يرسم له ، فقبض على ثمار البلد والمال وأصلح الزراعة وأحدث الإنشاءات وأنفق على أفراد الرعية وسخرهم لخدمة الأمة ، وعين لكل طائفة منهم العمل الذي يناسب قدراتها ومهاراتها ، ونصب الأمناء على الحقول ، وأقام العُرفاء على سائر المهن وأجهزة الإنفاق ، حتى أن الشاة كانت تذبح فيسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم له ، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ويُجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله ثم يدفع به إلى من ينسجه عبياً وأكسية وغرائر وجوالقات ثم تفتل منه حبال ، ويسلم الجلد إلى الدباغ فإذا خرج من الدباغة سُلم إلى الخرازين ليصنعوا منه القرب والروايا والأحذية ، ثم يجمع كل ذلك ليحفظ في خزائن الدولة ، ويفرق على من يرسم له ، كان ذلك دأب أبي سعيد لا يغفل عنه ولا يتوانى (٢) ، ولكن الحال في عهد أولاد أبي سعيد وأحفاده لم يظل في هذا المستوى من السيطرة على مصادر الدخل والإنفاق ، فقد اكتفت السلطة الحاكمة آنذاك بالهيمنة على المصادر الرئيسية للدخل والإنتاج ، كالمزارع الواسعة والمصانع الكبرى وعوائد الإيراد والتصدير والتجارة الخارجية (٣) ، فهي تطلع بمهام إدارة هذه الأمور وتتولى صرف عائداتها على إنشاء وإدارة المرافق والخدمات وأفراد المجتمع بصورة عادلة تهيئ لكل فرد قادر على العمل فرصة التكسب من المهنة التي يجيدها ، كما توفر لغير القادرين ما يكفيهم من لوازم العيش وإذا افتقر أحد أفراد المجتمع أو استدان تمت إعانته ليستعيد وضعه ، ولم تعد الملكية الفردية الخاصة محظورة على أحد ، ولكن التدابير الاقتصادية والأساليب المتبعة في التعامل تجعل تضخم الثروات في يد الأفراد أمراً متعذراً

---

(١) أخبار القرامطة ، ص ٤٣٤ ، سهيل زكار . (٢) إتعاظ الحنفاء ، ص ٢٢٠ ، المقريزي .

(٣) الخليج العربي ، ص ١٦٣ : ص ١٦٩ ، السير ويلسون .

فالمعاملات الربوية ممنوعة وإذا استدان أحد فليس للدائن سوى رأس ماله فحسب ، كما أن النقود المتداولة في التبادل التجاري بين الناس قد اتخذت من الرصاص وجُعلت قيمتها النقدية في أدنى مستوى من الانخفاض بحيث يحتاج المشتري لأي سلعة من السلع أن يدفع للبائع عدد من السلال المليئة من ذلك الرصاص ، واتخاذ العملة من هذا المعدن وبهذه القيمة المنخفضة تجعل كنز هذه النقود أو تهريبها من الصعوبة بمكان ، وبالتالي تحد من تضخم المال في يد الأفراد ، كما تحول دون تسرب الثروة العامة إلى خارج البلاد (١) .

وكانت الموارد المالية للدولة تتألف من عائدات تصدير المنتجات الزراعية والصناعية الزائدة عن الحاجة كالتمور والحبوب والقراطيس والأقمشة ، ومن الرسوم المفروضة على صيد اللؤلؤ في الخليج حيث تأخذ الحكومة نصف محصول الموسم في كل عام وكذلك من الرسوم المقررة على الملاحة والتجارة الأجنبية المارة عبر مياه الخليج ، علاوة على الأتاوات التي تُحمل إلى القرامطة من ملوك مصر والشام والعراق لقاء قيام هؤلاء بخفارة القوافل التي تجتاز المناطق الخاضعة لنفوذهم ، وقد بلغت الميزانية السنوية للبلاد على ما يذكر ابن حوقل بليون دينار ، وكانت تنمية الموارد المالية دائماً من أكبر اهتماماتهم ، فكانت لهم عناية خاصة بالأعمال المهنية والصناعية والشئون الزراعية وأحوال الري ، فقد أسسوا عدداً من المصانع للأغراض المدنية والعسكرية وعملوا على تشجيع المهارات والمعامل الخاصة فكانوا إذا أسروا قافلة أو عسكر ووجدوا فيهم من يتقن بعض الحرف أو المهن حملوه إلى البلاد ورغبوه في الإقامة بها وكل غريب ينزل المدينة وله صناعة يقرض من المال ما يكفي لشراء الآلات والمعدات اللازمة لصناعته على أن يرد ذلك المال إذا استقرت أحواله (٢) ، وليس ثمة ضرائب ولا عشور على الأفراد ، وإذا خرب بيت أو مطحنة ولم يكن للمالك قدرة على إصلاح ذلك الخلل تقوم أجهزة حكومية متخصصة بإصلاحه له دون مقابل كما تستثمر الأراضي الزراعية بصورة جيدة يتم التركيز فيها على إنتاج التمور والحبوب على إختلاف أنواعها ، وقد أعدوا للنهوض بهذه المهمة ما يربو على ثلاثين ألفاً من الرقيق الزنوج ذوي المهارات في الشئون الزراعية والفلاحية ، كما أوجدوا للري الزراعي شبكة تجعل التحكم في الري

(١) الخليج العربي من ص ١٦٣ : ١٦٩ ، السير ويلسون .
(٢) الخليج العربي من ص ١٦٣ : ١٦٩ ، السير ويلسون .

بالمياه والانتفاع بكل قطرة منها أمراً في غاية الدقة والسهولة واليسر ، كما أقاموا على الأنهار المتدفقة من عيون المياه المنتشرة في البلاد عدة طواحين تشرف الأجهزة الرسمية على إدارة شئونها ومن مهامها طحن الحبوب للناس مجاناً (١) ، كما أوجدوا بعض المدارس التي يتلقى فيها أبناء المنتمين لدعوتهم ومن يقع في أسرهم من الصبيان أصول هذه الدعوة ومبادئها إلى جانب بعض العلوم الأساسية كالقراءة والكتابة وغيرها .

ولهم بتعليم الفروسية وفنون الحرب اهتماماً كبيراً ، فكانوا يدربون الصبيان والشباب على ركوب الخيل والطعان واستعمال السلاح بالإشراف المباشر من شيوخهم ، فكان من رسومهم كما يقول ابن حوقل : « ركوب مشائخهم وأولادهم فرادى فيجتمعون إلى قبلة الأحساء في المكان المعروف بالجرعاء ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم وينصرفون أفذاذاً (٢) في غاية التواضع وقد لبسوا البياض لا غير » .

أما الشئون الدينية ومؤسساتها كالمساجد وحلقات الذكر والوعظ فلم يكن لها في حياة هؤلاء نصيب ، فليس الدين عندهم مصدر التشريعات والنظم ، وقد بذلوا كل ما في وسعهم لإماتة الشعائر الإسلامية فأزالوا المساجد وحظروا حلقات العلوم الدينية التي كانت تعج بها البلاد قبل سيطرتهم عليها (٣) ، والمسجد الوحيد الذي تم تأسيسه في عهدهم أقامه رجل أعجمي كان يشتغل بنقل الحجيج إلى مكة (٤) ، وصفوة القول أن هذه الحركة قد استطاعت أن تترجم بالدعوة المنظمة وقوة السلاح والبطش ما كانت تنادي به من العقائد والآراء إلى واقع عملي ملموس تمثل في قيام مجتمع اشتراكي علماني استمد مقومات بنائه من الآراء الفلسفية والنظريات الاشتراكية التي عالجتها الفلسفة اليونانية في مثل جمهورية أفلاطون وكذلك النظريات التي حاولت تطبيقها بعض الحركات كالحركة المزدكية في فارس وفي غيرها من البلاد دون أن تنجح في الوقوف على قدميها والصمود أمام الثوابت الدينية والنظم الاقتصادية والاجتماعية التي رافقت المجتمع البشري في مراحل نموه عبر الأجيال .

---

(١) الخليج العربي من ص ١٦٣ : ١٦٩ ، السير ويلسون .

(٢) معجم المنطقة الشرقية ، جـ ١ ، مادة جرعاء ، الشيخ حمد الجاسر .

(٣) تاريخ هجر ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ ، و١٤٦ ، ط ٢ .

(٤) الخليج العربي ، من ص ١٦٢ : ١٦٩ ، السير ويلسون .

زوال الحركة القرمطية ودور أبناء شرق الجزيرة في القضاء عليها ومحو آثارها :

لم يكن دور أبناء شرق الجزيرة العربية في القضاء على الحركة القرمطية مع ما كان لها من القوة وسعة النفوذ أمراً بسيطاً أو عادياً .

ولو أن بطولاتهم في هذا المضمار حدثت في إحدى الحواضر الإسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة لتبارت الأقلام في إبراز تلك البطولات ، ولكانت محوراً للعديد من الأعمال الفنية الرائعة ، أما أحداث أقاليم الجزيرة العربية فبالرغم من خطورة بعضها فإن مكانها في مدافن النسيان والإهمال أعمق مكان ، وليس أدل على ذلك من هذه القضية التي نحاول إلقاء شيء من الضوء على خطواتها لما لذلك من أهمية بالغة لا بالنسبة لتاريخ هذه المنطقة فحسب بل لتاريخ الإسلام عامة ، لقد أزالت هذه الحركة بقهر السلاح والإرهاب عدة إمارات و ممالك في شرق الجزيرة العربية ووسطها ، واتخذت من الحجاز والعراق ومصر والشام مسرحاً لنشاطاتها العسكرية والإرهابية فقتلت الحجيج ودنست حرمة البيت الحرام ونهبت مدخراته واقتلعت منه الحجر الأسود واحتفظت به لديها زهاء اثنين وعشرين عاماً تاركة قصّاد البيت يدخلون أيديهم في موضعه لاغير حتى أعادوه بأنفسهم طوعاً واختياراً ، كل ذلك دون أن يستطيع المسلمون على كثرتهم وضع حد لتلك الجرائم الشنعاء والأعمال المنكرة حتى وصل استشراء النشاط الحربي لهؤلاء القوم حداً جعل الخليفة العباسي في بغداد والسلطان العبيدي في مصر على قناعة تامة بأن عروشهم ستصبح حلبة لسنابك خيول هؤلاء القوم إن لم يرضخوا لمطالبهم ، فاسترضوهم بالرسوم والأتاوات وأقطعوهم الإقطاعات وأفسحوا لدعاة حركتهم مجال ممارسة أنشطتهم في الدعوة وبسط النفوذ على أجهزة السلطة حتى في بغداد نفسها ، بل إن كُتاب الدولة ووجهاء المجتمع في هذه المدينة كانوا يتقربون إلى قلوب من يقع في أسر العباسيين من كبار القرامطة ناهيك عما يحظى به دعاتهم وممثليهم الرسميين من الحفاوة والتقدير .

أقول إن القضاء على هذه الحركة مع ما كان لها من الجبروت وقوة السلطان وما قامت به من أعمال إرهابية وعسكرية على مدى مائة وسبعين عاماً لم يكن بالأمر السهل أو اليسير ، وهو إنجاز استطاع تحقيقه بعد جهاد طويل أبناء شرق الجزيرة العربية وفي مقدمتهم عشائر عبد القيس .

إن جميع الروايات التاريخية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هؤلاء المجاهدين وقفوا بحزم وشجاعة نادرة أمام الهجمة الشرسة للقرامطة منذ أيامها الأولى ، وأن أبا سعيد قد ارتكب في سبيل الاستيلاء على مدن البحرين أعمالاً وحشية تقصر الأقلام عن تصوير مدى فظاعتها ، وجرائمه في الزارة والأحساء وهجر ووقائعه مع بني ضبة إلى غير ذلك مما أسلفنا ذكره في الفصول الماضية خير شاهد ودليل على ما ذهبنا إليه ، بل إن المقاومة لم تتوقف تماماً أو يخبو كامل أوارها حتى بعد سقوط تلك المدن في قبضة أبي سعيد ، فقد كان أدنى مراتبها المقاومة السلبية المتمثلة في عزوف عبد القيس وهم الغالبية والكثرة من سكان المنطقة عن المشاركة في خدمة النظام القرمطي أو دعم أنشطته بأي صورة من الصور .

فلم تشر المصادر إلى أي جماعة منهم أو رجل من أعيانهم كان له في ذلك النظام اسم أو مقام ، في الوقت الذي هبت فيه كثير من العشائر من خارج المنطقة للإنخراط في ركابهم ، حتى كانت يدهم التي يبطشون بها والدرع الذي يحمي صدورهم من نبال خصومهم ، وإن كان الجامع المشترك بين هذه العشائر والقرامطة مجرد النهب والسلب ومغانم الغزو دون العقيدة والمبدأ ، وإلى جانب هذه المقاومة السلبية تأتي المقاومة الفعلية حيث صمد بعض الأهالي في المنطقة ضد التيار القرمطي وظلوا محافظين على دينهم وعقيدتهم يلاقون في ذلك صنوف الإضطهاد والامتحان ، كما كانت تظهر بين الفينة والأخرى من بينهم بعض العناصر التي تحاول البروز والمقاومة وإن كان القضاء عليها يتم بسرعة وبأشد وسائل القمع والتنكيل .

يقول أحد قادة حركة المقاومة والتحرير أبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف الزجاج بهذا الصدد : (والمسلم بين أيديهم « القرامطة » يقاسي الامتحان والذل والاستهانة) ثم يقول : (وكلما رأى رأساً « يعني أبا سعيد القرمطي » ذا حال وجاها ومال يتوسم فيه إمارة الشهامة ويدل على سمته الصرامة والزعامة قتله ، وبالهلاك بادره وعاجله) (١) .

---

(١) وردت هذه العبارة في رسالة لابن الزجاج بعثها لأبي المنصور يوسف صاحب ديوان الخلافة يبشره بنجاحه في انتزاع جزيرة أوال من أيدي القرامطة ويلتمس منه المدد والمساعدة وسيرد المزيد من المعلومات عن هذه الرسالة فيما يأتي من الحديث .

كما عمد الفارون بدينهم من وجه أبي سعيد إلى ممارسة الجهاد بأساليب مختلفة فمنهم من ذهب إلى البصرة وانضم لأول حملة يوجهها الخليفة المعتضد بقيادة الغنوي لقمع أبي سعيد ، ومنهم من فر إلى الهند يمارس الدعوة إلى الله حسب طاقته واجتهاده ، ومنهم من يمم شطر السواحل الأفريقية ينشر الإسلام ويؤسس المدن مثل مدينة مقديشو التي أسسها كما تذكر المصادر ستة أخوه أحسائيين من بيت واحد (١) ، ومنهم من لجأ إلى جزيرة أوال وعكف على تنظيم الخلايا السرية للمقاومة وترسيخ فكر السنة بعقد الحلقات الدينية وتدريس العلوم الشرعية وبخاصة فقه أبي حنيفة النعمان ، يجري ذلك بسرية تامة في منأى عن أعين الرقباء حتى إذا أخذت أعراض الضعف تظهر على النظام القرمطي بسبب ما كان قد أصيب به من خلل أخلاقي واجتماعي وسياسي على يد زكيرة الأصبهاني السالف الذكر ، وبسبب خلود أصحاب هذا النظام للراحة والسكون بعد تجميد أنشطتهم العسكرية ضد العباسيين والعبيدين الفاطميين وما أعقب ذلك من تدني مستوى الاهتمام بالجيش والسلاح كماً وكيفاً ، وفتور العلاقة بينهم وبين الأعراب الذين يجنون معهم فوائد الغزو بما يظفرون به من الغنائم ، حينذاك بدأ النشاط السري للمقاومة أكثر وضوحاً فأخذ الفقهاء يتصلون بالبارزين من رجال العشائر يألبونهم على القرامطة ويرغبونهم في الاستيلاء على ملكهم ويحذرونهم من الوقوع في براثن أصحاب الدعوات المشابهة ، فهذا الفقيه الحنفي أبو بكر محمد بن محمد النيسابوري (٢) ، يتصل بالأصفر رئيس المنتفق ويحثه على مهاجمة القرامطة في الأحساء ويرافقه في حصاره لها سنة ٣٧٨ هـ ، وينصحه بعدم التعاون مع حاكم مصر نزار بن معن الملقب بالعزيز حين حاول استمالته إليه وضمه لدعوته ، فقد جاء في المصادر أن العزيز عندما بلغه حصار الأصفر للقرامطة بالأحساء أرسل إليه بأموال طائلة وهدايا نفيسة وسأله أن يبعث إليه أحد ثقاته ، فأرسل الأصفر ابن اخته فأكرمه نزار الكرامة التامة وحمله على سرج من الذهب وقاد بين يديه الخيل وأعطاه الأموال على أن يدعو خاله للدخول في دعوته على أن يقطعه البلدان العظيمة من أرض الشام . ولم يمنع الأصفر من الوقوع في هذا الإغراء سوى الفقيه السالف الذكر ، فقد قال له : (لا تغتر بما يُظهر نزار من أنه من المسلمين وأنه

---

(١) مجلة المنهل ، جـ ٣ ربيع أول ١٣٩٣ هـ ، ص ١٩٤ . (٢) أخبار القرامطة ، ص ٣٣٠ ، سهيل زكار .

يدعو إلى الإسلام وإلى الحق فإنه شر من هؤلاء القرامطة الذين بالأحساء ، وهم الأصل في الفساد الذي وقع في الإسلام ، وخذ الأموال التي أعطوك فإنما هي هدايا أهدوها لك وابتدؤك بها) .

فأرسل الأصفر إلى نزار في جواب الرسالة : (إني لست مجيبك إلى قبول ما بذلت من الإقطاع في الشام إلى أن أفرغ من الأحساء وأهلها وأعرفك ما عندي) .

ورغم أن الأصفر لم يتمكن من فتح مدينة الأحساء لإمتناع أسوارها عليه طيلة عام كامل واكتفائه بالاستيلاء على ما لهؤلاء من المال والعبيد في القطيف ، فإن هذه المحاولة تعتبر الخطوة الأولى في طريق العمل على إزالة الوجود القرمطي من شرق الجزيرة ، فقد نجح بنو ثعلب ثم بنو عقيل في السيطرة على شئون الصحراء ومباشرة خفارة القوافل والحجيج مستأثرين بالرسوم المخصصة لهذا الغرض من الملوك والسلاطين ، وبالتالي تقلص نفوذ القرامطة واقتصر على حواضر البلاد ، كما بدأت أنظمتهم في الإدارة والمال تُمني بالضعف والإنحلال ففقدوا كثيراً من مواردهم ولم يعودوا قادرين على الاستئثار بولاء جميع القبائل لعجزهم عن توفير الأموال الكافية لإرضاء رغباتهم ، كما ارتخت قبضتهم على مصادر الدخل وعجزوا عن الصمود أمام نزوع بعض المواطنين إلى ممارسة الاقتصاد الحر في كافة الميادين الاقتصادية وفرص الاستثمار ، فلجأ القرامطة إلى فرض الأتاوات والرسوم وسمحوا بوجود الضمناء بذلك ، فظهرت على المسرح طبقة من أهل الجاه والثراء وبين هؤلاء من كان على دين الله ، وكانت الإطاحة بالنظام القرمطي أجل أهدافه فسخر ثروته ونفوذه لهذا الغرض باستمالة الأتباع والأنصار من أهل الدين فدخلت المقاومة في مرحلة جديدة من العمل الجاد وتركزت عناصرها في ثلاث مناطق من البلاد هي العيون ، والخط ، وجزيرة أوال ، وقد كانت الأخيرة أسبق المناطق لأخذ زمام المبادرة في حركة التحرير والجهاد ، وقد اتخذت من الرغبة في إحياء الدين القويم وبناء بيت من بيوت الله نقطة الإنطلاق في مسيرتها الجهادية التحريرية ، تم ذلك على يد طائفة مؤمنة من أهل السنة والجماعة المتقلدين لمذهب أبي حنيفة ، وذلك بقيادة العوام بن محمد بن يوسف الزجاج الملقب بأبي البهلول .

وكان ابن الزجاج هذا ضامناً لمكوس أوال ومن أهل الدين ، وقد التف حوله نظراؤه في العقيدة والمذهب وفي مقدمتهم أخوه أبو الوليد مسلم ، وقد قرروا أن يضعوا معاً اللبنة الأولى في بناء مجتمع جديد يستمد لحمته وسداه من الكتاب والسنة ، فدفع أبو البهلول للقرامطة مبلغ ثلاثة آلاف دينار نظير السماح له بإقامة جامع في جزيرة أوال يؤدي فيه صلاة الجمعة من يفد إليها من التجار ، لأن وجود مثل هذا الجامع سيجلب المزيد منهم إليها وبالتالي تتضاعف الرسوم وتكون التجارة أكثر انتعاشاً وإن لم تصدر الموافقة بذلك سوف يحدث العكس تماماً وستفقد الدولة قدراً كبيراً من دخلها ، فأجاب القرامطة بالموافقة على مطلب أبي البهلول ، وما إن اعتلى مسلم ابن الزجاج المنبر بذلك الجامع في أول جمعة تقام فيه بعد الفراغ من بنائه حتى جعل الخطبة للخليفة العباسي القائم مظهراً خلع طاعة القرامطة والخروج عليهم ، فاستنكر هذا الإجراء من كان مع القرامطة هواه وعدوه بدعة أحدثها بنو الزجاج بالحيلة والخداع ، وأن من الواجب منعهم من الخطبة والصلاة فأجابهم أبو البهلول قائلاً بكل صراحة : (ما بذلنا ولا سلمنا أموالنا إلا لهذا الأمر ولأجل هذا الدين قصداً وليس لاستجلاب العجم إلينا وإرغابهم في معاملتنا ، فإن كرهتموه فردوا علينا ما أخذتموه منا ، ونحن نمسك عن ما قصدناه ، وإن نقصت به معاملتنا ، ونقصت به فائدتنا) ، فكتب المعارضون إلى السلطة الحاكمة في البحرين يحيطونها علماً بما أقدم عليه أبو البهلول فلم يجدوا منها أذناً صاغية ، لأن والي جزيرة أوال جعفر بن محمد بن عرهم كان من المتعاطفين مع بني الزجاج وكان كثير الثناء عليهم لدى تلك السلطة ، من هنا أجاب القرامطة بالنهي عن التعرض لأبي البهلول وليخطب أخوه لمن شاء وأحب .

وبعد حين احتاج القرامطة إلى فرض رسوم إضافية على أهل أوال وكلفوا واليهم على الجزيرة ابن عُرهم بإنفاذ ذلك فاجتمع بوجوه الأهالي وأخبرهم بما ورد عليه في هذا الخصوص ، وبعد مناقشة مستفيضة اتفق الجميع على عدم الإذعان لهذا الأمر ، فكتب ابن عرهم للحكومة في الأحساء يخبرها بعجزه عن استيفاء تلك الرسوم متذرعاً بإمتناع الأهالي عن دفعها ، فجاء الرد بعزله والقبض عليه وإسناد ولاية الجزيرة لرجل آخر مع تكليف الوالي الجديد بالقبض على أصحاب المال ومصادرته منهم ، فجمع أبو البهلول أنصاره وأتباعه وأقاربه ومن يثق بهم من الوجهاء والأعيان وأخبرهم بما ورد بصدد امتناعهم عن دفع تلك الضريبة المفروضة عليهم وما تمخض عنه ذلك من القبض

على ابن عرهم والمساعي المبذولة في القبض عليهم أيضاً ومصادرة أملاكهم .

فاستقر الرأي على عدم الرضوخ لمطلب القرامطة واتصل أبو البهلول بالوجهاء والأعيان في الجزيرة وفي مقدمتهم ابن أبي العريان لما له من كثرة الأتباع والأنصار ، واتفق الجميع على جعل إعادة ابن عرهم لولاية الجزيرة شرطاً في القبول بدفع الضريبة التي يريد القرامطة حملهم على دفعها ولعلهم أرادوا بذلك أحد مكسبين هما تسجيل نصر معنوي على القرامطة في حالة إعادة ابن عرهم لولاية الجزيرة أو استغلال الرفض في حالة حدوثه لإلهاب عواطف الناس وتأجيج مشاعرهم ودفعهم لتصعيد المقاومة ضد القرامطة ورغبة من أبي البهلول في إسعاد المجتمعين ومساعدتهم على اتخاذ موقف أشد صرامة قرر أن لا يأخذ الرسوم المعتادة منهم ، وقال : (الخراج موقوف على أربابه وغير مأخوذ فإن رجع ابن عرهم سُلّم إليه وإلا فليفر كل منكم بما عليه) (1) ، وبلغهم أن الوالي الجديد يحاول القبض على كبار قادتهم فأخذوا زمام المبادرة للقتال وشنوا عليه هجوماً ألجأه للفرار إلى الأحساء بعد قتل عدد من أصحابه .

وكتب أبو البهلول وابن أبي العريان للقرامطة بأنهم سيظلون خارج الطاعة ما لم تتم إعادة ابن عرهم لإدارة شئون الجزيرة فوراً ، فورد الجواب برفض مطالبهم وتهديدهم بالغزو لإرغامهم على الإذعان والطاعة ، وبعث عبد الله بن سنبر أحد أبنائه إلى عُمان لجلب السلاح والأموال منهم ولكن قادة المقاومة في أوال سارعوا لاعتراضه أثناء عودته فقتلوه ومن معه وكان عددهم أربعين رجلاً واستولوا على ما بحوزتهم وكانت خمسة آلاف دينار وثلاثة آلاف رمح ، واستعانة القرامطة بعُمان في هذا الشأن يدل بوضوح على تدهور صناعة السلاح لديهم ونضوب مواردهم المالية ، ولما علم ابن سنبر بما انتهى إليه مصير ابنه فكر في إضعاف أهل أوال بالحيلة والمكر ، فاستمال ابن أبي العريان وأغراه بالتخلي عن ابن الزجاج ووعده بجعله والياً على أوال في حالة القضاء على المقاومة ، فقبل ابن أبي العريان العرض ووعد ابن سنبر بخذلان أبي البهلول أثناء المعركة التي يتم الإعداد لإشعالها ، وبلغ ذلك أبا البهلول فقام بالتعاون مع أحد أبناء عمومة ابن أبي العريان بالفتك به واسترضاء أتباعه وإقناعهم بالتعاون مع المقاومة ، وفي معركة بحرية ضارية التحمت جموع المقاومة بعساكر ابن سنبر ولم يكن يعلم بما

---

(1) مجلة العرب ، عدد رمضان وشوال ، ص ١٦٤ ، سنة ١٤٠٤ هـ ، الشيخ حمد الجاسر .

جرى لحليفه ابن أبي العريان كان في نهايتها النصر للمقاومة بقيادة أبي البهلول الذي قاد المعركة بمهارة فائقة رغم أن ساقه تعرضت لكسور مني بها قبل بدء القتال بقليل ، وبعد هذا النصر استقر الأمر في أوال لأبي البهلول فقلد أخاه أبا الوليد وزارته ثم أخذ يشن الغارات على حواشي الأحساء وأراد أن يحول دون وصول المدد والمؤن إلى القرامطة عن طريق البحر ، فدمر ميناء العقير وهي دهليز الأحساء ومصب الخيرات منه إليها ، ورغبة منه في السعي للإستيلاء على الأحساء واقتلاع جذور القرامطة ومحو بدعهم كتب إلى أبي منصور يوسف صاحب ديوان الخلافة يطلب المدد والنجدة ليتم له ما يريد من الأهداف في رسالة مسهبة شرح فيها محنة البلاد ومعاناة أهلها من السيطرة القرمطية وما أحدثته تلك السلطة من ممارسات البطش والإرهاب داخل المنطقة وخارجها ، كما يؤكد أن الوقت قد حان للقضاء عليها وتصفية وجودها ثم يبين ما بذلت عناصر المقاومة بقيادته من الجهود في هذا السبيل التي كان من ثمارها نجاحه في تحرير جزيرة أوال من قبضتها ، واتخاذه أميراً على الجزيرة من قبل أهلها وجعل محض ولائه للخلافة العباسية دون غيرها ، وكيف أنه على استعداد لتحرير كامل البلاد متى توفرت له الأموال الكافية لاسترضاء الأعراب وصرفهم عن أبواب القرامطة بالأحساء والاستئثار بولائهم ومساعدتهم ، ثم يطلب من الخلافة دعمه وتأييده بجميع الوسائل الممكنة وأن ذلك من أفضل الأعمال وأبرها عند الله تعالى ويستشهد على إنجازاته في الجزيرة بشهود عيان من المقربين للخلافة كالشيخ أبي يعلى ظافر بن علي الرحبي ثم يختم الرسالة بالدعاء للخليفة العباسي القائم ويلتمس منه سرعة الجواب والتأييد (١) ، ولكن القدر لم يمهل هذا الزعيم المتحمس حتى يحقق جميع طموحاته وآماله ، فقد عاجلته المنية صريعاً على يد زكريا بن يحيى بن العياش الذي كان أبوه قد نجح في الاستقلال بالقطيف هو الآخر ، وكان في طليعة أهدافه الاستيلاء على جزيرة أوال (٢) ، ولكن راية النضال ضد القرامطة لم تسقط في الرغام فقد تلقفتها بعد أبي البهلول أيد عبقسية أخرى انطلقت من مدينة العيون الكائنة شمال مدينة الأحساء بقيادة عبد الله بن علي العبقسي العيوني لتقتلع ما تبقى للقرامطة من جذور هناك ، وقد تكللت جهوده بالنجاح فاستأصل شأفة القرامطة من آخر معاقلهم في البلاد بعد حصار طويل فرضه عليهم وقتال شديد ومرير شاركتهم فيه جيوش

---

(١) أنظر : كتابنا تاريخ هجر ، ص ١٤٣ .   (٢) ديوان ابن المقرب العيوني ، ص ٥٣٩ .

قدمت من اليمن لإسعافهم إلى جانب خلق كثير من عامر ربيعة التي تقاسمت معهم عار الهزيمة وسوء المصير ورغبة من الأمير عبد الله العيوني في توحيد البلاد تحت لواء واحد عمل سريعاً في القضاء على ابن العياش في القطيف وجزيرة أوال كما جد في قمع جميع مراكز القوى والنفوذ من الداخل والخارج واتخذ الإجراءات التي أسهمت في إعادة الوجه المشرق للبلاد برونق الإسلام وجلال شعائره ، وبهذه الإنجازات أرسي دعائم دولة وطنية ظلت رايتها خفاقة على كامل إقليم البحرين طيلة المدة الممتدة من ٤٧٥ هـ إلى ٦٣٦ هـ .

* * *

القسم السادس

إحياء فكر السنّة

إحيــاء فكــر السنـــة :

لم تستطع محارق القرمطة حين استعرت واشتد أوارها في شرق الجزيرة العربية أن تلتـهم جمـيع العناصر السـائرة على منهج السنة المطهـرة ، فـقـد اسـتطاعت تلك العناصر أن تحتفظ لنفسها بموطئ قدم في بعض المواضع كالعيون وجزيرة أوال ، وقد كانت هذه العناصر كما أسلفنا شرارة المقاومة التي ظلت تتقد تحت الرماد من ٢٨٧ هـ ، حتى ٤٦٠ هـ ، حيث تأججت آنذاك وأخذت تلتـهم في نهم شديد النظام القرمطي من أطرافه حتى أتت عليه تماماً في آخر محطاته سنة ٤٦٦ هـ ، وقد كان إحياء السنة ونصرة كلمة الله الدافع والغاية لتلك الحركة في كافة مراحلها يقول العوام ابن محمد بن يوسف الزجاج عن تلك العُصبة من المجاهدين في الخطوات العملية الأولى لإنطلاقتهم من جزيرة أوال : (فكنت أرصد الوقت الذي جاء حينه أغمز قناتهم ، وأقرع عند أوانه صفاتهم ، فنهضت متعصباً للدولة العباسية ، والدعوة الهاشمية ، أدامها الله ما دام الديموم ، وأزهرت النجوم منتصراً لدين الله تعالى ، ومعيداً ما طمس من شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث إلى من بهذه الجزيرة المعمورة من ولد عبد القيس أعزهم الله تعالى على التوازر والتظاهر والتناصر في ذات الله ، وطلباً لما عند الله (وما عند الله خيرٌ للأبرار) فأقبلوا نحوي داعين ولقولي مطيعين وإلى ندائي مبادرين ، فطردنا من كان عندنا من ولاة القرامطة بعد خذلهم ، ومن يقول بقولهم ويتمذهب بمذهبهم ، ولم يبق بهذه الجزيرة ـ حماها الله تعالى ـ ناظر يلي أمرها ولا آمر ولاناه يدبرها ، فاجتمع رأيهم على ترقيتي درجة الإمارة ، ثم يقول : فامتنعت من قبولها ، ونأيت عنها ، فأكثروا تردادهم إليّ وعقدوا خناصرهم عليّ فالتزمتها بعد عهود إليهم عهدتها ، وعقود وثيقة عليهم عقدتها أنهم يبذلون الأرواح في سبيل الله ومجاهدة القرامطة أعداء الله ، مستشعرين طاعة (الدولة العباسية) والكلمة المباركة الهاشمية ، مدة أعمارهم ، ومنتهى آجالهم ، وتكون طريقتهم الطاعة ، ومذهبهم السنة والجماعة ، مذهب الإمام أبي حنيفة ، به يُعرفون وعليه يحيون ويموتون ، مستصبراً فيما اعتمدته وتوخيته ، وعليه صحة نيتي ومحض عقيدتي طويته ، مستعيناً بالله تعالى ، وواثقاً منه بحسن المعونة على ما أولانيه وجميل المقابلة فيما أنا لنيه) (١) .

(١) تاريخ هجر ، ص ١٤٥ ، و١٤٦ .

ومن هنا يمكن القول أن العصبة المار ذكرها كانت الامتداد الطبعي للمجتمع المسلم الذي تأسس في هذه البلاد منذ الأيام الأولى لإشراق الإسلام ، كما أصبحت تلك العُصبة نواة المجتمع الجديد الذي تشكل في البلاد بعد زوال السيطرة القرمطية عليها ، حيث استأنفت حركة الإصلاح الديني نشاطها على طريق التغيير والبناء .

فقد تم إلغاء جميع النظم والقوانين المتبعة في عهد القرامطة وحلت النظم والأحكام المنبثقة من المحجة البيضاء محل تلك النظم والقوانين ، فتمت إقامة الصلوات وجباية الزكوات ، وتأسيس المحاكم الشرعية لإصدار الأحكام وإقامة الحدود ، والفصل في الخصومات ، وإجراء العقود الشرعية ، وتنظيم الأحوال الشخصية والاجتماعية والاقتصادية بما ينسجم مع روح الشريعة ونصوصها ، كما اتخذت الاجراءات العاجلة والحاسمة لتصفية كل ما تبقى للقرامطة من عادات وتقاليد وبدع ، فقد أسند الأمير عبد الله العيوني هذه المهمة لأحد أبنائه كما حرص هذا الأمير على إحاطة الشعائر الدينية بكل ما تستحقه من التعظيم والإجلال ، فكان يخرج إلى صلاة العيد في موكب مهيب من أولاده وأقاربه وكبار رجال دولته على متون الخيول المطهمة تظللهم المظلات (١) ، وتخفق فوق هاماتهم الرايات وتجري من بين أيديهم الصدقات على الفقراء والمحتاجين .

كما أصبحت إقامة المساجد والمبرات ميداناً يتنافس فيه عشاق الخير والإحسان من أفراد المجتمع رجالاً ونساءً فهذه إحدى بنات الأمير عبد الله العيوني تقيم في الموضع المعروف بالجعلانية مسجداً أشارت إلى ذكره شروح ديوان ابن المقرب العيوني .

ولاشك أن تلك المساجد قد أدت دوراً أساسياً في بلورة الوعي الديني ونشر تعاليم الإسلام من خلال الخطب والمواعظ وإلقاء الدروس العلمية المختلفة ، ولابد أن يكون لتلك المساجد ما يتبعها عادة في هذه البلاد من المدارس التي تخصص لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة ، كما لابد أن يتوفر لتلك المهام من يشغلها من العلماء المحليين والذين يتم استقدامهم لهذا الغرض من مختلف البلاد الإسلامية كما أصبحت أبواب البلاد منذ بداية الحكم العيوني مشرعة أمام الوافدين عليها من داخل الجزيرة وخارجها فهاجرت إليها أسر كثيرة وخاصة في سنوات القحط والجدب والجراد والحروب المدمرة التي كانت تتعرض لها أقاليم الجزيرة العربية بين وقت وآخر ، بحيث تجبر الكثيرين على النزوح من أوطانهم ميممين شرق الجزيرة العربية ليلقوا فيها

(١) تاريخ هجر ، ص ١٤٥ ، و١٤٦ .

عصا التسيار ، فيجدون في وافر خيراتها ورحابة صدور أهلها ما ينسيهم مواطنهم الأولى .

لاعيب فيهم سوى أن النزيل بهم   يسلوا عن الأهل والأوطان والولد

وكان كثير من تلك الأسر من أهل السنة والجماعة فزاد ذلك من إحياء فكر السنة وبلورته وصياغة مجتمع جديد يشكل فيه أصحاب هذا الفكر الغالبية الغالبة في بعض مناطق شرق الجزيرة العربية لم يأت القرن السابع الهجري ، إلا وقد أصبح لهؤلاء من صفاء العقيدة وحسن الاستقامة وصلابة الدين وإلتماس المعرفة فيه شهرة جعلت شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ينوه بما بلغه عنهم من الاعتصام بمنهج السنة والجماعة والتمسك بتعاليم الإسلام ، والبعد عن مخالفة أحكامه وذلك في رسالة وجهها لأهل البحرين في إثر استقباله لوفد منهم قدم عليه مستفتياً في حكم صحة صلاة الجمعة في البحرين إذا كانت بيوت السكان من جريد النخل وقد جاء في تلك الرسالة قوله بعد أن ذكر اسم الله وصلى على نبيه : (من أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية إلى من يصل إليه كتابه من المؤمنين والمسلمين من أهل البحرين وغيرهم عامة ولأهل العلم والدين خاصة) .

ثم يقول : (أما بعد فإن وفداً قدموا من نحو أرضكم فأخبرونا بنحو مما كنا نسمع عن أهل ناحيتكم من الإعتصام بالسنة والجماعة ، وإلتزام شريعة الله التي شرعها على لسان رسوله ومجانبة ما عليه كثير من الأعراب من الجاهلية التي كانوا عليها قبل الإسلام من سفك بعضهم دماء بعض ونهب أموالهم وقطيعة الأرحام والإنسلال عن ربقة الإسلام ، وتوريث الذكور دون الإناث ، ثم يردف منوهاً في موضع آخر من رسالته إليهم بما كان لأسلافهم من مواقف حميدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة فيقول : وليس هذا ببدع فإن أهل البحرين ما زالوا من عهد رسول الله صلى اللله عليه وسلم أهل إسلام وفضل ، وقد قدم وفدهم من عبد القيس على رسول الله وفيهم الأشج فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى .... إلخ .

واستطرد في مكان آخر من تلك الرسالة فقال : ثم إنهم أقاموا الجمعة بأرضهم

فأول جمعة جمعت في الإسلام بعد جمعة المدينة بجواثا قرية من قرى البحرين ، ثم إنهم ثبتوا على الإسلام لما توفى رسول الله وارتد من إرتد من العرب (١)) ولشهادة شيخ الإسلام هذه بلا شك أهمية خاصة لما بينه وبين هؤلاء القوم من بعد الشقة ولما عُرف عنه من تميز في كثير من الصفات الحميدة ، يقول الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك بهذا الصدد : (ولو كتب هذا الثناء غير شيخ الإسلام ابن تيمية لما كان له هذا الوزن في نفوسنا ، نظراً لأن المعروف من سيرة هذا العالم الجليل الصدق والأمانة والدقة في الحكم على الأشياء والابتعاد عن التزلف والتقرب لأي من كان مما عرضه للسجون والتعذيب مرات متكررة) (٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا القطاع من المجتمع أخذ يدخل في طور جديد من التنامي والإتساع بصورة ملحوظة منذ القرن التاسع الهجري ، حيث أخذت تتقاطر على البلاد أسر كثيرة من أهل السنة من مالكية وأحناف وشوافع وحنابلة بفضل جهود محبي الإصلاح من الأهالي والصالحين من ولاة الأمر ، وقد تم إنشاء العديد من الجوامع ومؤسسات العلوم الدينية كالمدارس والأربطة المساندة لها وتأمين الإنفاق على المنتسبين إليها والعاملين فيها من ريع عقارات تم تحبيسها لهذا الغرض ، كما قدم للعمل بها العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وقد كان هؤلاء نواة لظهور أسر علمية كان لها أكبر الأثر في نشر فكر السنة في شرق الجزيرة العربية وخلق نهضة متميزة نشطت فيها حركة التعليم والتوجيه والإرشاد والتأليف في مختلف العلوم .

وقد كانت مدن الأحساء أهم مراكز ذلك النشاط حيث أصبحت مصدر إشعاع فكري ومناراً يقصده طلاب المعرفة والعلم من داخل الإقليم وخارجه .

وبهذه الجهود تمت صياغة المجتمع الجديد وإعادة الوجه المشرق للحركة الفكرية في شرق الجزيرة العربية .

تم بتوفيق الله وعونه في العشرين من محرم سنة ألف وأربعمائة وأربعة عشر للهجرة .

* * *

(١) فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ ٢٤ ، ص ١٦٣ ، ط١ .

(٢) جريدة المدينة ، ١٢ رجب ، ١٤٠٢ هـ .

* المصـادر والمراجـع *

١ ـ البحـرين عبـر التاريخ ـ الشـيخ عبـد الله بن خـالد آل خليـفة وعبـد الملك يوسف الحمر ـ الطبعة الثانية .

٢ ـ تاريخ هجر ـ عبد الرحمن عثمان آل ملا ـ الطبعة الثانية .

٣ ـ البحرين في صدر الإسلام ـ عبد الرحمن النجم .

٤ ـ فتوح البلدان ـ أبو الحسن محمد بن يحيى البلاذري .

٥ ـ محاضرات في تاريخ العرب ـ العلي .

٦ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ د. جواد علي .

٧ ـ شرح الأصول الخمسة ـ قاضي القضاه عبد الجبار بن أحمد .

٨ ـ جمهرة أنساب العرب ـ أبو محمد علي الأندلسي .

٩ ـ مروج الذهب ـ أبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي .

١٠ ـ مذكرات شريفة الأمريكانية .

١١ ـ رجال في جزائر اللؤلؤ ـ خالد البسام .

١٢ ـ الكتابات الأولى الحديثة لمثقفي البحرين ـ مبارك الخاطر .

١٣ ـ عمدة القارئ ـ العيني .

١٤ ـ المواهب اللادنية ـ القسطلاني .

١٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ مطبعة مصطفى محمد ـ القاهرة ١٩٣٩ .

١٦ ـ فتح الباري ـ القسطلاني .

١٧ ـ مسند الإمام أحمد .

١٨ ـ كتاب وفود الإسلام ـ أبي تراب الظاهري .

١٩ ـ ابن سعد .

٢٠ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، نشر مكتبة القدس ، القاهرة .

٢١ ـ فتاوي شيخ الإسلام ـ ابن تيمية .
٢٢ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .
٢٣ ـ صحيح البخاري .
٢٤ ـ المستظرف .
٢٥ ـ تاريخ الخليج العربي ، فاروق عمر .
٢٦ ـ تحفة الأعيان ـ السالمي .
٢٧ ـ الملل والنحل ـ الشهرستاني .
٢٨ ـ دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة) ـ د. أحمد محمد أحمد جلي .
٢٩ ـ الكامل في اللغة ـ المبرد .
٣٠ ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد .
٣١ ـ مسائل الإمامة ـ أبو العباس .
٣٢ ـ العقود الفضية ـ سالم بن حمد بن سليمان بن حميد الحارني .
٣٣ ـ من أدب الخوارج في العصر الجاهلي ـ د. سهير القلماوي .
٣٤ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي .
٣٥ ـ تاريخ ابن خلدون .
٣٦ ـ الفرق بين الفرق ـ عبد القادر بن طاهر البغدادي .
٣٧ ـ الأمثال ـ الميداني .
٣٨ ـ تحفة المستفيد ـ محمد بن عبد الله آل عبد القادر .
٣٩ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ـ حسن إبراهيم حسن .
٤٠ ـ عصر الدول الإقليمية ـ د. حامد غنيم .
٤١ ـ الأصول التاريخية للفرقة الأباضية ـ عوض محمد خليفات .
٤١ ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية ـ عوض محمد خليفات .

٤٢ ـ مصباح الظلام ـ الرقيشي .

٤٣ ـ السير ـ الشماخي .

٤٤ ـ الخليج العربي ـ السير ويلسون .

٤٥ ـ مسند الربيع بن حبيب .

٤٦ ـ كتاب الموجز ـ أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي .

٤٧ ـ الجامع الصحيح ـ الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي .

٤٨ ـ مقدمة ابن خلدون .

٤٩ ـ فضائح الباطنية ـ الغزالي .

٥٠ ـ المقالات والفرق ـ سعد القمي .

٥١ ـ صحيح مسلم .

٥٢ ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين .

٥٣ ـ خطط المقريزي .

٥٤ ـ أضواء على خطوط محب الدين الخطيب ـ عبد الواحد الأنصاري .

٥٥ ـ الفهرست ـ أبو الفرج محمد ابن إسحق .

٥٦ ـ أعلام هجر ـ محمد هاشم الشخص .

٥٧ ـ كنز الأنساب ـ الشيخ حمد الحقيل .

٥٨ ـ واحة على ضفاف القطيف ـ محمد سعيد المسلم .

٥٩ ـ أنوار البدرين لتراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين ـ علي بن حسن البلادي .

٦٠ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية .

٦١ ـ أحسن الوديعة ـ محمد مهدي الأصفهاني .

٦٢ ـ تاريخ الأحساء السياسي ـ د. محمد عرابي نخله .

٦٣ ـ المغنى ـ القاضي عبد الجبار بن أحمد .

٦٤ ـ الحور العين ـ أبو سعيد نشوان الحميري ، تحقيق : كمال مصطفى ،

مطبعة السعادة ـ مصر .
٦٥ ـ الشيعة في الميزان ـ محمد جواد مغنيه .
٦٦ ـ من لا يحضره الفقيه ـ ابن بابويه القمي .
٦٧ ـ عقائد الإمامية ـ محمد رضا المظفر .
٦٨ ـ تلخيص الشافي ـ محمد بن الحسن الطوسي .
٦٩ ـ أصل الشيعة وأصولها ـ محمد الحسين آل كاشف الغطاء .
٧٠ ـ أصول الدين الإسلامي ـ محمد علي ناصر .
٧١ ـ أثر الإمامة في الفكر الجعفري وأصوله ـ علي أحمد السانوس .
٧٢ ـ في إنتظار الإمام ـ د. عبد الهادي الفضلي .
٧٣ ـ القرامطة ـ عارف تامر .
٧٤ ـ أخبار القرامطة ـ سهيل زكار ـ (١) نشر دار الكوثر ـ (٢) نشر دار حسان .
٧٥ ـ إتعاظ الحنفاء ـ تقي الدين أحمد المقريزي .
٧٦ ـ الإشراف والتنبيه ـ أبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي .
٧٧ ـ البحرين ـ محمود شاكر .
٧٨ ـ تاريخ ابن عساكر .
٧٩ ـ المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية ـ الشيخ حمد الجاسر .
٨٠ ـ ديوان ابن المقرب العيوني ـ جمال الدين علي بن المقرب العيوني .
٨١ ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي .

* * *

الفهـرست

الموضـــوع	الصفحـة
المقــدمــة	٥
القســم الأول : العبادات السائدة في المنطقة قبل الإسلام :	١١
أولاً : عصور ما قبل التــاريخ المدون	١٤
(العبادة من خلال الأساطير)	١٤
ثانيــاً : المجوسية	٢١
ثالثــاً : الديانة الأسبذية (عبادة الخيل)	٢٣
رابعــاً : اليهودية	٢٣
خامساً : النصرانية	٢٤
ـ حول نشوء مذاهب النصرانية	٢٦
ـ حول المذهب النسطوري	٢٨
ـ وصول النصرانية لشرق الجزيرة	٢٩
ـ النشاط التبشيري في شرق الجزيرة وإخفاق جهوده	٣٣
القسم الثـانـي : إشراق الإسلام في شرق الجزيرة العربية :	٤٥
أولاً : الإســلام فى البحـــرين	٤٧
الوفادة الأولى على الرسول (ﷺ)	٤٨
أسماء الوفد	٥٣
انتشار الإسلام في بلاد البحرين	٥٥
حركة الردة وموقف أهل البحرين منها	٦٥
ثانيــاً : الإســلام فى عُمــان	٧٧
حركة الردة في عُمــان	٨٠
القسم الثـالث : حركة الخوارج :	٨٣
أولاً : نشأة الخوارج	٨٥
الحركة الخارجية في العصر الأموي	٩٠
ثانيــاً : المبادئ العامة للخوارج	٩٣

تابع الفهرست

الموضوع	الصفحة
ثالثاً : فرق الخوارج	٩٦
أ ـ الأزارقة	٩٦
ب ـ النجدات	١٠٠
ـ قتل نجدة واستيلاء أبي فديك على مقاليد حركة الخوارج	١٠٤
ـ انتفاضات بني عبد القيس في البحرين	١٠٧
ـ خروج المهير بن سلمة أحد بني حنيفة في البحرين واليمامة	١٠٨
ـ انتفاضة سليمان بن حكيم في البحرين	١٠٩
ـ حركة صاحب الزنج	١١٠
ـ حروب صاحب الزنج ونهاية حركته	١١٤
جـ ـ الإباضية	١٢٠
ـ النشاط السري للحركة الإباضية	١٢٢
ـ النشاط الأباضي في عُمان	١٢٥
ـ العقائد والأحكام في الفكر الإباضي	١٣١
١ ـ عقائد الأباضية	١٣١
٢ ـ فقه الأباضية	١٣٤
ـ الإباضية والخوارج	١٣٧
القسم الرابع : الشيعة والتشيع :	١٤١
ـ مدلول التشيع	١٤٣
أولاً : نشأة التشيع	١٤٤
ثانياً : ظهور التشيع فى شرق الجزيرة العربية	١٥٠
ـ فرقهم المذهبية في شرق الجزيرة العربية	١٥٣
ثالثاً : مدلول التشيع عبر مراحل نشاطه الحركي	١٥٥
رابعاً : الفرق العامة للشيعة	١٥٦
أ ـ غلاة الشيعة	١٥٦
ب ـ الشيعة الإمامية	١٥٧

تابع الفهرست

الموضـــــوع	الصفحـة
القسم الخامس : القرامطة :	١٦٧
أولاً : نشأة الحركة القرمطية	١٦٩
ثانياً : المبادئ العامة للحركة القرمطية وأساليبها فى الدعوة	١٧٢
ثالثاً : الدعوة فى مرحلة العمل	١٧٦
ـ الدعوة في دور التطبيق	١٧٩
ـ إنهيار الحركة القرمطية بسواد العراق	١٨١
رابعاً : الحركة القرمطية فى البحرين	١٨٧
ـ نجاح أبي سعيد في الاستيلاء على مدن البحرين ونواحيها واجراءاته في الحقلين الداخلي والخارجي	١٨٩
ـ ترتيبات أبي سعيد في الحقل الداخلي ووفاته	١٩٢
ـ مصرع أبي سعيد الجنابي	١٩٢
ـ الحركة القرمطية في ظل أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي	١٩٤
ـ أبو طاهر يعترض الحجيج	١٩٦
ـ مسير أبي طاهر إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج	٢٠٢
ـ مسير أبي طاهر إلى مكة وقتل الحجيج بها واقتلاع الحجر الأسود	٢١٠
ـ قرامطة العراق يستأنفون نشاطهم برعاية أبي طاهر......	٢١٥
ـ فتنة الأصبهاني وأثرها على سير الحركة القرمطية	٢١٦
ـ أبو طاهر يغزو الساحل الشرقي للخليج	٢٢٠
ـ أبو طاهر واعتراض الحجيج	٢٢٢
ـ أبو طاهر يغزو الكوفة	٢٢٣
ـ وفاة أبي طاهر وكيف سارت الأحوال بعده في البحرين	٢٢٤
ـ الحركة القرمطية في ظل ولاية الأعصم	٢٢٥

تابع الفهرست

الموضوع	الصفحة
ـ مسير الأعصم إلى مصر بعد إستيلائه على الشام	٢٢٨
ـ بين الأعصم وجوهر الصقلي	٢٢٩
ـ عودة الأعصم للأراضي الشامية ومصر	٢٣٠
ـ المجابهة بين الأعصم والمعز	٢٣١
ـ عودة الأعصم إلى الشام من جديد ووفاته هناك	٢٣٤
ـ الحركة القرمطية في ظل أحفاد أبي سعيد الجنابي	٢٣٧
ـ حاضرة القرامطة وسير الحياة في أيامهم	٢٣٨
أ ـ مدينة الأحساء	٢٣٨
ب ـ سير الحياة في أيام القرامطة	٢٤٠
ـ زوال الحركة القرمطية ودور أبناء شرق الجزيرة في القضاء عليها ومحو آثارها	٢٤٤
القسم السادس : إحياء فكر السنة .	٢٥٣
المصادر والمراجع	٢٥٩
الفهرست	٢٦٣

* * *

المؤلف في سطور

من ديوان أغاريد من الخليج « لعبد الرحمن آل ملا »

الاسم والنشئة والتحصيل العلمي (١) : عبد الرحمن بن عثمان بن محمد آل ملا ، من أسرة آل ملا المعروفة في الأوساط العلمية والأدبية لكثرة من أنجبت من العلماء عبر القرون الخمسة الماضية .

ولد في شهر صفر من سنة ١٣٥٩ هـ / مارس ١٩٤٠ م ، في مدينة الهفوف بمحلة الرويضة من حي الكوت ، مقر سكن أسرته وفيها كانت نشأته .

فقد البصر في السنة الخامسة من عمره على أثر إصابته بالرمد الصديدي فلم يحدّ ذلك من إصراره على مواصلة التحصيل العلمي وممارسة الكتابة ونظم الشعر .

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة على يد إمرأة كفيفة صالحة . كما أخذ مبادئ النحو والصرف والتجويد عن الشيخ / عبد المحسن الخوراني أحد خريجي الأزهر المستقدمين للتعليم بالمملكة .

أتم دراسته الثانوية في المعهد العلمي بالهفوف سنة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، كما حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية من كلية اللغة العربية بالرياض سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، وفي السنة ذاتها وجهه

(١) أنظر جريدة الجزيرة الصفحة [١٠] العدد ٥٢٦٦ ـ يوم الاثنين ١٢ شوال سنة ١٤٠٧ هـ .

سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ لعمل شرعي بوزارة الأوقاف ، ولأن النظر في القضايا الشرعية لا تدخل مجال تخصصه فقد تمكن بعد جهد من إقناع الشيخ بعدم رغبته في مزاولة ذلك العمل .

ومن ثم أنتظم في سلك التدريس بوزارة المعارف ، وفي سنة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، توجه إلى القاهرة للدراسة بها ضمن بعثة دراسية أوفدتها إلى هناك وزارة المعارف فحصل على دبلوم في التربية الخاصة .

شغف بمطالعة الكتب في مختلف العلوم والآداب وتذوق الشعر وحفظه ونظمه منذ نعومة أظافره فكان يمضي سحابة النهار وشطراً من الليل في تفيء ظلال الأدب الرفيع وروائع الشعر مع نخبة من طلبة العلم المهتمين بمتابعة الحركة الفكرية مما مكنه من المشاركة الفعالة في النادي الأدبي بالمعهد العلمي فور التحاقه للدراسة بالمعهد سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

نشرت بعض بواكير قصائده في المجلة التي أصدرها نادي المعهد بعنوان (هجر) وطبعت في بيروت سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

إسهاماته في التأليف والنشر :

١ ـ ألف كتاباً في التاريخ من جزأين تحت عنوان « تاريخ هجر » دراسة حضارية شاملة للحياة الطبيعية والعمرانية والاقتصادية والسياسية في الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية « البحرين قديماً » الأحساء ـ الكويت ـ البحرين وقطر في العصر الحديث (١) ، صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ والطبعة الثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

---

(١) أنظر جريدة اليوم الصفحة ٧ ، العدد ٦٣٥٠ ، يوم السبت ١٦ ربيع ثاني ١٤١٠ هـ .
و « « « ٧ ، العدد ٦٣٧٤ ، الثلاثاء ١٠ جمادى الأولى ١٤١١هـ .
و أنظر جريدة الجزيرة ، الصفحة ٧ ، العدد ٧٠٦٨ ، الثلاثاء ١ شعبان ١٤١٢ هـ .

٢ ـ ديوان شعر مهيأ للطبع بعنوان « أغاريد من الخليج » ، شمل باقة من القصائد المتنوعة ومسرحية شعرية بعنوان « وليل آخر » .

٣ ـ عدد من المسرحيات التاريخية والاجتماعية تم تمثيل بعضها على مسارح بعض مدارس المنطقة الشرقية في المملكة . حضر الملك سعود رحمه الله عرض إحداها إبان زيارته للأحساء فحظيت بإعجابه فأنعم على المشاركين فيها بجوائز مالية سخية .

٤ ـ تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعمان .

٥ ـ قصائد مختلفة الأغراض نشرت في عدد من الصحف والمجلات كمجلة الجزيرة التي كانت تصدر في الرياض تحت إشراف أديب الجزيرة الكبير الشيخ عبد الله بن خميس .

٦ ـ شارك في بعض الأمسيات الشعرية وألقى طائفة من المحاضرات التاريخية والأدبية في عدد من المناسبات الثقافية .

هذا ولديه بعض المشاريع والإصدارات التي يعكف على إنجازها ويأمل أن ترى النور قريباً إن شاء الله .

* * *

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

طُبع بمركز الجواد للطباعة والتغليف

ت : ٥٨٧٦١٨٠ / ٠٣ ـ فاكس : ٥٨٧٠٣٤٣ / ٠٣

الأحساء ـ الهفوف ـ المملكة العربية السعودية

عزيزي القارئ ....

إن هذا الكتاب الذي بين يديك الآن يعد من أفضل المراجع التاريخية لشرق الجزيرة العربية وعُمان ، حيث عكف مؤلفه على دراسة تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها المختلفة والتحولات الكبيرة التي نتجت عنها ، حتى لكأنك تعيش تلك الأحداث أثناء قراءتك لها ، فلو كنت طالباً فلن تجد أفضل من هذا الكتاب كمرجع تاريخي وعلمي هام يفيدك ، وإن كنت باحثاً فها هو المصدر الذي يمكنك الوثوق به لجميع معلوماتك ، وإن كنت مثقفاً ترغب في الاطلاع على الماضي وتاريخ شرق الجزيرة العربية فإن لديك كتاباً تجد بين دفتيه فيضاً من المعلومات التاريخية التي تصبو لمعرفتها .

ويسرنا نحن « الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع » أن نضع بين يديك هذا المرجع التاريخي الهام ، لتثري به معلوماتك ومكتباتك ، ولتعرف أكثر عن تاريخ وطننا الحبيب ..

هذا والله الموفق ....

ردمك : ٩ — ٥٠ — [illegible]

Bibliotheca Alexandrina
0392603